ثقافة المقاومة

إعادة بناء الذات العربية

أ. د. حسين جمعة

ثقافة المقاومة

إعادة بناء الذات العربية

اسم الكتاب: ثقافة المقاومة -إعادة بناء الذات العربية

المؤلف: أ. د حسين جمعة

الطبعة الأولى: 2014

عدد النسخ: 1000

الترقيم الدولي: ISBN: 978-9933-22-057-0

جميع العمليات الفنية والطباعية تمت في :

دار مؤسسة رسلان للطباعة و النشر والتوزيع



يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار مؤسسة رسلان

للطباعة و النشر و التوزيع

دمشق – جرمانا – الآس الشرقي

هاتف: 00963115627060

هاتف: 00963115637060

فاكس: 00963115632860

ص .ب : جرمانا 259

www.darrislan.com

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وهُوَ خَيرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ واللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾

(البقرة 216/2)

صدق الله العظيم

المقدمة

ها قد مَرَّست سنوات ونيف منذ عام (2007م) على طباعة كتابنا (المقاومة؛ قراءة في التاريخ والواقع والآفاق) وسبع سنوات على العدوان الصهيوني على لبنان شعباً ومقاومة وأرضاً في (2006/7/12م). وكنا نعتقد بأن العقل العربي قد أيقن بحقيقة (المقاومة) التي تجسد ماهية الانتماء وروح الفعل الخَلاَّق في مواجهة العدو الصهيوني الذي استهدف الهيمنة على الوطن العربي والسيطرة على المقدرات البشرية والطبيعية... ولم نكن نتوقع من أي عربي أن يوجه سهام حقده تجاه المقاومة في لبنان أو فلسطين أو العراق أو... وأن يقع في انحرافات خطيرة على المستوى الإيديولوجي (النظري) والوجدان العاطفي؛ بمبادرات مرتكزة إلى الهوى والعصبية، والفتنة القاتلة... ولذلك فإما أنه أدان المقاومة وأصحابها و إما أنه رأى فيها نمطاً من المغامرة الطفولية أو شكلاً من أشكال الإرهاب الذي أوقع الأمة بإشكالات شتى على صُعد عدة....

وكذا كان موقفه من المقاومة في حالتها السلمية التي خلقتها مجريات الأحداث والأسباب الباعثة لها بوصفها تستند إلى الوعي الوطني الثقافي كالمسيرات المناهضة للعدوان الصهيوني أو الاضطرابات الجماهيرية؛ أو الاعتصامات المتنوعة؛ أو العصيان المدني العام؛ أو الإفادة من الإعلام والتقنيات، أو ممارسة مقاطعة بضائع العدو؛ والامتناع عن التعامل والتعاون مع الشركات المرتبطة به، أو الانتفاضة في وجه آلته العسكرية... وقد مارست الأمة هذه الأشكال المقاومة في (انتفاضة الحجارة)... عام (1987م)... وكذلك فعلت في حالتها الإيجابية التي تبنت المواجهة المسلحة شعبياً وجيوشاً، وبادرت بالفعل الحيوي المادي غير المعزول عن محيطه ومكوناته... ولذلك كله فالمقاومة مازالت تستجيب للشروط الموضوعية ولا يجوز للمقاوم أن يتوقف عن مقاومته حتى تتحقق أهدافه وأهداف شعبه إلا إذا اقتضت الشروط ذاتها استبدال أسلوب بأسلوب... هذا ما عرفه أجدادنا في العصور القديمة؛ وما اعتمدته المقاومة الوطنية في لبنان والعراق...

ولذلك كله كان لزاماً علينا أن نضع رؤية جديدة لكتابنا هذا بين يدي المتلقي من جديد لأن الدوائر الصهيو/أمريكية لم تعد تقتصر على المهمة التي أَوكلتها للكيان الصهيوني بإعاقة المشروع القومي العربي... وإنما أرادت أن تجعله رأس حربة لتحقيق (مشروع الشرق الأوسط الجديد أو الكبير) للوصول إلى تفتيت المنطقة في إطار الفتنة الطائفية والمذهبية والإثنية وتحويل أبنائها إلى عبيد في أوطانهم... وإطباق الاستيطان الصهيوني على الأرض وتهويدها، وتهويد الثقافة والتراث والحياة. إن فكرة التهويد تستطيل للسطيرة على موارد الشعوب وتدمير كل ما لديها من هوية وعناصر تاريخية وثقافية تعتز بها...

إن ما يجري من أحداث يضع أبناء الأمة في مواجهة مستمرة للدفاع عن هويتها ووجودها وخصائصها ما يؤكد أن (ثقافة المقاومة) أو لنقل (عقيدة المقاومة) أصبحت الأسلوب المستمر الدائم لكثير من المؤمنين بانتمائهم إلى الهوية العربية والإسلامية للتصدي للمشروع الصهيوني الاستيطاني العنصري بما يحمله من وظائف مدمرة للحياة والثقافة والتاريخ... ولا يجوز لأحد أن يتخلف عن مقاومته...

ثم إن إبراز المشروع العربي المقاوم فرض عدداً من الإضافات على الطبعة الأولى محاولين إبراز مكانة المقاومة التي سكنت العقول والقلوب ووقفت مدافعة عن الهوية الحضارية التي عبَّر عنها التراث العربي الأصيل؛ وأبرز الفلسفة الراقية لمفهوم المقاومة، وأشكالها عند العرب قديماً وحديثاً... وحيْن عزَّز البحث جوهر المقاومة الحيوي بوصفه حقاً قانونياً وطبيعياً، وأشار إلى الفرق بينه وبين الإرهاب والعنف كان يبرز أهمية التربية الثقافية المقاومة التي تجنح إلى السلام والمحبة، وتنفر من الخنوع والاستسلام، فهناك فرق كبير بين السلام والاستسلام وبين المقاومة والإرهاب...

وإذ نقدّم (ثقافة المقاومة: إعادة بناء الذات العربية) في حلّته الجديدة بين يدي المتلقي نرجو له تحقيق الفائدة المتوخاة منه ومن الإضافات الجديدة... وإلا حسبنا أننا بذلنا الجهد...

دمشق في 2014/2/3م

حسين جمعة

مدخل

لا مراء في أن الحياة الثقافية ـ بما فيها من الإنجازات الفكرية والأدبية والفنية... قد أخذت تتراجع في المنتصف الثاني للقرن العشرين لصالح الحياة السياسية، ثم الاقتصادية والتقنية، والإيديولوجية الخالصة... ثم أضحت الحياة الاجتماعية ملبية لذلك فتغيرت المفاهيم؛ وتنوعت المصطلحات وتعددت دلالاتها وتبدلت القيم، وربما حكم على القديم منها بالتخلف.. أو الانحراف، أو القصور أو العجز. ويعدّ مصطلح الوطنية؛ والقومية والمقاومة والجهاد؛ والكفاح... والنكبة والانتفاضة في طليعة المصطلحات التي تعرضت للتغيير بين الناس قديماً وحديثاً، حياة وثقافة؛ أدباً وفناً... ونشير إلى هذه القضايا بوصفها ركائز تمثّل روح الأمة، وشفافية ألقها النفسي في التعبير عن القيم الموروثة ورَصْد دلالات قسم منها. فالجهاد ـ على قيمته وقداسة مكانته في حياة الأمة وثقافتها ـ غدا عبئاً على عدد من أبنائها في ظل التأثير الثقافي السياسي الغربي ـ بل إن حكومات عربية عدّة طفقت تغيّر رؤيتها له، وكذا يتجه التغيير إلى مفاهيم أخرى بما فيها الحق والخير والجمال والعدل والصدق...

وفي ضوء هذا الوعي ندرك أن المفاهيم الثقافية للأمة العربية والإسلامية تقع تحت ضغط التأثر والتأثير المتبادل؛ فتغنى، وتثرى، وتتطور تارة، وتضطرب ويشوبها القلق والضبابية، والانحراف والتراجع إلى الوراء تارات أخرى؛ إن لم نقل إنها ثقافة أخذت تذوى وتتهاوى أمام نظريات الآخر الغربي وقوته التقنية والإعلامية.. وبخاصة ما يتعلق بالتحرر الوطني، ومقاومة العدو الطامع في البلاد والعباد.... أما ما يتعلق بالقطيعة مع الثقافة العربية الإسلامية الموروثة فحدّث عنها ولا حَرَج. فالثقافة العربية الإسلامية ــ اليوم ــ ابتليت بمفهوم الانزياح في القيم الأصيلة والمبادئ الثابتة لصالح فلسفة الثقافة الغربية.

فالغرب جعل الثقافة مظهراً من أهم مظاهر الصراع بين الأمم، وسعى إلى نشر مفاهيمه الفكرية والفلسفية، وطبيعة حياته المادية، وفق قانون (الغالب

والمغلوب)... على اعتبار أن من ملك الثقافة ملك عقول الناس جميعاً قبل عواطفهم... وهذا ما انتهت إليه ثقافة العولمة المستفيدة من قابلية الرضا لدينا، ومن شعورنا بالضعف والتقصير. وهي التي شنت هجوماً واسعاً على كثير من القيم الثقافية النضالية الموروثة التي عززت الوجود، وربطت الكفاح الوطني بالواجب والقيم الدينية؛ بوصفه مبدأ إنسانياً معترفاً به دولياً مثله مثل مبدأ المقاومة السلمية والمسلحة للدفاع عن الذات والوجود...

ولمّا شهد القانون الدولي تطوراً ملحوظاً في فهم دلالة المقاومة ومكوناتها السلبية والإيجابية القائمة على الفعل ورد الفعل وجدنا عدداً من أصحاب الاستعلاء والسيطرة والهيمنة على الشعوب أوطاناً وموارد يشنون الغزوات والحروب للوصول إلى أهدافهم؛ مستفيدين من ضعف الدول، وعدم قدرة قادتها على مواكبة التطورات الحاصلة في الكون. ولذا كانت الحروب والاعتداءات تُشَنُّ باستمرار، وتُخْتَلق الذرائع الخفية والظاهرة لتحقيق تلك الغايات.

وبناء على ما تقدم خصصنا **الفصل الأول** لتناول **فكرة الجهاد بين الآباء والأبناء** منذ أن كانت غزواً إلى أن غدت كفاحاً تحررياً إنسانياً.. كما تتمثل عند الآباء والأجداد الأوائل على امتداد العصور، وكذا هي عند الأبناء حتى يومنا هذا... دون أن نتغافل عن ذكر فكرة الجهاد بين الآباء والأبناء في الزمن الواحد بوصفها وجهاً من وجوه الحفاظ على الذات...

ولما كانت مادة البحث في شأن الجهاد متنوعة ومتشعبة الاتجاهات فقد اجتزأنا منها بالأصول الأولى التي بُني عليها مفهوم الجهاد... لأن هذه الأصول تؤكد أنه مفهوم إنساني راقٍ اعتمده العرب في سياق مقاومة كل معتدٍ أثيم على الأرض والشرف. فهو الأسلوب الأنجع والفعّال لرد الطرف الآخر المعتدي مادام أن الأساليب السلمية لم تؤت ثمارها. ولذا كان الجهاد على الأرجح عند العرب والمسلمين دفاعاً عن الذات وكينونة الوجود في القديم... ثم عُدَّ ـ حديثاً ـ الأسلوب الأمثل لتحقيق السيادة وحق تقرير المصير وتحرير الأرض ما جعل علماء الدين يصدرون فتاواهم بشرعية المقاومة والعمليات الاستشهادية... على حين يسعى الآخر الغربي الأمريكي الصهيوني ـ اليوم ـ إلى دمغ نضال العرب

بالإرهاب، وإدانة كفاحهم بمثل ما يُدين موتهم، رافضاً دعوتهم إلى المقاومة أياً كانت أهدافها مشروعة، ومنطلقاتها مسوغة.

ثم لما كانت الأصول التاريخية الأولى لفكرة الغزو/ الجهاد ذات رؤية كونية وثقافية ثم دينية عقيدية، وذات أشكال كثيرة اخترنا منها ما يلبي غرضنا، وشفعنا ذلك بصورة أدبية وفنية من التراث العربي القديم بوصفها نماذج روحية ومادية تجسد قيمة تفاعل الأدباء آنذاك ـ شعراء وناثرين ـ بأحداث الأمة، وتعبر عنها بشفافية رفيعة ما زلنا نستلهم دلالتها حتى الساعة... وأردنا لهذه النماذج المختارة أن تستوعب تعدد الرؤى الفكرية قبل الأدبية والفنية على اعتبار أن الأدب يعدّ وثيقة تاريخية مساعدة للوثيقة التاريخية الزمانية والمكانية...

لهذا كله نرى أن من يتأمل الوجود التاريخي والإنساني والكوني يدرك ضخامة أحداث الدورة الزمانية التي لحقت بهذا الوجود من خلال مفهوم الصراع حول فكرة الحياة والموت.. وفي ضوء تأمل هذا الصراع الوجودي يرى المرء أن المخلوقات أياً كان نوعها تحقق ذاتها والدفاع عنها بحركة تلقائية داخلية لإقامة توازنها الوجودي في إطار نظامها الخاص. وهذا التصور هو الذي فرض علينا أن نتحدث في **الفصل الثاني** عن (**المقاومة الفكر والجدوى**) في إطارها الفكري؛ والاجتماعي، وتطور الحياة ذاتها وفق منهج المنطق التاريخي المعانق لمبدأ التحليل البعيد عن التعبير الإنشائي.

وعليه نجد أن هناك قواسم مشتركة في الحياة والطبيعة تؤكد وجود المقاومة للدفاع عن الذات والوسط الذي ولدت فيه أو نشأت أو تحولت إليه. فعالم النبات يجدد ذاته في ضوء عملية الإنتاش والإنبات مع الطبيعة الجامدة والمتحركة دون أن يقصد إلى أذية الآخر.. في الوقت الذي نجد فيه أن بعض النباتات لا تقوم حياتها إلا على أساس التغلب على الآخر وتدمير حياته.

أما عالم الحيوان ـ وبما يستند إليه وجوده الفطري الغريزي ـ فإن حالة التوازن تعتمد على مبدأ صراع الأقوى، علماً أن بعض الحيوان لا يلجأ إلى مواجهة بني جنسه إلا في حال تهديدهم لوجوده.. فالحيوان المعتدى عليه ـ وإن كان الأضعف ـ لا يمكنه أن يسلّم بالموت المحتوم، فيندفع فطرة وغريزة إلى

فعل المقاومة للدفاع عن وجوده؛ ما يعني أن المقاومة، أو الممانعة، بما فيها القتال المادي إنما هي في طبيعتها الأصلية فعل طبيعي مقاوم للدفاع عن الحياة في السلم والحرب؛ وفي إطار قانون القوة الطبيعي ومبدأ الفعل ورد الفعل.

ولهذا فإن مبدأ المقاومة لدى الإنسان يأخذ اتجاهات شتى في طبيعته التي تستند إلى القوة المادية والقوة المعنوية الروحية والمعرفية، علماً بأن فلسفة مقاومة القوة المادية المسلحة لدى بعض الأجناس البشرية تتخذ مفاهيم الاندفاع العشوائي أو التفسير الموجه، أو الخاطئ الذي يجعل أصحابه يحطمون كل نمط من الأنماط الحضارية والإنسانية لغلبة الخشونة عليها، أو لغلبة البداوة غير المتحضرة كما انتهى إليه ابن خلدون (732 ـ 808هـ /1332 ـ 1406م) في حديثه عن أعمار الدول. فابن خلدون أبرز لنا عناصر قيّمة في الغزوات والحروب حين أثار الذهن على مقاومة العبث الفكري العقلي الذي ينشأ في بيئة ما، ما يجعله خطراً على المجتمع بأكمله... ويتساوى فيه الخطر الخارجي والخطر الداخلي، ولابد من مقاومة كليهما.

ولما كانت القضية الفلسطينية قضية العرب الأولى ولما مثلت انتفاضة الأقصى حالة نوعية في الحياة العربية فقد حاول **الفصل الثالث** من كتابنا ـ هذا ـ إثبات ماهية الانتفاضة / المقاومة الفلسطينية؛ لكونها غدت طقساً يتجدد مادام الاحتلال قائماً للأرض والحياة والوجود ... وفي إطار التجربة التاريخية، واستناداً إلى المبادئ الدينية والإنسانية والشرائع الدولية ومبادئ الحق الطبيعي في الوجود ...

وقد وقف هذا الفصل عند أبعادها ونتائجها ... فمن أبعادها أنها أعادت الزمن النضالي العربي كله إلى الواجهة، إذ تجلت فيه صحوة سياسية ونضالية رائعة استندت إلى مفاهيم الشهادة الراقية بوصفها دفاعاً عن الوجود ضد محتل صهيوني غاصب للأرض والحياة ... ما هيأ لها إسقاط مزاعم الكيان الصهيوني حين صور نفسه للعالم بأنه المعتدى عليه، وبأن المقاومة تنشر الإرهاب ضده، ومن حقه ـ كما زعم قادته، ويزعمون دائماً ـ أن يقوم باجراءات أمنية مهما بلغت وحشيتها للدفاع عن نفسه...

ولكن انتفاضة الأقصى التي دخلت عامها الخامس سنة (2004م)

أكدت بما لا يقبل الشك أن دولة الكيان الصهيوني دولة إجرامية تتحايل على القانون الدولي وعلى اتفاقية (جنيف الرابعة) المؤرخة في (1949/8/12م) الخاصة بحماية المدنيين. ومن ثم فهي التي تصنع الإرهاب وتزرع الرعب الذي أثّر في أبنائها أنفسهم؛ فأخذوا يفكرون بالهجرة المعاكسة بعد أن أصيب كثير منهم بالأمراض والشذوذ، بل شرع بعضهم يقدم على الانتحار ... ولا سيما بعد تراجع التنمية لدى الكيان، وازدياد الفقر، وسقوط مفهوم الأمن القومي (الإسرائيلي) ... واختلال البنية الديمغرافية للسكان حيث أثبتت المرأة الفلسطينية أنها أهم عنصر في معادلة الصراع.

وإذا كانت الانتفاضة / المقاومة قد أصّلت جملة من مفاهيم إثبات الذات فإن هناك قوى داخلية وخارجية استطاعت إيقافها وإشعال الفتنة بين بعض أبنائها. ولا شيء أدل على هذا من الفتنة المأساة التي حدثت في الاقتتال الدامي بين الأخوة الفلسطينيين (حماس وفتح). وهو اقتتال حدث غير مرة، وأدى إلى انقسام حاد بين المقاومين، كما رأيناه في شهر حزيران (10 – 2007/6/16م)؛ في الوقت الذي كان عليهم أن يقفوا في الذكرى الأربعين لهزيمة (1967/6/5م) يداً واحدة... كان ينبغي عليهم ألا يقعوا في قابلية الفتنة التي خطط لها الصهاينة برعاية الإدارة الأمريكية المحافظة بقيادة بوش الابن. ولعل ما وقع بين الأخوة الفلسطينيين يعد هزيمة أخرى لا يقل تأثيرها في النفس العربية عن هزيمة حزيران، فالقضية الفلسطينية تكاد تضيع برمتها... وعلى الرغم من هذا الواقع البائس فإننا نرى أن المقاومة ستبقى الطقس المختزن في داخل كل فرد فلسطيني وعربي وسيظل ألقها متأججاً، تراجعها الذاكرة العربية في أزمات الشدة منذ اليبوسيين إلى ثورة البراق ثم انتفاضة الحجارة .... حتى اليوم. إنها المعادل الوجودي للحياة في الرَّدّ على كل حيل الصهاينة وغدرهم ووحشيتهم في قتل الآخر واغتصابهم للأرض ... فالضحية العربية لا تعيش مع المفترس الصهيوني.

وأياً ما يكن الأمر فإننا نسعى إلى تأسيس الوعي بثقافة المقاومة بكل أشكالها المادية والمعنوية، التي نشأت عليها الأمة، على اعتبار أن ثقافة المقاومة استجابة إنسانية تظهر بتجليات متعددة تعبر عن ارتباط الإنسان

بالتاريخ وبالواقع المعيش، والموضوعي فضلاً عن وعيه الكبير لثقافة السلام والمحبة... وهذا ما يعالجه **الفصل الرابع** بعنوان (**ثقافة المقاومة بين السلام والاستسلام**)؛ وأول ما يظهر لنا من تجليات الثقافة الوطنية والقومية والإنسانية أن ثقافة المقاومة تستجيب للتحديات المفروضة على الشعوب والدول. وتستند إلى الإرادة والوعي والصدق والقوة، أي إنها تقف في وجه كل من يستبيح قيم الحق والعدالة ويستهين بالإنسان وحقوقه وكرامته كونها موقفاً نضالياً وأسلوباً دفاعياً عن الذات والوجود والهوية والثقافة. ومن ثم فهي تجسد رسالة الإنسان في تأسيس مبدأ الحق والخير والسّيادة لمحاربة الاغتصاب والاعتداء والقهر والإهانة؛ إنها ثقافة أمة تعبر عن مصالح أبنائها وتطلعاتهم إلى الحياة الأرقى، ولاسيما حين تنفتح على المثاقفة مع الآخر دون أن تصاب بالاستلاب، والاستنساخ والتبعية.... فثقافة السلام توازي ثقافة المقاومة بوجوهها السلمية أو المدنية، ما دامت تحقق الغاية ذاتها؛ وإلا يظل الاحتفاء بمفاهيم الجهاد والنضال والتضحية بالنفس والشهادة حقاً شرعياً وقانونياً لكل حر شريف... وهذا خلاف من سقط في الاستسلام والخنوع وطفق يسخر من المثل العربي المشهور (اطلب الموت توهب لك الحياة) ويرى أنه مدعاة للتدّر، وبخاصة حين أضحى الشهيد والفدائي في زعم عدد من الناس انتحارياً إرهابياً لا يريد إلا قتل الأبرياء.

ولا حرج علينا من القول: إن قوة البدن والعناصر المادية إذا تملكت النفس وانتصرت على حكمة العقل غلب عليها قانون القوة الطبيعي، وهذا الشكل هو الذي قادنا إلى الحديث عن مقومات المقاومة وأركانها في الفصل الثاني، وفيه توصلنا إلى أن المقاومة حاجة ضرورية لإقامة التوازن والتكامل، وبخاصة عندما تكون دفاعاً عن حقوق الإنسان التي انتهكت من قبل أرباب الهيمنة؛ بمثل ما انتهكت حرية الدول؛ وما اتفق عليه في القانون الدولي بسيادة الدول وحق تقرير المصير، من دون تجزئة أو تمييز. ومن ثم كان علينا إبراز ما تقوم به الدول التي تدعي التقدم وحماية حقوق الإنسان من انتهاكات شتى تحت مسميات عدة، فالإدارة الأمريكية ــ مثلاً ــ تبنت مشروع الشرق الأوسط الجديد، وتنادى أربابه إلى الهيمنة على العالم عامة والوطن العربي خاصة.... ولعل

هذا كله فرض علينا إبراز الوعي بالوجود الوطني القومي والدفاع عنه في صميم أشكال المقاومة التي ظهرت في فلسطين ولبنان وغيرهما.

وبناء على ذلك تناولنا عملية السلام في المنطقة؛ ثم أتبعناه بالكلام على مفهوم السلام الاستسلام والفرق بينهما في ضوء ما يجري من أحداث ورؤى تجتاح الأمة العربية، ليستقر الفصل الرابع عند شرح حقيقة (سقوط الأسطورة الصهيونية) على يد المقاومة الوطنية اللبنانية البطلة بقيادة حزب اللّه.

أما الفصل الخامس بعنوان (المقاومة والتنشئة الوطنية) فقد عُني بكيفية تربية الناشئة لإثبات حق مقاومة الشعوب والدول للعدوان أياً كانت طبيعته ووظيفته... ولابد لكل طفل أن يدرك أن القوة التي يمتلكها إنسان ما أو دولة ما لا تبيح الاعتداء على الآخر بالعنف والقتل والتهجير... أو السرقة والنهب والاغتصاب للمروءة والكرامة والحرية... فالحقوق الفردية والجمعية غير قابلة للتجزئة أو النقصان، أو العبث والسمسرة والبيع... ومن واجب الدول أن تهيئ الثقافة الأصيلة التي تعزز حق الإنسان في الدفاع عن نفسه؛ ومواجهة أي نمط من الإرهاب أو العنف الذي يقع عليه.... وأن تنشئ أبناءها على وعي ثقافة المقاومة، في إطار تنمية شاملة ومستدامة تربط بين حقوق الإنسان والواجبات المطلوبة منه تجاه سيادة الدولة ومواجهتها للدول المعتدية أو العصابات الإرهابية التي تنفلت من عقالها.

إن قيمة التربية المبكرة للأطفال والشبيبة وإعدادهم الإعداد العلمي الموضوعي الوطني يحقق المواطنة الحقيقية التي تجذّر فكرة الهوية والانتماء والدفاع عنهما... ويتكامل في ذلك كل وسائل التربية من الأدب إلى الثقافة والإعلام و..

ولذلك كله اعتمدنا المنهج التاريخي الموضوعي في معالجة موضوعاتنا وذهبنا إلى قراءة تاريخ وواقع ومستقبل المقاومة في صميم ما مَرَّت به الأمة العربية والإسلامية؛ وإن أشرنا ـ بإيجاز ـ إلى أمم غيرها ـ لتأصيل فهم دقيق للمقاومة، مصطلحاً ونشأة؛ وتطوراً في دلالاته النظرية والعملية... أي إن المنهج هو الذي فرض علينا أن نبدأ بالفَرْش التاريخي لنشأة ثقافة المقاومة بوصفها حاجة إنسانية لتحرير الذات من القهر والظلم؛ والاستعباد والهيمنة بالقوة...

فتوقفنا عند عدد من المفاهيم ثم انتقلنا إلى فلسفة المقاومة مصطلحاً وجدوىً؛ مبرزين ماهية المصطلح وطبيعته ووظائفه الوجودية والحياتية....

وكنا في ذلك كله نحلل الحدث؛ طبيعة ووظيفة وغاية، داخلياً وخارجياً، ساعين إلى تحقيق الوعي بما يحيط بنا، مستشرفين كيفية بناء الرؤى الشاملة والصادقة لبناء مستقبل أمتنا لتغدو سيدة كريمة موحدة. وهذا كله دفعنا إلى بيان أشكال المقاومة العربية المعاصرة التي تصدت لمشاريع الهيمنة التي تقودها الدوائر الصهيو/أمريكية.

ولست أشك لحظة واحدة في حاجة المجتمع العربي إلى ثقافة المقاومة ليس بوصفها نمطاً من الفكر الإنساني الثابت وإنما بوصفها أسلوب حياة يجسد قيم النبل الخلقي الإنساني التي ترفض العنف والعدوان، والغَصْب والإكراه؛ والحقد والفوضى والجنون... ما يعني أن ثقافة المقاومة ميزان عقلي للتوازن والتطور؛ ومعرفة الحق والخير والجمال...

وإذا كنا قد أفدنا من الدراسات الكثيرة التي تناولت موضوع المقاومة، فإنها لم تقل الكلمة الأخيرة فيه؛ ما يشي بأن محاولتنا ستنضم إلى تلك الدراسات لتقول كلمتها، ولعلها تحقق الهدف المرجو لها، وإذا وقعنا في الزيغ أو النقص، فلنا من إرشاداتك ـ أخي القارئ ـ ما يقوّم ذلك.

والله من وراء القصد

حسين جمعة

الفصل الأول:

فكرة الجهاد بين الآباء والأبناء

- تقديم.

1 ـ تأثيل فكرة القتال عند العرب.

2 ـ فكرة الجهاد في العقيدة الإسلامية.

3 ـ نماذج من الأدب والتاريخ العربي الإسلامي.

الفصل الأول:

فكرة الجهاد بين الآباء والأبناء

ـ قراءة موضوعية لصور من التاريخ والأدب القديم ـ

ـ تقديم:

لما كانت الأمة العربية قد عاشت حالة التحرر من الأجنبي نحو منتصف القرن العشرين، ثم عاشت مرحلة الاستقلال بعده..فإننا نرى أنها تعيش اليوم ـ وهي على مشارف منتصف العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين، الذي بدأ بأحداث الحادي عشر من أيلول لعام 2001م ـ حالة من الضياع في الهوية والمفاهيم والثوابت الأصيلة في القيم والعادات.... فالمفاهيم الفكرية والثقافية تعاني أزمة حقيقية على مستوى أبناء الأمة جميعاً، وهي التي مرت بحالات من النهوض الحيوي للقضاء على التجزئة والتخلف والفقر والقهر... وتفاعل الشعب العربي مع الشعوب الأخرى حين اطلع على ثقافتها، واستعار منها ما يحتاج إليه؛ فأضاف وطوَّر، فارتقى بما يملك من دون أن يفقد خصائصه المميزة له، أو هويته المعبرة عن ذاته ووجوده بعيداً عن الاستغراب أو الاستلاب... وكانت الثقافة الإنسانية شهدت رؤى عدة تعرضت لتأثيرات قوية أخذت فلسفة المقاومة إلى أماكن افتراضية جعلتها مدار نقاش مستفيض وبخاصة حين ارتبطت مفاهيم المقاومة بحركات ذات تنظيم فكري سياسي؛ أو فكري ديني، أو مذهبي طائفي...

وقد انتقل هذا كله إلى ثقافة الأمة وما يتعلق بمفاهيم الكفاح الوطني والقومي للتحرر من ذلّ القيد، واستعباد الآخر... وبما أوقع أبناءها بأزمات فكرية شتى.

ثم إن المقاومة العربية ظهرت في عدد من المواقف والحالات منفعلة أكثر منها فاعلة على الصعيدين النظري والعملي، ولاسيما حين برزت العوامل الخارجية ذات تأثير قوي على المستوى النفسي والاجتماعي والثقافي والتربوي، قبل المستوى السياسي والعسكري...

ويبدو لي أن مزاعم الغرب الأمريكي الصهيوني، وغير قليل من الأوربيين حول مصطلحات الجهاد ونظائره بدأت تلاقي قبولاً في نفوس بعض أبناء العرب والمسلمين... فشرعوا يغيرون بنية مناهج التربية والتعليم زاعمين أنها تساعد على قبول الآخر الغربي والانفتاح عليه، والانسجام مع الحضارة الحديثة... ثم وصل الأمر إلى مادة التربية الإسلامية ومناهجها ومفرداتها، إذ نفذ عدد من الأقطار العربية توجهاتهم المعاصرة كما هو حال الجزائر التي أصدرت القوانين التي تراعي المثاقفة مع الغرب؛ والانفتاح عليه.

ثم أخذنا نحاكم عقيدتنا ومفاهيمنا وثوابتنا مستشعرين النقص؛ والعجز وفقدان الإرادة القوية للمواجهة ـ وربما وقع هذا التغيير نتيجة الجهل وعدم الوعي ـ وصرنا نبدل معطيات الفكر الثقافي وأصوله التاريخية الإنسانية... ولذلك كله نرى أن الجهاد ـ عقيدة ومبدأ ـ لم يكن عند العرب يوماً وسيلة للقتل والاعتداء على الآخر وقهره وإذلاله واستعباده؛ وإنما كان نظاماً للدفاع عن الذات؛ وصوناً للحرية والقيم الأصيلة. وكل مثقف منصف يدرك أن فكرة الجهاد اتجهت اتجاهاً إنسانياً حين اتسعت دلالاتها في العصر الإسلامي، وغدت دعوة خَيّرة للحفاظ على الآخر في إطار عملية تنوير تنتشله من وهدة الشرك والكفر وعبادة الأصنام إلى رحابة الوحدانية والإيمان والتعبد لله الواحد القهَّار... إنها دعوة قائمة على الحوار، ومن ثم القبول أو الرفض الطوعي بعكس ما نجده في التوراة والتلمود وعند الغرب القديم والحديث...

ولمّا لزمنا تأثيل فكرة القتال عند العرب منذ أن وجد الجنس العربي، بكل تصنيفاته أو تسمياته، كان لابد من الإشارة السريعة إلى بيان منزلته الكبيرة عندهم في مواجهة الآخر الذي جاءهم في العصر الجاهلي غازياً معتدياً قاتلاً للعربي غاصباً لأرضه؛ منشئاً عليها إمبراطوريته... ومن ثم انقلب مفهوم القتال، أو مفهوم الغزو إلى مفهوم الجهاد بالنفس والمال في العقيدة

الإسلامية، ما يشي بأن الرؤية للتضحيات قد تطورت بين الجاهلية والإسلام.. وهو الذي دفعنا إلى توضيح ذلك وتقديم عدد من صوره الأدبية في إطار من الأحداث التاريخية التي تلبي غايتنا.

1 ـ تأثيل فكرة القتال عند العرب:

يبدو الحديث عن فكرة المقاومة عند العرب القدماء فكرة مرتبطة بالوجود، وإن لم يطلقوا على معاركهم مصطلح المقاومة، ولم يعرفوا الثقافة القانونية التي ابتُكرت على مضي الزمن والأحداث والتجارب الإنسانية؛ ولاسيما المعاصرة منها... فمعرفة الحق الشخصي والجمعي للمواطن والمواطنين؛ والدولة والأمة لم تكن متداولة كما هي عليه اليوم، ولم تتصل يوماً ما في الزمن القديم بما سمي حقوق الإنسان...

وإذا كان فعل (قاوم) قد تردد في اللغة العربية؛ وكذا هو لفظ المقاومة فإنهما لم يشيعا على الألسن، وإنما وجدنا مصطلحات أخرى تسود بين ظهراني العرب في العصرين الجاهلي والإسلامي كالغزو والقتال والحرب والجهاد... وليس العرب فرادى في ذلك فالأمم كلها عرفت أنماطاً من الحروب والغزوات والمعارك والوقائع، وخبرت ويلاتها وآثارها المدمّرة، واختلطت فيها مظاهر الدفاع عن النفس بمظاهر الاعتداء والعدوان، فانتفى ـ غالباً ـ أي عدل فيها. ومن ثم فإن الأحداث التاريخية للمجتمع العربي القديم أصّلت الحقل الدلالي لمفهوم العدوان بالقوة على الآخر؛ بوصفه جريمة ـ يرتكبها المعتدي... ما يفرض على المعتدى عليه مواجهته للحفاظ على النوع الإنساني الوجودي. فإذا كان العدوان يشتمل على عدد من العناصر والمكونات والأركان فإن الناس قديماً وحديثاً تواضعوا من غير اتفاق منظور أو مشهود على أنه خَرْق لقيم الحرية والكرامة الآدمية، سواء وقع من قبل الأفراد أم الجماعات أم الدول[1]... ولذا ليس من مهمات هذا الفصل أن يستفيض بالحديث عن المجتمع

---

[1] لم يكن هناك اتفاق صريح على تعريف العدوان حتى اعتمدت الجمعية العامة للأمم المتحدة تعريفاً له في قرارها (3314) تاريخ (1974/12/14م) ودورتها رقم (29) ونصت المادة الأولى منه على أن العدوان هو:
==

العربي القديم والمواطن التي استقر بها منذ فجر التاريخ بوصفها مواطن عربية من اليمن إلى ديار بكر في تركيا ـ اليوم ـ فهناك عدد غير قليل من المؤلفات القديمة والحديثة قد تصدت لهذه المسألة...

ومن يرجع إلى تاريخ حلب أو حمص أو حماة أو أريحا أو دمشق ـ مثلاً ـ[1]، يدرك اتصال الجنس العربي في الأراضي التي سكنت فيها الأجيال التي تنتمي إليه على اختلاف التسميات. فأرضه أرض أولئك الأجداد الأوائل من البابليين والسومريين والأكاديين والآراميين والفينيقيين، والكنعانيين والأنباط والحثيين و... ثم جُرْهُم والعَمَاليق الذين نزلوها قبيل العصر الجاهلي، إلى أن نزلتها القبائل العربية من إياد والغساسنة والمناذرة وقيس وبكر وتغلب وكلب وتنوخ و... وفي أسفار التوراة ما يوضح أن يوشع بن نون غزا بعض العرب واعتدى عليهم متجاوزاً حدود الضرورة والوجود والأرض، وانتزعهم من مدنهم الجنوبية مثل أريحا في فلسطين. وقد زور الأحبار كثيراً من الأخبار في سفر يوشع من الكتاب المقدس، فذهبوا إلى أن يوشع بن نون (ت 1186 ق.م) غزا جنوب بلاد الشام وما حولها ومارس أبشع أنواع الإرهاب، وطرد أهلها منها تحت مظلة دعوة الأمر الإلهي لقومه... حيث يقول: "بهذا تعلمون أن الله الحي في وسطكم وطرداً يطرد من أمامكم الكنعانيين والحثيين والحوريين والفرزيين والحِرْجاشيين والآموريين واليبوسيين"[2]، ... ولما هاجم مدينة أريحا مفاجئاً إياها احتلها واستباحها لسبعة أيام؛ بعد أن "هدمها وقتل أهلها جميعهم لم يترك شيخاً ولا طفلاً رضيعاً ولا شاباً ولا امرأة؛ فسالت الدماء أنهاراً. ثم تابع زحفه على بقية مدن فلسطين يعمل السيف والقتل والتدمير"[3]. وعلى شكنا في صحة الخبر وصاحبه أصلاً، لكن من لفّقه يثبت أن قتل اليهود للعرب مباح ومشروع، ولا

(استخدام القوة المسلحة من جانب دولة ضد سيادة ووحدة الأراضي الإقليمية أو الاستقلال السياسي لدولة أخرى أو بأي طريقة لا تتماشى مع ميثاق الأمم المتحدة) انظر الموسوعة الفلسطينية 553/1 ـ 555.

[1] انظر: معجم البلدان (تبعاً لكل بلد).

[2] الكتاب المقدس: سفر يشوع، إصحاح 3 ـ ص 240 وانظر تجمعات العرب في فلسطين 7 ـ 11 وانظر ما يأتي 240.

[3] تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم 20؛ وانظر المصدر السابق، إصحاح 6، ص 245 والأبعاد الفكرية والعلمية 9 وما بعدها.

يعيب اليهود أن يوصفوا بالوحشية والهمجية من أجل سرقة أرض الآخر المغاير؛ وقتله. وهذا مؤيد في الإصحاح السادس من سفر يشوع؛ إذ كانت المدينة كلها مستباحة لرّب يشوع ما عدا (راحاب) الزانية التي ساعدت جواسيسه على احتلالها. فهي وحدها التي تستحق الحياة[1]، مكافأة لها على خيانة بني جنسها العماليق الذين أبيدوا في مجازر همجية... وهي مجازر مقصودة لإرهاب الجنس العربي، ولذلك اجتمع العرب كما يثبت السفر نفسه لرد بطش يشوع عنهم حيث جاء فيه: "ولما سمع جميع الملوك في الجبل وفي السهل وفي كل ساحل البحر الكبير إلى جهة لبنان: الحثيون والآموريون والكنعانيون والفرزّيون والحوريون واليبوسيون اجتمعوا معاً لمحاربة يشوع وإسرائيل بصوت واحد"[2]. فهذا الخبر يثبت أن القبائل العربية القديمة تنادت إلى الوحدة ولمّ الشمل لدرء العدوان وآثاره الكارثية التي أزهقت الأرواح وأناخت الجريمة في أرض العرب الحرة الكريمة وقد هجم عليهم الموت فصمموا على مواجهته ودفعه عن أنفسهم.. وما أشبه الليلة بالبارحة فالصهاينة اليوم يمارسون الفعل نفسه مع العرب.

ويذهب الإصحاح الثاني عشر من سفر يشوع إلى تغلّب بني إسرائيل على القبائل العربية بقوة البطش، وسيف القتل فامتد نفوذ بني إسرائيل إلى ، بعض الأراضي العربية من فلسطين وأريحا وجنوب سورية ـ اليوم ـ واحتلوها بالقوة؛ ذاكراً (العربة)[3] تصريحاً، ومما ورد فيه "وهؤلاء هم ملوك الأرض الذين ضربهم بنو إسرائيل وامتلكوا أرضهم نحو شروق الشمس من وادي أرنون إلى جبل حرمون وكل العربة نحو الشروق"[4]. وإذا كنا نشك في صحة ذلك كله؛ على اعتبار أن التاريخ الموثّق ينفيه؛ فإننا نستدل من تزوير الأحبار له على

---

[1] انظر الكتاب المقدس، سفر يشوع، إصحاح 6، ص 245. ومعجم البلدان (أريحا ـ حلب).

[2] المصدر السابق، إصحاح 9، ص 250.

[3] العَرَبة: تعني في العبرية (السهول الساحلية) خاصة، والعَرَبة ـ في العربية ـ أرض أولاد إسماعيل، ونشؤوا بَعَربة، وهي من تهامة؛ فنسبوا إلى بلدهم... أما العَرَب فهم أهل البادية ـ كما ذهب إليه بعض القدماء وقال غيرهم: هم أهل الأمصار؛ ثم أطلق على الجميع، أما مصطلح (الأعراب) فقد اقتصر على أهل البادية، على حين أن مصطلح (العَرَبة) صار يعادل العَرَب في دلالته، انظر (لسان العرب ـ عرب).

[4] الكتاب المقدس ـ سفر يشوع، إصحاح 12، ص 257.

بشاعة فعلهم؛ حين يفضّلون تصوير قادتهم بهذه الوحشية. وهذا عكس ما بنيت عليه الثقافة العربية منذ القديم، فكلنا نقرأ في شريعة (حمورابي) أن العين بالعين والسن بالسن، وكذلك نقرأ في تراث العرب الجاهليين أن القتل أنفى للقتل... ومن ثم تبنى الإسلام ذلك وشجَّع على العفو والتسامح مع الآخر المغاير لقوله تعالى: ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدّق به فهو كفّارة له﴾ (المائدة 45/5)...

فالعرب منذ فجر تاريخهم جعلوا مبدأ قتال الآخر مقاومة للعدوان ودفاعاً عن الذات وكينونة الأرض والوجود بينما اليهود ـ ومن يساندهم، قديماً وحديثاً ـ امتهنوا مهنة الحروب الشاملة وغزو الشعوب واحتلال أراضيها؛ لا يردعهم خُلُق ولا ضمير؛ فقد كانوا يمارسون قتل الأغيار أو ما يعرف بالغُوييم بكل بشاعة و حقد وفق وظائف يسوغونها لأنفسهم وأبنائهم؛ مهما كانت وحشيتها ... فهم يعتقدون بأن فعلهم مبارك من إلههم إله الحرب المتعطش إلى الدماء دائماً وأبداً... وهم ما زالوا يعمدون إلى هذه المفاهيم لتأصيلها بين أبنائهم من جهة؛ ولجعلها فعلاً استباقياً ذا أهداف عديدة من جهة أخرى...

وكيفما كان بطش بني إسرائيل وهمجيتهم، وأياً كان الزمن الذي مكث فيه الفرس أو الروم في الأرض العربية في الزمن القديم فإن أبناء العرب ظلوا فيها لم يفكروا لحظة واحدة في مغادرتها وإن سامهم الغازي أشد أنواع القهر والذل والعبودية... ثم أثبت التاريخ أن ديار بكر لم يتغير اسمها[1]، ولا تغير اسم حلب والجزيرة العليا أو السفلى، وظل للحرمون شرفه وكبرياؤه وللبنان ألقه... فكنا نجد قبائل بكر وإياد وعبد القيس وآل نصر وطيء وقضاعة... وتغلب وبني مُرَّة ولخم وتنوخ والغساسنة وغيرهم في العراق وبلاد الشام... بينما تمتد قبيلة عاملة إلى مصر وإفريقية... ثم تتوالى الموجات العربية إليها على مرّ الزمان ساكنة فيها، متشبثة بالدفاع عنها...

---

[1] انظر معجم البلدان، (ديار بكر).

ولهذا لم يستطع سابور الجنود بن أَرْدَشير ولا أكاسرة الفرس ولا أباطرة الرومان أن يغيروا هوية الأرض العربية في العراق والبحرين وسورية ومصر... على الرغم من أن عدداً منهم مارس سفك الدماء من دون وازع يرده... فسابور ـ مثلاً ـ استطاع قتل (الضَّيْزن) ملك قُضاعة مع مئة ألف منها، وهدّم قصر (الحَضْر)، ثم أفنى قبائل كثيرة...

وفي ذلك يقول الجديُّ بن الدلهاث[1]:

ألم يحزنك والأنباء تَنْمي   بما لاقت سَراةُ بني العبيد

ومقتل ضَيْزِن وبني أبيه   وإخلاء القبائل من تزيد؟!

وسيطر سابور على سواد العراق، ولم يستطع ملك قضاعة أن يغيّر مصيره أو مصير قومه شيئاً، ووقعوا لقمة سائغة بيد من يملك القوة، وصاروا أثراً بعد عين حين تشتت بقيتهم في منازل أخرى نزلوها... وهذا يشير إلى أن القبائل العربية وإن عُرفت بمنازل خاصة بها لم تكن تراها حكراً عليها، إذ كانت تجيز لغيرها أن ينزل فيها، ما يشي بأن مفهوم تحرير الأرض والحفاظ عليها كان يتخذ مفاهيم ودلالات مغايرة لحركة التحرر الوطني التي عرفتها المجتمعات الحديثة. ولا مراء لدينا في أن القبائل العربية القوية كانت أكثر حظاً في الأرض (الوطن) من الضعيفة؛ فهي ـ غالباً ـ معروفة بمنازلها أو لنقل أوطانها التي اقترنت بها وفق الرابطة العصبية لا وفق الرابطة القانونية؛ وحين تغادرها طلباً للماء والكلأ، سرعان ما تعود إليها، كما نستشفه من قصيدة الأخنس بن شهاب، ومطلعها[2]:

لكل أُناسٍ من مَعَدّ عِمارةٌ   عَرُوضٌ إليها يَلجؤونَ وجانِبُ

لكَيْزٌ لها البَحْرَانِ والسِّيفُ كُلُّهُ   وإنْ يأتِهَا بأسٌ منَ الهِنْدِ كارِبُ

---

[1] انظر معجم البلدان، (حضر).

[2] انظر القصيدة كاملة في المفضليات 193 ـ 194، وراجع الحيوان في الشعر الجاهلي 21.

وبَكْـرٌ لهـا ظَهْـرُ العِـرَاقِ وإنْ تَشَـأْ يَحُـلْ دُونَهـا مـنَ اليمامَـةِ حاجـبُ

وصــارتْ تَمِــيمٌ بــينَ قُــفٍّ ورَمْلَــة لهــا مِــنْ حِبــال مُنْتَــأًى ومــذَاهِبُ

وكَلْــبٌ لهــا خَبْــتٌ فَرَمْلَــةُ عَــالِجٍ إلى الْحَـرَّةِ الـرَّجْلاَءِ حَيـثُ تُحـارِبُ

وغَسَّــانُ حَــيٌّ عِــزُّهُمْ في سِــوَاهُمُ يُجَالِـدُ عَـنْهمْ مِقْنَـبٌ وكتَائِـبُ

وبَهْـرَاءُ حَـيٌّ قـد عَلِمْنـا مكـانَهمْ لهـم شَـرَكٌ حَـوْلَ الرُّصـافَةِ لاَحِـبُ

وغــارتْ إيَــادٌ في السَّــوَادِ ودُونَهــا بَرَازِيـقُ عُجْـمٌ تَبْتَغِـي مَـنْ تُضَـارِبُ

ولَخْـمٌ مُلُـوكُ النَّـاسِ يُجْبَـى إلَـيْهِمُ إذَا قـالَ مـنهم قائِـلٌ فَهْـوَ واجِـبُ

فديار مضر تمتد إلى شرقي الفرات نحو حرّان والرقة وشمشاط[1]، أما ديار مذحج فهي في اليمن، والأزد في عمان... وإذا ما انتقلت قبيلة ونزلت بجوار الأخرى اختلط أبناء القبائل وتعرف كل واحد إلى الآخر، فشاعت لديها ظاهرة الخليط التي عبّر عنها الشعر الجاهلي بكثرة، كما نجده في قول زهير[2]:

بان الخليط ولم يأووا لمن تركوا وزودوك اشتياقاً أية سلكوا

ولما قوَّت حياة التبدي (الارتحال في البادية من مكان إلى آخر) مفهوم العصبية القبلية عززت في الوقت نفسه قيم الشرف والحرية والشجاعة والمروءة والنجدة والتسامح والكرم... ولا مكان فيها للجبان الضعيف والبخيل اللئيم... لهذا نشأت لدى العرب قيم خلقية واجتماعية وفق مقتضى حياتهم؛ فنفروا من الظلم والقهر، وكرهوهما وتنادروا إلى حماية الذات القبلية الجماعية، ولو

---

(1) انظر معجم البلدان، (ديار مضر).
(2) شعر زهير بن أبي سلمى 78.

كان لأحدهم رأي مخالف للجماعة؛ كما نفهمه من قول دريد بن الصمة[1]:

وما أنا إلا من غَزية إن غوت غويت، وإن ترشد غزية أرشُدِ

فالقبيلة بكل أبنائها رجالاً ونساءً، شيوخاً وشباناً يشبون على حب القبيلة والتمسك بقيمها، ويتدرب الفرسان منهم لملاقاة كل معتدٍ يفكر بالنيل منهم وإن لم تبلغ مرتبة الإمارة أو الدولة... كما نستشفه من قول طفيل الغنوي[2]:

وفينا ترى الطُّولى وكل سَمَيْدعٍ مدرّب حرب وابن كل مدرّب

فكل من تسول له نفسه بالاعتداء على القبيلة، والجهل عليها سيلقى العقاب الذي يستحقه ما يفرض على الجميع أن يضعوا أنفسهم مدافعين عنها، مقاتلين من أجل الحفاظ عليها، أياً كانت التضحيات التي يبذلونها كما يقول عمرو بن كلثوم[3]:

ألا لا يجهلن أحدٌ علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فالعربي في ذاته كاره للذل والقهر والاستبداد، وهو يرى أن القبيلة ملاذ للحرية والانعتاق، ولكنها لم تكن ـ يوماً ـ مسلطة على القبائل الأخرى مهما كانت قوتها... والدفاع عنها شرف للآباء والأبناء، ولا يرضى بالذل إلا الأذلان (الوتد والحمار الأهلي) كما يقول الشاعر المُتلمّس[4]:

ولن يقيم على خسفٍ يُسام به إلا الأذلاّن عَيْرُ الأهل والوتد

هذا على الخسف مربوط برمّته وذا يشجُّ فما يرثي له أحد

فالعربي أياً كان انتماؤه القبلي، ومهما كانت قوة قومه وكثرة عددهم لم يجعل قدرته سبباً لغزو الآخر المغاير والاعتداء عليه، وإيذاء البريء وترويع الآمنين والأبرياء؛ إذا استثنينا اللصوص وشذاذ الآفاق من الصعاليك والخُلَعاء فعلى الرغم من أن تصرفاتهم تشكل نوعاً من التمرد، أو لنقل نوعاً من مقاومة

---

(1) ديوان دريد بن الصمة، 62.

(2) ديوان طفيل الغنوي 20، وانظر الحيوان في الشعر الجاهلي 32.

(3) ديوان عمرو بن كلثوم، 101.

(4) ديوان المتلمس، 203 ـ 211، وانظر الحيوان في الشعر الجاهلي 32.

النظام القبلي لكنها لا تشكل تقارباً مع مفهوم المقاومة المعاصر... ولذلك كله فإن العربي وضع قانونه الاجتماعي في صميم تفاعله القبلي، والقانون الذي انتظم حياة القبائل بوصفها ممارسة لقيم تنبثق من إطارها الاجتماعي والثقافي... ومن تمام المقاومة الحقيقية الحفاظ على القوانين الاجتماعية والخلقية وعدم الخروج عنها لأنها حماية للمجموع في العرف العربي القديم. ومن ثم تصبح طاعة القانون العام الذي تواضعت عليه القبائل كلها مقاومة لأهواء الذات الفردية التي تتمرد على العقلانية والنظام، لأنها تتمنى ألا تتقيد بقيد... ولعل ما عرفه العرب من قانون اجتماعي قبلي يذكرنا بمفهوم العَقْد الاجتماعي الذي دعا إليه (جان جاك روسو) في العصر الحديث، وإن كان الجوهر يختلف على نحو ما. ولذلك صار من تمام شرف العربي وكمال مروءته أن يغفر لمن أساء إليه وظلمه كما نلمسه في قول ذي الأُصبع العدواني[1]:

قوم إذا الشرُّ أبدى ناجذيه لهم ... طاروا إليه زُرافاتٍ ووحدانا

لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... في النائبات على ما قال برهانا

لكن قومي وإن كانوا ذوي عددٍ ... ليسوا من الشر في شيء وإن

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرةً ... ومن إساءة أهل السوء إحسانا

فالجاهلية ـ بكل ما فيها من أنظمة قبلية مستندة إلى العلة والمعلول في صميم صراعات طبيعية فرضها مفهوم صراع البقاء في أرض قليلة الموارد، شحيحة الأمطار، حتى سمي المطر غيثاً، لأنه يغيث الأرض والحجر والشجر والحيوان والبشر ـ لم تكن لتلغي من نفوس أبنائها الروح الإنسانية في التعامل وتقديس حرية الآخر والمحافظة على حياته إذا ما هددها مَوْتور أو خارج عن القانون... لهذا اتفقوا جميعاً على عدم قبول الخليع الذي تخلعه قبيلته لجرائره الكثيرة عليها[2]. وكان لهم موقف مشابه من الصعاليك اللصوص، وهو

---

[1] ديوان الحماسة، لأبي تمام، 4 ـ 5.
[2] انظر: الأغاني 3/13 وبعدها، وديوان الشنفرى، 57 ـ 68 ولسان العرب ـ خلع ـ.

موقف يختلف عمّا نشأ عندهم من مفاهيم الإغاثة ومسألة الأحلاف لدفع الأذى والظلم عن الذات... وإذا ما هددهم عدو خارجي تسارعوا إلى جمع الصفوف لردّ عدوانه عنهم كما كان أجدادهم من قبل... وقد يكون الأعشى من أفضل من عبّر عن ذلك في قصيدة له يذكر فيها غزو جنود كسرى للعرب في يوم ذي قار، ومما جاء فيها[1]:

وجُندُ كسرى غداة الحِنْو صبحهم   منا كتائب تزجي الموت فانصرفوا

وخيلُ بكر فما تنفك تطحنهم   حتى تولّوا وكاد اليوم ينتصفُ

لو أن كُلَّ معدٍّ كان شاركنا   في يوم ذي قار ما أخطاهم الشرف

وبهذا كله أقام الأدب حواراً نوعياً متميزاً ودقيقاً عَبَّر عن النزوع الإنساني الحرّ في نفس العربي وقيمه من أجل مقاومة أي عدوان خارجي تعرض له أبناء الأمة... الذين يرون أنهم ينتمون إلى جذر واحد، وهو الجذر الذي يدفعهم إلى التوحد في مواجهة ذلك العدوان. وهو ما أكدته الوثائق التاريخية التي عززت مفهوم التضحية والبطولة السامية والنبيلة بوصفها دفاعاً عن الذات وحماية لكينونة الوجود الذي يتطلع إلى عيش حر وكريم... فقتال العرب للآخر المناقض لهم أياً كان جنسه لم يكن هدفاً لهم؛ وإنما وقع في كل مرة رداً على عدوان مستفحلٍ جاء ليستأصلهم من أرضهم ويذل شرفهم. فالعرب ما كانوا يقاتلون الآخر حباً في القتال ولكنهم كانوا يدفعون القتل عنهم.

فالمقاومة القبلية الجماعية التي عبَّر عنها اجتماع القبائل سادة وفرساناً وأفراداً كسرت القواعد القبلية الصارمة التي عززت الحفاظ على هوية القبلية الضيقة؛ وهي الهوية التي اتسعت حين تهدد وجود الجنس العربي... وهذا كله وفَّر لمفهوم المقاومة بشكلها القديم عند العرب عنصر الوحدة والتضامن؛ ما عبَّر عن وحدة المقاومة في صميم مواجهة العدوان الخارجي، وعبَّرت ـ أيضاً ـ عن سرعة التكيف الذي عرفته القبائل مع الواقع الجديد؛ والمبادرة إلى وضع

---

[1] ديوان الأعشى، 240 ـ 241.

الحلول الناجعة لأي طارئ... وكذلك فإن الأدب ـ قديماً وحديثاً ـ لا يكتفي بالحديث عن روح الاستنهاض، والتوحد والمنافحة عن القيم الفاضلة وإنما طفق يبحث عن أشكال المقاومة بالكلمة والموقف. ولذا فإن أدب المقاومة لا يتنفس إلا من رئة مفاهيم القيمة الأصيلة التي تعزز كرامة الإنسان وحريته وحقوقه العامة... وكان يدافع عنها بمثل ما يدافع عن هوية القوم والأمة ويستحضر كل البراهين لبيان حقيقة المعتدي الغازي.

وإذا كانت الصور الأدبية السابقة قد نقلتنا إلى رحاب التفاعل الإنساني المشترك عند العرب فإنها أكدت في آن معاً أن ملامح التغيير الفكري والاجتماعي لمفهوم الغزو أو القتال كانت تميل إلى احترام الآخر؛ وإنصافه. فلا غَرْو بعد هذا الوعي أن يبدع العرب القدماء شعراً متميزاً قيل له: "شعر المنصفات" أنصفوا فيه خصومهم أحياء وقتلى ووصفهم الشعراء بمثل ما وصفوا قومهم في نزوع إنساني راقٍ[1].

ولهذا كله فإن فكرة الغزو/ الاقتتال منذ الأزل عند العرب لم تكن لتلغي من نفوسهم قيم الخير، والشهامة والمحبة ولم يكن قتالهم تهديداً للآخر المغاير واستئصالاً له ـ وإن كان من أجل البقاء ـ فالخطاب الأدبي ظل يرسي في النفس البشرية توجهاً اجتماعياً متحضراً، ونزوعاً أخلاقياً سامياً... وقد برز هذا ـ مثلاً ـ في قول عمرو بن كلثوم في خطابه لتلك المرأة التي فارقته بسبب قتال قومها لقومه... يوم نشبت الخلافات بينهم على الماء والكلأ؛ على حين ظل متمسكاً بها محباً لها، معترفاً بقدرة فرسان قومها؛ فعرضَ لهم منصفاً لشجاعتهم في معركة شديدة اختلطت فيها السيوف والرماح... فهو على شدة عصبيته لقومه لم يكن ليستخف بالآخر، لهذا يقول[2]:

قفي قبل التفرّق يا ظعينا نخبرك اليقين وتخبرينا

بيوم كريهةٍ طعناً وضرباً أقرَّ به مواليك العيونا

---

[1] انظر: قصيدة الرثاء، جذور وأطوار، 237 وما بعدها.

[2] ديوان عمرو بن كلثوم، 78، مواليك: أراد أبناء قبيلتها وعمها.

فالقتال في العصور الجاهلية القديمة والمتأخرة عند العرب لم يكن نيلاً من حرية الآخر وانتمائه وشرفه على الأغلب، وإنما كان وسيلة لا بد منها للدفاع عن الذات والقبيلة... وكان الشعراء يعمقون هذه الرؤية وينقلونها إلى الأجيال المتعاقبة لتشكيل رؤاهم الفكرية والإنسانية الثابتة لقيم القتال والغزو عندهم... فقيم الغزو تستند إلى روح إنسانية عالية؛ وإن شابها قلق وتشويه في ممارسة بعض الخارجين عن القانون المتعارف إليه بين القبائل؛ لكن هذا الفعل لم يكن عاماً فيهم... ولو كان عاماً لما بقي وجود لأكثر أبنائها، ولمَّا جاء الإسلام غدا القتال فضيلة يثاب عليها المرء في الدنيا والآخرة باعتباره تحقيقاً للوجود الإنساني ومنافحة عن العقيدة.

ولعل هذا كله ينقلنا إلى فكرة الجهاد في العقيدة الإسلامية؛ وهي فكرة خلقية نبيلة، واجتماعية وثقافية تغذّت اتجاهاتها الإنسانية مما كان عند العرب من قبل...

2 ـ فكرة الجهاد في العقيدة الإسلامية: [1]

لا تختلف الأمم عن الأفراد في السعي إلى تلبية الحاجات وإشباع الرغبات؛ وفي طليعتها الحاجة إلى المعرفة التي تعدُّ أساس تقدم المجتمعات. وتحظى المعرفة ـ بإجماع الناس قديماً وحديثاً ـ بالسعي إلى حيازتها وتطويرها وإفادة كل فرد من الآخر، وكل أمة تختلف عن الأخرى في صميم منهج المثاقفة، والإعارة والاقتراض؛ والتأثر والتأثير...

وتقع المفاهيم والمصطلحات في المراتب المتقدمة من أشكال المعرفة بوصفها تجسد المعاني الجامعة؛ والروح المعبرة عن تميز الفكر الإنساني، وصدقه وموضوعية ما يعطيه لخير الإنسان في كل زمان ومكان... وإذا كانت إرادة القوة والبقاء فرضت وجودها في المجتمع العربي القديم فإن الرغبة الجادة في نشر الفكر الخلقي الذي نزلت به الرسالة الإسلامية المحمدية قد انطوى

---

[1] انظر الإسلام بين المفاهيم والمصطلحات (مفهوم الجهاد في الإسلام) 219/1 ـ 272.

على كثير من الدلائل المرتبطة بالمقاومة السلمية والمادية؛ وبطريقة الإقناع واستخدام الحجة العقلية وبخاصة حين فرض القتال على المسلمين لأسباب عدة... ومن ثم تكثفت فكرة قتال الآخر بالمال والنفس في العقيدة الإسلامية بمفاهيم روحية جديدة، إذ اتسعت صورها ، طبيعة ووظيفة، وأصبحت جزءاً من فكرة المصطلح الجديد (الجهاد) وظل الهدف الأعلى فيها تحرير النفس والإنسان من وهدة الشرك والجهل والتخلف والقهر والظلم... والأخذ به إلى رحاب الوحدانية الإلهية وعبودية الله تعالى لا عبودية الأفراد والأصنام... وبخاصة حين ارتبطت بقيم الشهادة والمروءة...

وبهذا التصور لم تعد فكرة الجهاد مجرّد رؤية كونية وجودية كما كانت فكرة الغزو من قبل، أي إنها ارتفعت لتصبح فعلاً سامياً روحياً خلاّقاً، ونزوعاً إنسانياً تحريرياً على الصعيد الفردي والجماعي... فالجهاد ـ المشتق من الجَهْد ـ يعني قتال المعتدي الخارجي ومواجهته بالنفس والتضحية بها؛ ثم صار الجهاد بالمال نظير الجهاد بالنفس؛ وكلاهما أصبح فرعاً من الجهاد في سبيل الله... ولذا **فالجهاد "محاربة الأعداء... واستفراغ ما في الوسع والطاقة من قول أو فعل"[(1)] مثل بذل المال دون أن يسأل عنه الناس؛ وإخلاص النية في ذلك كله، أي أن يكون عمله لله.**

وهذا التعريف لا يشمل قتال الآخر الموافق إلا إذا صال على الذات وهدد وجودها، على أن يكون في سبيل المبدأ أو العقيدة، أي إن هذا النمط من القتال يختلف عما أُطلق عليه الجهاد الأصغر أو (الحِرَابة) عندما تتجلى الأدلة الواضحة للعدوان؛ وتثبت حقيقته[(2)] لقوله تعالى: 7أُذِنَ للذين يقاتلون بأنهم ظُلموا، وإن الله على نصرهم لقدير6 (سورة الممتحنة ـ 39).

ومن هنا نفهم دلالة الحديث الشريف "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله..." بأنه يدل على المشاركة في القتال صيغة (قاتل ـ يقاتل) من جهة، ومن جهة ثانية لا بد أن يكون القتال دفعاً لقتال الآخر الذي بدأ بالغزو

(1) لسان العرب، (جهد) وانظر الإسلام بين المفاهيم والمصطلحات 1/ 228 وما بعدها.
(2) انظر الإسلام بين المفاهيم والمصطلحات 244/1 ـ 247 و 252 ـ 259.

والعدوان[1] . أما الجهاد الأكبر فإنما هو جهاد النفس لتخليصها من أوزارها وآثامها ، وتحريرها من ظلمها وشهواتها ، ومن ثم علينا استكمال الحديث عن شروط الجهاد كلها ؛ نية وإعداداً في القول والفعل.

وبناء على ما تقدم ندرك أن الفضاء الأوسع لمفهوم الجهاد قد ارتبط بفلسفة التفكير المضاد في إطار المفاهيم والحياة ، للوصول إلى وظيفة من الوظائف...

ولهذا لابد لنا ـ قبل أن نتحدث عن أنواع الجهاد في الإسلام ، لنبرز فيها مفهوم الجهاد بالنفس في ذهن المفكرين والأدباء ـ من أن نتوقف عند تطور دلالته التاريخية في العقيدة ذاتها.

فالإسلام لم يفرض مفهوم الجهاد حباً بالقتل وإراقة الدماء وترويعاً للآمنين كما وجدناه عند يوشع بن نون وغيره من الرموز التي وردت في التوراة وإنما فرضه الإسلام بوصفه مفهوماً يستند إلى ترميم المعاني والقيم لإعلاء كرامة الإنسان وإرساء حريته في الأرض. ومن ثم كرّم الإنسان لقوله تعالى:﴿ولقد كرّمنا بني آدم﴾ (الإسراء 70/17). فهو مكرّم بأمر إلهي مهما كان جنسه ودينه ، لأن الناس متساوون في الخلق والطبيعة الآدمية ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة﴾ (النساء 1/4). فالله خلق الإنسان ، علمه البيان ، وميّزه بالعقيدة والتقوى ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ (الحجرات 13/49). وقال النبي الكريم في حجة الوداع: [أيها الناس: إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب؛ أكرمكم عند الله أتقاكم؛ وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى ، ألا هل بلّغت؟ اللهم أشهد قالوا : نعم. قال فليبلغ الشاهد الغائب][2] .

فالإسلام آمن بأن الإنسان هو الأصل المقدَّم على أي شأن آخر؛ وكل شيء مسخر لخدمته؛ فلا غرابة أن يجعل المفاهيم وسيلة فكرية وعملية لصالحه؛

---

[1] انظر الإسلام بين المفاهيم والمصطلحات 248/1 فقد أفاض في تناول الحديث والشبهة التي دارت حوله.
[2] جمهرة خطب العرب، 157/1.

معززاً الأشكال المعرفية السابقة التي تحقق تلك الغاية، كما وفرت له ريادة حقول جديدة فيها على أن تدعو إلى الحق والعدل في كل زمان ومكان... ولما وهب اللّه ـ سبحانه ـ الإنسان العقل أراد منه أن يميز الخير من الشر ويختار بينهما ليكون مسؤولاً عن عمله، وترك له حرية الاعتقاد ﴿لا إكراه في الدين قد تبيّن الرشد من الغي﴾ (البقرة 256/2)...

ولهذا ربط اللّه ـ سبحانه ـ اختيار الإنسان للعقيدة الإسلامية بإرادته ورغبته؛ فهو حرٌّ عاقل عالم بالحق... ﴿إن الدين عند اللّه الإسلام، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم...﴾ (آل عمران 19/3).

فالروح الإنسانية الحضارية في الدعوة إلى الإسلام تجسد فاعلية الارتقاء بنوازع الإنسان وحريته في اختيار عقيدته وتجاوز التتابع الزمني إلى تكثيف المفاهيم التي تثبت أن الحوار بين المسلم والآخر قائم على أساس المساواة لقوله تعالى: ﴿وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾ (سبأ 24/34)... لهذا دعا ـ عزّ وجلّ ـ المسلم إلى محاورة الآخر المشرك والمغاير بكل لين ومحبة وفق الأمر الإلهي: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن؛ إن ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين❖ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾ (النحل 125/16 ـ 126).

فهذه النصوص تؤصل فلسفة الحوار مع الآخر وفق أسس خلقية إنسانية تهدف إلى إرشاده، وتعليمه لا لقتاله، أو الاعتداء عليه مهما كان الخلاف كبيراً، لأن اللّه سبحانه رغّب في الصبر والعفو والتسامح، بمثل ما حض المؤمن على الاستقامة وعدم الانجرار وراء النوازع الذاتية، والأهواء المتعددة، لقوله تعالى: ﴿فادع، واستقم كما أُمرت، ولا تتبع أهواءهم﴾ (الشورى 15/42).

ثم شدّد الإسلام على معاملة الآخرين بالحسنى قولاً وفعلاً ﴿وقولوا للناس حسناً﴾ (البقرة 83/2)، وأمر اللّه كل مسلم أن يتقبّل الآخر المشرك ويؤمنه على حياته، بل هو في حمايته حتى يبلغ مأمنه بسلام: ﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام اللّه، ثم أبلغه مأمنه، ذلك بأنهم قوم لا

يعلمون﴾ (التوبة 6/9).

فالرؤية الإسلامية لاعتناق الإسلام لم تقم على أساس الإكراه والقهر، وإنما كانت دعوة روحية سامية تعتمد قبول الآخر والتحاور معه أياً كانت عقيدته أو جنسه؛ أو... واحترامه... وتندبه إلى الإيمان بالإسلام، من دون عنف أو إيذاء باللسان واليد. ولا شيء أدّل على هذا مما تقدم ومن قوله تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون اللّه﴾ (يونس 104/10) ويؤكده قوله: ﴿قل يا أيها الكافرون❖ لا أعبد ما تعبدون❖ ولا أنتم عابدون ما أعبد ❖ ولا أنا عابد ما عبدتم ❖ لكم دينكم ولي دين﴾ (الكافرون 1/109 ـ 3 و6).

وأياً ما يكن رأي الآخر وموقفه فإن الناس جميعاً متساوون في مفهوم العقيدة الإسلامية بالإنسانية؛ والطبيعة البشرية وهم مكرمون لهذه الطبيعة وإن لم يتساووا في الدين والإيمان والأخلاق. وهذا الوعي الديني منع كل مسلم أن يظلم الآخر أو يعتدي عليه؛ وحرّم قتله؛ وذهب إلى أن قتله قتل للناس جميعاً ﴿ولا تقتلوا النفس التي حرّم اللّه إلا بالحق﴾ (الأنعام 151/6) و ﴿من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً﴾ (المائدة 32/5)[1]. وقال رسول اللّه (ﷺ): [من آذى ذمياً فأنا خصمه، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة][2]؛ وشدّد على معاملة الناس المعاهدين بكل حب واحترام وأنذر قاتلهم بنار جهنم [من قتل نفساً معاهداً لم يَرِح رائحة الجنة][3] أي لم يشم رائحتها.

ولما نهى عن التظالم بين الناس وقتل بعضهم بعضاً، فإنه نهى عن ظلم الإنسان لنفسه ومحاولة التخلص من حياته؛ لقوله تعالى: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم إن اللّه كان بكم رحيما﴾ (النساء 29/4)[4]. فقاتل نفسه في النار؛ كما ورد

---

[1] انظر: صحيح البخاري 218/7 و3/9 وبعد.
[2] الجامع الصغير، 473/2، رقم الحديث، 8270.
[3] صحيح البخاري، 16/9. وانظر: الجامع الصغير، 544/2، رقم الحديث 8912.
[4] انظر: صحيح البخاري، 57/5، و3/9.

في الحديث الشريف: [ومن قتل نفسه بحديدة عذب بها في نار جهنم][1] و[والذي يخنق نفسه يخنقها في النار، والذي يطعنها يطعنها في النار][2]. فقتل النفس من الكبائر السبع[3].

فالإنسان مسؤول عن إعمار الأرض ورعايتها بالنور والهداية، وحياته مكرمة مصونة في الإسلام لا يجوز أن يتهددها بالأذى والقتل ولا أن يعتدي على أخيه الإنسان، ويقتله، تحت أي ذريعة كانت.

وبناء على ذلك كله يتساءل المرء: لماذا فرض القتال في الإسلام؛ ولماذا دعا إلى مفهوم الجهاد وربطه بالشهادة وجعل جزاءه الجنة؟ ألم يكن الجهاد في سبيل الله وسيلة لقتل الآخر؟!

والإجابة على ذلك طويلة يمكن أن نوجزها بإشارات سريعة إلى الأصول التي بُني عليها الجهاد. فمن يرجع إلى النص القرآني وأسباب نزوله، أو إلى السيرة النبوية الشريفة يدرك بوضوح أن المصطفى (عليه السلام) "لم يؤذن له في الحرب، ولم تحلل له الدماء، إنما كان يؤمر بالدعاء إلى الله والصبر على الأذى، والصفح عن الجاهل. وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم؛ ونفوهم من بلادهم، فهم من بين مفتون في دينه، ومن بين معذب في أيديهم، وبين هارب من البلاد فراراً من الأذى؛ منهم من كان بأرض الحبشة، ومنهم من كان بالمدينة؛ ومنهم من اتجه إلى أمكنة أخرى. ومن ثم فقد عتت قريش على الله ـ عز وجل ـ ورسوله والمسلمين فكان توجيه الله لرسوله (ﷺ) في القتال والانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم. فكانت أول آية نزلت في إذنه"[4] ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير﴾ (الحج 39/22).

هكذا فرض القتال بعد بيعة العقبة الآخرة[5] دفاعاً عن النفس ورداً للبغي

---

[1] صحيح البخاري، 120/2.
[2] صحيح البخاري، 21/2 وانظر فيه 154/8 ـ 155.
[3] انظر: الجامع الصغير، 254/2، رقم الحديث 6449 ـ 6450 و6452.
[4] انظر: صحيح البخاري، 56/5، 65.
[5] انظر السيرة النبوية 97/2 و110 ـ 111 و267 ومجموعة الوثائق السياسية 49.

والقهر، لقد فرض وهو كره لهم لقوله تعالى: ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم...﴾ (البقرة 216/2).. ولهذا لم يجز الله القتال إلا رداً لعدوان الآخر المحارب أياً كان جنسه أو لونه، أو زمانه، ومنع الابتداء بالعدوان لقوله تعالى: ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين❖ واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين﴾ (البقرة 190/2 ـ 191).

فالإسلام فرض على المسلمين قتال الآخر المعتدي الظالم الذي لا يعرف حقاً ولا ذمة؛... وعلى الرغم من هذا فقد حضَّهم على السلم وإيقاف القتال إذا ما ثاب الآخر المحارب لرشده، لقوله تعالى: ﴿فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا﴾ (النساء 90/4).

ثم إن الجهاد أمر إلهي لإحقاق الحق والدفاع عن الذات منذ عهد إبراهيم (عليه السلام) ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل﴾ (الحج78/22).. لهذا أمر الله نبيه محمداً بجهاد الكفار والمنافقين لما لقيه من أذاهم وظلمهم: ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين، واغلظ عليهم﴾ (التوبة 73/9).

وهكذا فقتال الآخر المحارب ـ وهو الذي اصطلح عليه في الإسلام باسم الجهاد ـ ليس بدعة في الإسلام، وهو مؤسس في الديانات السماوية كلها دفاعاً عن الذات والوجود لقوله تعالى: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل..﴾ (التوبة 111/9).

لهذا كله أمر الله عباده بإعداد العدة للحرب اتقاء لشر العدو ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم، وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوفَّ إليكم وأنتم لا تظلمون❖ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله﴾ (الأنفال 60/8 ـ 61).

ومن هنا جُعِل الجهاد سبباً لردع الآخر المحارب ووقاية لخطره حين أمر ـ سبحانه ـ بإعداد العدّة القتالية، وتدريب الفرسان لتخويف العدو المحارب منعاً من أن تسوّل له نفسه بالنَيْل منهم. وهذا يعني أن مصطلح (الإرهاب) في التصور الإسلامي يحمل فلسفة الدفاع عن الذات والوجود، ولم يكن يوماً ذا دلالة همجية كتلك التي أريد له أن يحملها نتيجة غزو الثقافة الغربية لثقافتنا. فالترهيب والترهب والإرهاب ألفاظ تحمل في موروثنا الفكري والديني كل المعاني السامية المتسامحة، وهي أبعد ما تكون عن الدلائل المرتبطة بالفلسفة الغربية الحاملة لمعاني العنف والإيذاء والقتل[1]، لهذا أجزل الثواب لكل من يقتل في سبيل الله حين لا يقبل الآخر بالسلام ويُذعن للحق ويحافظ على حياة الناس: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون❖ فرحين بما آتاهم الله من فضله، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألاّ خوف عليهم ولا هم يحزنون❖ يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين﴾ (آل عمران 3/169ـ 171).

فالجهاد في سبيل الله وإعلاء القيم الإنسانية النبيلة ارتبط بمفهوم الشهادة لنصرة الحق، ما جعل للمجاهدين والشهداء المنزلة الرفيعة في الدنيا والآخرة ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاً وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً﴾ (النساء 4/95). وبمعنى آخر لم تكن التضحية بالنفس والمال هواية عند العرب والمسلمين، وما تزال كذلك، فالضعيف الفقير الصادق في انتمائه لوطنه وعقيدته لا يملك أمام القوة الفتاكة التي يملكها العدو إلا أن يضحي بنفسه من أجل أن يعيش أبناء وطنه وقومه بحرية وكرامة. فالعدو الصهيوني الذي استباح فلسطين فقتل قسماً من أبنائها وشرّد عدداً آخر، وانتهك الأرض والعرض هو الذي فرض على أهلها مقاومته بكل الأشكال المادية، ومنها

---

[1] أنظر كتابنا (مشروع القومية العربية إلى أين 141.

التضحية الجسدية، التي قامت بها فصائل عديدة كالجهاد الإسلامي وحماس والجبهة الشعبية و... ومن ثم صار الفدائي أو الاستشهادي ملبياً لروح حياة الأمة وحريتها ونهضتها... وصارت العمليات الجهادية عمليات مشروعة عند أبناء الأمة. وقد بدأت هذه العمليات تؤثر في العدو، كما اعترف بذلك وزير الدفاع الصهيوني السابق إذ قال: " العمليات الاستشهادية سلاح لا يمكن لإسرائيل القضاء عليه وأن الخيار العسكري الإسرائيلي قد فشل في القضاء على الانتفاضة الفلسطينية"[1]

فالشهيد المجاهد ـ قديماً وحديثاً ـ آمن بفكرة الحرية، والكرامة الإنسانية للذات الفردية وللوطن، ففداهما، فاستحق احترام الأحياء ورضى ربه وعونه، فضمن له الجنة[2]، فأفضل الناس "مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله"[3]، ولهذا تميز من بقية الأموات بأنه لا يغسل فجراحاته طهر له، وقد صلت عليه الملائكة[4].

وفي ضوء ذلك كله فإن ترجمة كلمة الجهاد إلى اللغة الإنكليزية بعبارة (الحرب المقدسة: Holly War) ترجمة ظالمة؛ لأنها خلت من مضمونها الحقيقي ذي البعد الإنساني الذي تحمله في وظيفتها، وأسبابها وأهدافها. وكذلك فإن ترجمة كلمة الشهيد أو الفدائي بعبارة (من قتل نفسه أو فجرها Suicide Bomber) أشد تشويهاً وتحريفاً لمفهومها الإسلامي.. فالغرب لا ينظر إلى الشهيد أو الفدائي إلا برؤية سلبية.. وكأنه يئس من حياته وأراد أن ينهيها بهذه الطريقة.. فالرؤية الغربية لا تنطلق إلا من معين فلسفة أبنائها ولا تعترف إلا بما يجري في مجتمعاتها.. ثم إن مصطلح الشهادة أو التضحية والفداء في سبيل التحرر غدت عند الغرب جزءاً لا يتجزأ من مفهومه حول صراع الحضارات؛ لأنه لم يستوعب مفهوم الجهاد ومقولاته في العقيدة الإسلامية؛ وعند العرب منذ القديم.. فالعرب والمسلمون منذ الأزل لم يكونوا هواة قتل،

---

[1] الاحتلال الإسرائيلي وشرعية المقاومة 156-157.

[2] انظر الجامع الصغير: رقم الحديث 3497 و3502 و3504 و3505.

[3] صحيح البخاري، 18/4.

[4] انظر: صحيح البخاري، 15/1 و114/2 و188/3.

وليس لهم رغبة في قتل أنفسهم، لأن حياتهم أغلى ما يملكونه.. ولأن نفوسهم الأبية الكريمة تكره الظلم والإذلال وتضحي بحياتها من أجل المروءة والعزة والحرية.. و[من قتل دون ماله فهو شهيد؛ ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد][1].

فالجهاد بالنفس والمال وسيلة لا غاية، وسيلة لتحرير الإنسان من ربقة الذل والعبودية والتخلف والجهل... وإرساء قيم الخير والعدل والمساواة...

ولهذا فهو فرع صغير في دوحة الجهاد القائم على محاربة نوازع الشر في النفس البشرية وتقويم السلوك الخاطئ الذي تسلكه؛ وإن لم يعمل الإنسان على كبح جماح نفسه الغريزية الظالمة غدت خطراً حقيقياً على المجتمع؛ أياً كان جنسه وانتماؤه...

ومن هنا فالجهاد الأكبر جهاد شهوات النفس وقتل رغباتها الشيطانية الشريرة... بل حينما شرع الحج فقد جعل جهاداً لشرور النفس: جهاداً للتخلص من آثامها، كما نستدل عليه من الحديث الشريف: [ألا أدلك على جهاد لا شوكة فيه؟ حج البيت][2]... أما سقاية الحاج وعمارة المساجد ـ على عظمتها ـ فليست مساوية للجهاد في سبيل الله لقوله تعالى: ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله﴾ (التوبة 19/9). وكذلك عد الصوم جهاداً وحرباً على الفساد والفوضى وضعف الإرادة، والأنانية. ودعوة إلى المحبة والعفو والتسامح..[3].

ولعل ذلك كله يؤكد أن القتال بالنفس والمال ـ على عظمة الأجر والثواب فيه ـ يقع في سلم القيم الأخلاقية بعد جهاد شهوات النفس؛ لهذا قال المصطفى: [الجهاد أربع: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصدق في مواطن الصبر، وشنآن الفاسق] أي كرهه وبغضه...[4].

---

(1) الجامع الصغير، 544/2، رقم الحديث 8917، وانظر صحيح البخاري، 179/3.
(2) الجامع الصغير، 387/1، رقم الحديث 2869.
(3) انظر: صحيح البخاري، 18/4 ـ 19.
(4) الجامع الصغير 497/1، رقم الحديث 3654.

وعلى الرغم من قيمة الجهاد بالنفس والمال فإن الصلاة قدمت عليه[1]؛ وكذلك قدم عليه الإيمان بالله ورسوله؛ وبر الوالدين، ولو كانا على الشرك لأنهما أصل صلاح الإنسان وإقامة محبته للآخر...

وقد جسدت تعاليم الدين هذا كله؛ لقوله تعالى: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن، وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إليَّ المصير❖ وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً﴾ (لقمان 14/31 ـ 15). وقال سبحانه: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أُفٍّ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً❖ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل ربِّ ارحمهما كما ربياني صغيراً﴾ (الإسراء 23/17 ـ 24).

ويعد نبي الرحمة أرحب مثال في تطبيق مبادئ الإسلام ولا سيما ما يتعلق بفكرة الجهاد؛ إذ روي أن رجلاً أتاه معلناً رغبته في الجهاد لنيل الشهادة في سبيل الله؛ فسأله: [لك أبوان؟ قال: نعم. قال: ففيهما فجاهد][2]. فالجهاد لا يصح إلا بموافقة الأبوين، وبرهما مقدم على الجهاد...

تلك هي صورة مكثفة تعبر عن مفهوم العقيدة للجهاد وقد مورس هذا المفهوم بكل ملامحه الإنسانية الرفيعة في عهد النبوة وما تلاه من عصور في سبيل الوصول إلى الشهادة أو النصر. ولم يجعله العرب والمسلمون سيفاً مسلطاً على رقاب الآخرين لتهديدهم وترويعهم أو قتلهم وإذلالهم.

ومن ثم تأكد لنا أن الجهاد الأصغر حقٌّ مشروع للعرب والمسلمين فرضه الواقع الذي عاشوا فيه؛ فكان مواجهة مسلحة لأولئك الذين تسلطوا على الدهر والناس... ثم كان الجهاد الأكبر طاعة خلقية ودينية لنظام الحياة الراقي الذي دعا إليه الإسلام...

ولا يسعني في هذا المقام أن أتناسى مفهوم الشهادة المرتبط بالجهاد، وهو

---

[1] انظر: صحيح البخاري، 17/4 ـ 19.
[2] صحيح البخاري، 3/8، وانظر فيه 2.

التضحية بالنفس والإقبال على الفداء حتى يسقط المقاوم شهيداً في سبيل القضية التي تتوافق مع الحق والعدل... ما يؤكد أن الجهاد مفهوم يختلف تمام الاختلاف عن الإرهاب والعنف اللذين يؤديان إلى إيقاع الأذى والرعب في النفس البشرية لمنافع خاصة، وأهواء مرذولة... وحينما يعدّ مفهوم الشهادة بانياً لحياة المجتمع وحريته وسيادته فإن الانتحار وقَتْل الذات يغدو هادماً لذلك كله؛ وإذا كان الإرهاب يرافق العدوان والظلم على الأغلب فإن المقاومة أو الجهاد يرافق الشهادة التي تؤدي إلى الرحمة بالعباد، والمحبة لهم حين يضحي صاحبها من أجلهم.

ويظل الجهاد ـ على الدوام ـ دفاعاً عن الذات ورد كيد الظالمين الطامعين في الأرض والعرض والمقدرات. وعليه فإن علماء المسلمين شرقاً وغرباً قد شَرَّعوا العمليات الاستشهادية ضد العدو المحتل في فلسطين والعراق ولبنان كما نتج عن مؤتمر بيروت (2002/1/11م) الذي اجتمع فيه نحو خمسين عالماً من بلدان عربية شتى (لبنان وفلسطين والسودان والإمارات والمغرب والجزائر والأردن) وهو تشريع لا يتناقض مع الأحاديث الشريفة التي ذكرناها قبل قليل ولا يختلف عنها في ماهيته.

وقد اعترف هذا المؤتمر بالجهاد الذي يمارسه العرب ضد العدو الصهيوني؛ إذ جاء في إحدى فقرات بيانه ما يلي:" إن حزب الله في لبنان وحركتي حماس والجهاد الإسلامي وسائر قوى المقاومة هي التعبير الحي عن إرادة الأمة، وهي تمثل بجهادها ومجاهديها شرف وعزة وكرامة المسلمين في كل مكان" [1].

وإذا كنا سنخصص فصلين كاملين لمقاومة العدو الصهيوني فإننا نقدم هنا نماذج مختارة من الأدب لبيان أشكال المقاومة عند العرب القدماء والمعاصرين؛ وإبراز مفاهيم الشهادة وآثارها الإيجابية.

---

[1] انظر الاحتلال الإسرائيلي وشرعية المقاومة 160 وما بعدها حتى 175.

3 ـ نماذج من الأدب والتاريخ العربي الإسلامي:

لما جاء الإسلام صهر القبائل العربية في تعاليمه، ومن ثم انضوى أبناؤها تحت رايته الجامعة، وتعاليمه السمحة، وتحوّل انتماؤهم من الانتماء القبلي الضيق، وعصبياته الهوجاء إلى فضاء انتماء إنساني واسع... وآمنوا بأنهم أخوة في الله لقوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ (الحجرات 10/49) وعنت الوجوه للحي القيوم، وأخلصوا لدولة الإسلام بقيادة النبي الكريم وفهموا تعاليم الدين القويم، وأدركوا أن الجهاد بكل أشكاله إنما هو إعلاء لكرامة الإنسان وحريته.

لهذا كان أول ما فعله الرسول الكريم حين دخل المدينة المنورة قيامه بالمؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين، ومن ثم كتابة العهود والمواثيق بين المسلمين وأهل الذمة من اليهود العرب. ومما ورد في كتاب العهد لهم هذه الكلمات: [وإن ذمة الله واحدة، يجبر عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون سائر الناس؛ وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم... وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين؛ لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأَثِم فإنه لا يُوْتِغ [أي يهلك] إلا نفسه وأهل بيته].... ثم عدد كل قبائل يهود ثم ذكر: [وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم؛ وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم...][1].

فالرسول الكريم عاملهم بروح الإسلام فأطلق لهم الحرية في الحياة والعبادة، لا يظلمون فيها، ولا يدفعون جزية أو إتاوة... لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، على أن لا ينقضوا العهد، ويتحالفوا مع المشركين... ولكن اليهود أبوا إلا أن يكونوا غادرين حاقدين، ناقضين للعهود؛ ثم أخذوا يتألبون على المسلمين ويتآمرون عليهم وعلى الرسول الكريم. ولا شيء أدل على هذا من أنه حين جاءهم النبي لأخذ الدية برجل قتلوه ائتمروا به وضربوه بالحجارة، . فما

[1] انظر السيرة النبوية، 148/2 ـ 149 و160 ـ 163 و254 ومجموعة الوثائق السياسية 59 ـ 60.

كان منه إلا أن عاقبهم...[1] . ثم مارس اليهود كل أنواع النفاق والخداع والتآمر والكيد للمسلمين حتى آل أمرهم في غزوة الخندق إلى التحالف مع المشركين فأصبحوا ضمن الآخر المحارب؛ فأخرجوا من المدينة المنورة بعد أن حقن الرسول الأعظم دمهم؛ ولم يحاسبهم على ما فعلوه[2].

فاليهود لم يتركوا وسيلة لإيذاء الرسول والمسلمين إلا قاموا بها، ولكنه ما عاملهم بالمثل، وكذا كان موقفه مع مشركي قريش في فتح مكة سنة (8 هـ) وهم الذين أخرجوه منها، بيد أنه عفا عنهم، وأعطاهم الأمان في الإسلام، في خبر مشهور...[3].

ومن ثم أخذ نظام الدولة الإسلامية يتشكل، ويستقيم ويستقر، بوجود قائد ومركز وجيش ودستور، ولمّا تحقق ذلك كله بسرعة قياسية كان العدو الخارجي يتربص بها الدوائر، ولاسيما حين تمثل بتخوف المسلمين من غزو الروم لهم... إذ كان الروم يستخدمون أتباعهم من الغساسنة العرب في ترويع أبناء جلدتهم من العرب المسلمين، إذ جعلوهم شوكة في صدور أبناء جلدتهم[4]؛ وهكذا كان ملوك المناذرة أداة طيعة بيد أكاسرة الفرس ـ والناس على دين ملوكهم ـ كما يقال.

فالجهاد عند العرب والمسلمين كان وقاية للنفس، ودفاعاً عنها؛ وكان سبباً في ولادة جديدة للدولة العربية الإسلامية التي أعادت الأرض العربية إلى وضعها التاريخي؛ ما يؤكد أن الجهاد لم يكن يوماً أداة قهر للآخر المغاير غير المحارب، أو قتل له، لا في عهد الرسول الكريم ولا في عهد خلفائه الراشدين... ولا شيء أدل على هذا من بيان الأسباب التي دعت خليفة رسول الله إلى قتال الفرس والروم.. فلما استقام حال الدولة الإسلامية بعد حروب الردة ارتحلت قبائل عربية كثيرة إلى الشرق والشمال كقبيلة الصحابي المثنى

---

[1] انظر السيرة النبوية، 199/3 ـ 200.
[2] انظر السيرة النبوية، 224/3 و244 وما بعدها.
[3] انظر السيرة النبوية، 59/4 وما بعدها.
[4] انظر صحيح البخاري، 175/3.

بن حارثة بن سلمة الشيباني الذي مات إثر جراحاته سنة (14هـ/635م) [1]
وكانت شيبان وصلت إلى العراق شمالاً، بعد أن سبقتها ـ من قبل ـ قبائل عربية مثل بكر وعبد القيس وتميم وإياد، والمناذرة حلفاء الفرس، وبعض بني طيء؛. وغيرهم كثير. ولكن قدوم العرب المسلمين بقيادة المثنى المسلم لم يرق لكسرى وفرسانه،. وتخلوا عن مهادنة من عرفوه من قبائل العرب المجاورة لهم فأخذوا يعتدون عليها ولا سيما أبناء ربيعة ويؤذونهم "غاية الأذى فلم يزالوا كذلك حتى وقعت بينهم العداوة والشحناء؛ فجعل المثنى يغير على أساورة الفرس ممن كان بناحية الكوفة وسوادها، ويؤذيهم غاية الأذى، وهو يومئذ متمسك بدين الإسلام. وبلغ أبا بكر فعاله... فأرسل إليه... فجعله رئيساً على قومه وبعث إليه بخلعة ولواء، وأمره بقتال الفرس"[2].

فهذا الخبر شديد الوضوح في بيان مفهوم الجهاد/ القتال عند المثنى بن حارثة ثم عند أبي بكر (رضي الله عنه)... فقد فرض عليهما وعلى المسلمين وهم كارهون له، وما وقع إلا دفاعاً عن كينونة الذات والوجود... ومن ثم فإن الخبر يشي بأن بعض القبائل المذكورة كالمناذرة كانت تحت سيطرة القوة الفارسية حتى عهد أبي بكر خليفة رسول الله الذي بدأ تحرير عدد من القبائل وأرضها من يد الفرس إثر تلك الحادثة، كما عبر عنه أحد شعراء ربيعة[3]:

سرنا إلى كلأ العراق وريفه ... حتى استقر بنا هناك قرار

القحط سار بنا وخيم غيرنا ... فيها، ولو شاء المسير لساروا

سرنا فقارعنا الملوك فقصروا ... عنا فأنجد منجد، وأغاروا

وكذلك كان الغساسنة وقبائل عربية أخرى تحت سيطرة الروم في بلاد الشام. فالله سبحانه قد أكرم العرب بالإسلام، ودعاهم إلى إقامة الحق والعدل، وانتدبهم لإعلاء كلمة التوحيد وانتشال أبناء جلدتهم من وهدة

---

[1] الأعلام 276/5.
[2] كتاب الردة، 216 – 217.
[3] كتاب الردة، 216.

الشرك والظلم والعبودية والجهل... فحملهم أمانة الجهاد لتكون كلمة اللّه هي العليا ولتحرير القبائل العربية من تبعية الآخر المغاير، ولتصبح قيم الخير والعدالة قانون الأرض والسماء. وحينما كانت طاعة اللّه حظ الأنفس ـ ورضا الرب غنيمة ما بعدها غنيمة ـ لم يجعلوا جهادهم سبيلاً إلى قهر الآخر الذي سامهم أنواع العذاب، وهم يدافعون عن عقيدتهم ووجود العرب في أرضهم وأرض أجدادهم؛ لإيمانهم بحرية الإنسان وكرامته. وهذا ما نستشفه من قول الإمام علي (رضي اللّه عنه): "أما بعد: فإن الجهاد باب من أبواب الجنة... وهو لباس التقوى ودرع اللّه الحصينة... فمن تركه رغبة عنه ألبسه اللّه ثوب الذل... فواللّه ما غزي قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا"[1].

ولسنا نشك لحظة واحدة في أن دخول العرب المسلمين إلى الشام والعراق لم يكن إلا عودة الفرع إلى الأصل... فالقبائل العربية لم تغادر أرضها في أقسى الظروف القاهرة، بل كانت الملجأ الذي يغتدون إليه ويمكثون فيه مهما كانت الصعاب التي تواجههم مع الغزاة من الروم والفرس الذين كانوا يطمعون فيها لوفرة خيراتها، وتقدم حضارتها... وظلوا يرنون إلى السيطرة عليها...

وهنا يدعونا المنطق العلمي والموضوعي إلى الاعتراف بأن أبناء فارس قد التقطوا بفعالية مرهفة تعاليم الإسلام ومفهومه للجهاد، وأيقنوا بأنه ما جاء إلا للارتقاء بالإنسان روحاً وجسداً... فآمنوا به، وصاروا مادته في الفتوح التي شهدتها أرض فارس، وبلاد ما وراء النهر، في السند والهند...

وهذا يفرض ـ أيضاً ـ علينا الاعتراف بأن ملامح الجهاد وطبيعته قد تغيرت في عهد الدولة الأموية وما بعده، إذ أكدت الأحداث أن العرب والمسلمين ظلوا أرحم فاتح في التاريخ لبلاد السند والروم والأندلس كما اعترف به دارسون غربيون.

---

[1] جمهرة خطب العرب، 427/1.

ولعل هـذا يعيـدنا إلى الجهـاد في عهـد أبـي بكـر ومفهومـه ومـا وقـع مـن اعتداءات على العرب المسلمين في بلاد الشام... وكانوا قد توقفوا عند حدودها الجنوبية في عهد النبوة.

وتشير الأخبـار إلى أن بعـض القبائـل العربيـة الأخـرى كانـت صنيعة بيـد الروم، وكانوا يغيرون بأبنائها على القبائل العربية في الجزيرة العربيـة، ثـم ظلّ هذا دأبهم في الإغارة على العرب والمسلمين بعد نـزول الرسـالة، وإشـراقها بنـور ربهـا... وإذا كـان الآبـاء والأبنـاء قـد تـدافعوا لرفـع رايـة الإسـلام ونشـر مبادئـه السمحة فإنهم لم يعتدوا على الآخر الرومي ولم يكرهـوه علـى اعتنـاق الإسـلام علـى الـرغم مـن أنـه لا يـزال قابعـاً في أرض أجـدادهـم الأوائـل... بـل إن العـرب المسلمين ما زالوا يلقون من الروم شراً تلو الشر، ويلقون منهم الأذى المذل... لـذا كان لا بد من دفع الظلم عن النفس العربيـة، وتحرير أرضها المكبلة بإسـار القهر الروماني الطويل.

لهذا وقف الصحابي عاصم بن عمرو التميمي المتوفى سنة (15هـ/ 635م)[1] يخاطب المجاهدين في ساحة المعركـة قـائلاً لهم: "إن هـذه بـلاد قـد أحـل الله لكـم أهلها، وأنـتم تنـالون منها منـذ ثـلاث سـنين مـا لا ينـالون مـنكم، وأنـتم الأعلون، والله معكم"[2].

وقد تشير هذه العبارات من الخطبة إلى معان مثيرة، بيد أنها حملت كثيراً من الحض على احترام أهـل الـبلاد، والحفـاظ علـى كـرامتهم، كمـا اشـتملت علـى مبـادئ أخلاقيـة رفيعـة تـذكرنا بخطبـة أبـي بكـر الـتي أوصـى بهـا جـيش أسـامة بـن زيـد.... وممـا ورد فيهـا: "يـا أيهـا النـاس؛ قفـوا أوصـيكم بعشـر فاحفظوها عني: لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا؛ ولا تقتلوا طفـلاً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امـرأة، ولا تعقـروا نخـلاً ولا تحرقـوه، ولا تقطعـوا شـجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة. وسـوف تمـرون بـأقوام قـد

---

[1] الأعلام 248/3.
[2] جمهرة خطب العرب، 230/1.

فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم، وما فرغوا أنفسهم له... اندفعوا باسم اللّه"[1].

وإذا كانت هذه المعاني تتكرر في وصية أخرى لأبي بكر أوصى بها يزيد بن أبي سفيان وجيشه[2] فإننا نشير إلى مقطع صغير من وصية عمر بن الخطاب للمجاهدين، ومنها: "بسم اللّه وباللّه وعلى عون اللّه؛ امضوا بتأييد اللّه، وما النصر إلا من عند اللّه ولزوم الحق والصبر. فقاتلوا في سبيل اللّه من كفر باللّه، ولا تعتدوا إن اللّه لا يحب المعتدين؛ ولا تجبنوا عند اللقاء؛ ولا تمثلوا عند القدرة؛ ولا تسرفوا عند الظهور، ولا تقتلوا هرماً ولا امرأة ولا وليداً، وتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان، وعند شن الغارات""[3].

إن هذه المبادئ العظيمة في جهاد العرب المسلمين تحرض ذاكرة المرء على استشعار بشاعة ما فعله يوشع بن نون في بلاد الشام، فضلاً عن فظاعة ما قام به غيره من ملوك اليهود وفق ما أثبتناه سابقاً[4]. وقد ماثلهم في ذلك كلّه الروم الذين هيمنوا على الشام زمناً طويلاً ساموا فيه أهلها كل ألوان العذاب والقهر، في الوقت الذي تذكرنا بأن العرب أينما كانوا في هذه البلاد التي ابتليت باليهود والرومان قد فتحوا مدنهم للفاتحين العرب المسلمين مستبشرين بتحرير أنفسهم من الروم، بعد أن طال بقاؤهم في الأسر، كما شهدناه في تحرير دمشق وحمص وشيزر وحماة وحلب...

ثم إن تعاليم الإسلام السامية في الجهاد تدفعنا إلى تذكّر صورة مناقضة أرستها مقولات ووصايا لحاخامات بني صهيون تناقلوها في كل زمان ومكان لندرك الفرق بينها وبين ما وجدناه عند العرب. فحاخام تل أبيب (حاييم ديفيد) ـ مثلاً ـ يقول: "من حق اليهودي أن يقتل المدنيين العرب العزل بما في ذلك النساء والأطفال والشيوخ، وإن الشريعة اليهودية تسمح له بذلك"[5].

---

[1] جمهرة خطب العرب، 187/1.
[2] انظر المصدر السابق، 196/1 ـ 197.
[3] جمهرة خطب العرب، 227/1.
[4] راجع ما تقدم 29 ـ 31.
[5] مجلة الكفاح العربي (عدد 815)، ص 14 وراجع ما تقدم 29 ـ 31.

وفي ضوء ذلك كله لا يمكن لأحد أن يجعل جهاد العرب المسلمين إرهاباً وعنفاً وقتلاً، واعتداء على حرمة الآخر... وحريته؛ وأمنه، ولم يكن يوماً كذلك، على حين ما زالت أفعال الآخر الغربي الأمريكي الصهيوني نحو العرب والمسلمين أفعالاً همجية ووحشية... وعلى الرغم من هذا يرفض أن توصف بالعنف أو غيره.

ولما كانت لدينا رغبة جامحة في إجلاء صورة الجهاد عند العرب المسلمين بمعناها الحقيقي والإنساني كان علينا أن نستشهد بالعديد من الحوادث التاريخية والصور الأدبية لعدد من العصور الإسلامية... حتى لا يقال: إن عهد النبوة والخلافة الراشدة لا يقاس عليه؛ فهو عهد استثنائي...

فالجهاد عند العرب المسلمين لم يكن نفياً للآخر المغاير وقتله، ولا لإذلاله وقهره واستعباد الرجال والنساء والأبناء؛ وكذلك هو في إطار جهاد الآخر موافقاً أو مخالفاً ممّن يعيشون في الوطن الواحد... ولعل ظاهرة شكوى الآباء الكبار بالسن بعد أن ضعفت قوتهم وخارت عزيمتهم من أبرز الظواهر في هذا الشأن. فقد رأينا آباء يئنون زفرات حارقة لانخراط أبنائهم في الجهاد وقد خلفوهم وراءهم بلا معين، ولا أنيس... فرفعوا شكواهم أنة ولوعة في قصائد لاهبة فردهم الخليفة إليهم، كما نجده في قصيدة حارثة بن صخر بن مالك أحد معمري بني كلب بن وبرة، وقد أدرك الإسلام وهو شيخ هرم دالف ولم يسلم، على حين أسلم ابنه جناب، ثم هاجر إلى المدينة المنورة فحارثة جزع على ابنه جزعاً شديداً، ثم ذكره بأن قربه أولى له بالثواب من الجهاد، ومما قاله[1]:

تركت أباك بالأدوات كَلاًّ ... وأمك كالعجول من الظراب

فلا وأبيك ما باليت وجدي ... ولا شوقي الشديد ولا اكتئابي

ثم قال:

أردت ثواب ربك في فراقي ... وقربي كان أقرب للثواب

---

[1] المعمرون والوصايا، 73. وانظر صحيح البخاري 5/8. باب صفة الوالد المشرك.

وتتكرر هذه الظاهرة في عهد عمر غير مرة، ويرفع الآباء شكواهم إليه كشكوى المخبل السعدي (ربيعة بن مالك) ابنه شيبان لذهابه إلى جيش الفتح، ومما قاله[1]:

أيهلكني شيبان في كل ليلة — لقلبي من خوف الفراق وجيب؟!

أشيبان إن تأبى الجيوش بحدهم — يقاسون أياماً لهن خطوب؟!

يذودون جند الهرمزان كأنما — يذودون أوراد الكلاب تَلُوبُ

"فلما أنشد عمر بن الخطاب هذه الأبيات بكى ورق له، فكتب إلى سعد يأمره أن يقفل شيبان بن المخبل ويرده على أبيه... فانصرف إليه، ولم يزل عنده حتى مات"[2].

ووجدنا عمر يفعل ذلك أيضاً مع خويلد بن مرة الهذلي وابنه خراش[3] وأمية بن الأسكر وابنه كلاب... وافتتح شكواه باستحضار العاذلة لما يعانيه من حرقة في إحدى قصائده فقال[4]:

أعاذل قد عذلت بغير علم — وما يدريك ويحك ما ألاقي؟

فإما كنت عاذلتي فردي — كلاباً إذ توجه للعراق

سأستعدي على الفاروق ربا — له رَفَعَ الحجيج إلى بُسَاق[*]

إنِ الفاروقُ لم يردُدْ كلابا — على شيخين هامُهما زَواقِ

فأمر الخليفة سعد بن أبي وقاص برده إلى أبيه، فلما وصل إليه ورآه "قام إليه فاعتنقه، وبكى بكاء شديداً، وبكى عمر رقة لهما"[5].

فهؤلاء الآباء آمنوا إيماناً صحيحاً بتعاليم الإسلام، واستوعبوا عظمة أجر

---

(1) الأغاني، 190/13.
(2) الأغاني، 191/13.
(3) انظر الأغاني، 226/21 – 227.
(4) المعمرون والوصايا، 86. وانظر الأغاني، 11/21، على اختلاف الرواية.
(*) بسَاق: مكان، وروي في الأغاني (دُفُع)
(5) المعمرون والوصايا، 87. وانظر تفصيل ذلك في الأغاني، 10/21 – 12.

الشهادة في سبيل الله... لكنهم أيقنوا بأن بر الوالدين يعدل ذلك، لأنهم كبار السن، وأحوج الناس إلى الرعاية. ولا جدال في أن النفس الإنسانية المليئة بفيض المشاعر، والتي أحست بلوعة الفقد كانت تدفع أولئك الآباء للتعبير عما يحسون به... فالشعور الأصيل عند المسلم يؤمن بقيمة الجهاد، ولكن الشعور الأبوي يفيض حسرة على حال الضعف والشيخوخة التي آل إليها ولا يجد له من معين ما جعله ينطق بتلك العبارات، . وقد حرص الإسلام في الحالتين على ألا يخسر الابن أجر البر بالوالدين، فعد بره لهما جهاداً عظيماً، ما يشي بأن الجهاد بكل أصنافه كان هدفه حرية الإنسان وكرامته.

وهناك صور أدبية أخرى للآباء والأبناء تتمثل بخروجهم جميعاً للجهاد وإعلاء كلمة الله لكن القدر نصب شراكه لهم. فهذا أبو ذؤيب الهذلي يخرج برفقة أولاده الخمسة مجاهدين إلى مصر فيموتون بالطريق سنة (15هـ) بمرض الطاعون فيحزن لهم لأنهم لم يكسبوا شرف الجهاد.... وهذا ما عزز مشاركته في فتح مصر، حتى توفي سنة (26هـ)... وكان قد رثاهم بقصيدة مشهورة[1].

أما صورة الأمهات والأبناء فإن الخنساء (تماضر بنت الشريد) تعد أكثر الصور تعبيراً عنها؛ وكانت الخنساء في جاهليتها وقبيل إسلامها شديدة الحزن على أخيها صخر، وندبته ندباً حاراً في الجاهلية لما فاته من المجد، ثم بكته في الإسلام لما فاته من شرف الإيمان[2]، ولمّا شاركت في وقعة القادسية (14هـ) مع أبنائها الأربعة، رأينا موقفها من الجهاد على أحسن ما يتمثله المؤمن صبراً واحتساباً... فكانت صورة للأمهات في كل زمان ومكان... فقد وقفت تخاطب أبناءها، ومما قالته: "يا بَنِيَّ، أنتم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، والإله الذي لا إله غيره، إنكم لبنو رجل واحد، كما أنكم بنو امرأة واحدة، ما خنت أباكم، ولا فضحت خالكم؛ ولا هجنت حسبكم، ولا

---

(1) شرح أشعار الهذليين 1/1 ـ 7، وانظر ديوان الهذليين 2/1 على اختلاف الرواية، والرثاء في الجاهلية والإسلام 116، وقصيدة الرثاء، جذور وأطوار. 210 وما بعدها، وانظر: فتوح الشام 180/2 في حكاية خالد بن الوليد مع ابنه سليمان الذي استشهد في الشام.

(2) انظر: الرثاء في الجاهلية والإسلام 147 ـ 148 و153 ـ 159.

غبرت نسبكم. وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب العظيم في حرب الكافرين. واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية... فإذا أصبحتم غدا؛ فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين؛ ولله على أعدائه مستنصرين".

ثم أضاء الصبح، ودخلوا المعركة، وسقطوا شهداء؛ فبلغها خبر استشهادهم فقالت: "الحمد لله الذي شرفني باستشهادهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته"[(1)].

فالقلوب المؤمنة بالجهاد مسلمة بقضاء الله وقدره، ولكنها متيقنة بأن أجر الشهادة لا يعادله أجر آخر... ولهذا طفقت نفوس الآباء رجالاً ونساء تجسد روح المشاعر الإنسانية النبيلة؛ لأن جهاد أبنائهم ما كان اعتداء على الآخر، ولا إمعاناً في إذلاله... فالألم يعتصر فؤاد كل مسلم حين يجبره الآخر المغاير على محاربته، فما ترك له سبباً غير قتاله؛ وهذا ما نجده في عهد المعتصم العباسي. فقد سام الرومُ العربَ كل أنواع الذل والقهر في الثغور، وسفكوا الدماء، واستحلوا النساء، ما فرض على المعتصم أن يقوم بغزو الروم في معركة شهيرة عرفت بعمورية. وعمورية قاعدة الروم ومدينتهم، وذكرها أبو تمام في شعره ومنه[(2)]:

يا يوم وقعة عمورية انصرفت　　　منك المنى حُفَّلاً معسولة الحلب

غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحى　　　يشله وسطها صبح من اللهب

فالعرب المسلمون وقفوا عند حدود أرض الأجداد في فتحهم، وما تجاوزوها حتى وجدوا الروم يمعنون في الشر والظلم، واستمروا في الإغارة على ديار الإسلام وترويع الآمنين في عهد المتوكل... فالروم ـ أعداء العرب والمسلمين ـ ماضون بالإفساد والشر والقتل وإرهاب النفوس الآمنة من أبناء قرى الثغور، ما جعله يعد العدة لقتالهم ودفع أذاهم عن العباد المؤمنين... ونال منهم في معركة

---

(1) جمهرة خطب العرب 231/1، وانظر الرثاء في الجاهلية والإسلام، 159.
(2) شرح ديوان أبي تمام، 32/1 ـ 49.

ذكرها لنا البحتري في مدح المتوكل منها[1]:

ومـا زالـت الأعـداء تعلـم أنـه ... يجاهـدها في الله حـقَّ جهادهـا

ولما طغت في دارها الروم واعتدت ... سَفاهاً رماها جعفر بحصادها

أعد لها فرسان جيش عرمرم ... عداد حصى البطحاء دون عدادها

كتائب نصر الله أمضى سلاحها ... وعاجل تقوى الله أكثر زادها

ولعل وقائع سيف الدولة في الروم كثيرة وطالما تعرضوا للعرب المسلمين بالشر والظلم، فكان الروم يجيشون الجيوش للقضاء على دولة بني حمدان... ولكن سيف الدولة كان لهم بالمرصاد يردُّهم على أعقابهم خائبين بعد أن هيأ نفوس الآباء والأبناء للجهاد من أجل الذود عن الذات وحماية راية الإسلام... ومن أبرز القصائد التي عرضت لذلك ما وجدناه في قصائد عند المتنبي، وبخاصة تلك التي تحدثت عن قلعة (الحدث) ومنها[2]:

هل الحدث الحمراء تعرف لونها ... وتعلم أي الساقيين الغمائم؟!

سقتها الغمام الغر قبل نزوله ... فلما دنا منها سقتها الجماجم

وكانت النتيجة قوله:

ومن طلب الفتح الجليل فإنما ... مفاتيحه البِيْضُ الخفاف الصوارم

نثرتهم فوق الأُحَيدب نثرة ... كما نثرت فوق العروس الدراهم

ألا أيها السيف الذي لست مغمداً ... ولا فيك مرتاب ولا منك عاصم

هنيئاً لضرب الهام والمجد والعلا ... وراجيك والإسلام أنك سالم

ولِمْ لا يقي الرحمن حديك ما وقى ... وتفليقه هام العدا بك دائم؟!

ولكن شوكة الروم وغيرهم لم تلن قناتها، وتطورت على الدوام، ولم

---

[1] ديوان البحتري، 440/1 – 441.

[2] ديوان أبو الطيب المتنبي، 380/2 – 392.

يكن للعرب والمسلمين إلا أن يدفعوا خطرهم البشع والدائم...

ولعل العصر الأيوبي قد شهد فيه أبناء العرب والمسلمين أعتى هجمة صليبية تجمع فيها كل دول أوربا تقريباً آنذاك... فالحروب الصليبية دامت قرابة قرنين من الزمان (492 ـ 692هـ)، إذ جندت أوربا كل ما تملك تحت راية الصليب متذرعة بحماية المقدسات المسيحية وبتخليص المسيحيين العرب من قهر العرب المسلمين. وشهدت أرض العرب وديار الإسلام من جديد مواجهة حضارية شرسة، ولكنها هذه المرة شاملة وقوية ومسلحة بأعتى الإمكانيات الفكرية والمادية... ومن ثم اجتازوا آلاف الأميال متجهين إلى بلاد العرب غازين لها ـ كما حدث بعد ذلك في القرن التاسع عشر والعشرين وكما يحدث اليوم من الاحتلال الأمريكي للعراق وأفغانستان .... فدنسوا أرضها، وعاثوا فيها فساداً وقتلوا العباد، وزرعوا الفتنة والإغواء في النفوس... إذ جعلوا نساء كثيرات متاعاً لجنودهم، ووسيلة لبيع الهوى، في الوقت الذي جلبوا رهباناً وراهبات لأمور تبشيرية...

ولا شيء أدل على ذلك من شكوى أحد البطاركة سنة (597هـ/1191م)، حين قال: "سرنا نحو جيشنا في عكا، فوجدنا جنودنا هناك. وأقولها بكل ألم وحزن قد أسلموا أنفسهم لأفعال مخزية واستسلموا للراحة والشهوة"[1]. وأوضح لنا العماد الأصفهاني أن الفتنة والإغواء كان من صميم التقرب إلى الله عند أولئك النسوة ـ أو هكذا أقنعوهن ـ فقال: "وزعمن أن هذه قربة ما فوقها قربة؛ لا سيما فيمن اجتمعت عنده غربة وعزبة"[2] ويبدو أن هذه الحال ما زالت مستمرة حتى اليوم في عناصر الجيش الأمريكي الذي احتل العراق في (2003/4/9م) كما دلّت عليه الوثائق والأخبار الكثيرة[3].

وإذا كان حال الأمة العربية والإسلامية آنذاك ليس بأفضل من حالها اليوم فإن الله قد قيض لها بعد لأي من الزمان نور الدين الشهيد: محمود بن عماد الدين زنكي (ت 569هـ/1271م) الذي أخذ يهيئ النفوس للجهاد والاستشهاد

---

[1] المرأة الصليبية، دراسة في تاريخ المجتمع الفرنجي في بلاد الشام، 83.
[2] الفتح القسي في الفتح القدسي، 347.
[3] انظر مشروع القومية العربية إلى أين 196.

لطرد الصليبيين الغزاة، وتحرير بيت المقدس الذي دنسوه بكل ألوان القهر والظلم... ولما جاءه الأجل المحتوم وانتقلت المسؤولية التاريخية إلى البطل صلاح الدين الأيوبي (يوسف بن أيوب الذي توفي 589هـ/1193م)، آلى على نفسه ألا تضحك له سن حتى يتحرر المسجد الأقصى من ربقة الفساد والطغاة... فحمل راية الجهاد بعد نور الدين الشهيد لرد شوكة المعتدي عن الأرض الشريفة، ووقف إلى جانبه أبوه وأخوته والشرفاء جميعهم مسلمين ومسيحيين... وما زالوا على قلب رجل واحد تحت راية "لا إله إلا الله" وهم يجاهدون الغزاة المارقين حتى انتزعوا النصر المؤزر في معركة حطين سنة (583هـ/ 1187م)، ومن ثم عاد بيت المقدس ليتزنر بحريته ولينتشي بطهارته... على الرغم من أن بعض الفلول الصليبية ظلت هنا وهناك في سواحل الشام تمارس القتل والنهب، كما وجدناه سنة (614هـ/1217)م)، حين هاجموا قرى (جبيل، والطور والناصرة)، وسبوا النساء وسرقوا كثيراً من الأطفال الذين وزعوا على الراهبات والأديرة ولكن الأرض العربية سرعان ما تخلصت من آثامهم.

فالجهاد والاستشهاد عند العرب والمسلمين لم يكونا ـ على الأغلب ـ إلا دفاعاً عن الذات المهددة بالفناء، وكذا هو في العهود الأيوبية وما بعدها حتى اليوم، . بينما كانت الدول الأوروبية ـ آنذاك ـ تمارس على العرب والمسلمين أقسى أنماط الإرهاب والقهر والظلم والفساد... وقد عبر عن ذلك الحليم الفاضل في إحدى قصائده التي وصف فيها معركة حطين؛ ومدح بها صلاح الدين؛ ومنها[1]:

أتوا بحبال أبرمت لإسارنا — فسقناهم فيها قطينا محددا

وساموا تجارا تشترينا غواليا — فبعناهم بالرخص جهرا على الندا

وجروا جيوشا كالسيول على الصوا — فاضت غثاء في البطاح مبددا

وقالوا: ملوك الأرض طوع قيادنا — إذا الكل منهم في القيود معبدا

---

[1] عيون الروضتين، 303/1.

فهذه المقدمة تشبه ما وجدناه عند المتنبي في وصفه لجيش الروم القادم إلى قتل العرب المسلمين، وقد أعدَّ ملوك أوربا كل احتياجاتهم القتالية وجاؤوا غازين حاقدين يظنون أنهم سادة الأرض؛ وظنّوا أن العرب عبيد يباعون في سوق النخاسة، فخاب أملهم، ... لهذا يتابع الحليم الفاضل وصف معركة حطين فيقول:

ووقعة يوم التل إذ قبضت به جبابرة الإفرنج حيرى وشردا

عليهم من البلوى سرادق ذلة ومن ذَلَّ ماتت نفسه فتقيدا

وما طرق الأسماع من عهد آدم كملحمة التل التي ثلّت العدا

وقال عمارة بن علي يمدح صلاح الدين؛ ويبين فضل أبيه في تنشئة المعارك[1]:

أبوك الذي أضحى ذخيرة مجدكم وأنت له خير النفائس والذخر

فكيف أب أصبحت نار زناده وإلا كنور البدر من سنة البدر؟

ولهذا ترى الآباء على طغيان الشيب في رؤوسهم لم يتوانوا في الدفاع عن حياض الأمة وكرامتها في وجه الهجمة الصليبية الباغية... وكانوا يخضبون شيبتهم إمعاناً منهم بإظهار الشباب لزرع الخوف في قلوب العدو الظالم. ففي حصار حصن (الكرك) مضى الأبناء على درب الآباء في الجهاد، وقد توفي في هذا الحصار محمد بن أحمد القادسي؛ بعد أن وصف ما آلت إليه الحال... ومما جاء في شعره معبراً عن ذلك كله[2]:

ولم أخضب مشيبي - وهو زين - لإيثاري جهالات التصابي

ولكن كي يراني من أعادي فأرهبه بوثبات الشباب

وإن القارئ للآثار الأدبية التاريخية للعصر الأيوبي يجد أن فكرة الجهاد

---

(1) عيون الروضتين، 142/2 – 143.

(2) عيون الروضتين، 122/2.

لم تكن يوماً في حياة العرب والمسلمين مفهوماً يولد الكراهية والحقد على الآخر المعتدي، وكلما فرضت المصادمة الحربية على العربي والمسلم كان يتصدى لشرورها ورد خطر كل طامع أثيم... لهذا لم يخرج العربي في جيوش الفتح إلى أرض الله إلا بعد أن لقي أشد أنواع البغي والطغيان من الأعداء الذين لم يهدأ لهم بال دون أن ينالوا منه.

إذاً؛ خرج العربي المسلم مجاهداً لانتشال الأمم من ظلم محيق بها وبه، وتحريرها من رق الذل والعبودية واستعباد الآخر... ثم عبر الأدب في مختلف العصور عن الروح الإنسانية السامية لفكرة الجهاد، وساقها أصحابها بأرقى الأشكال الإبداعية الحضارية دون أن يشوهوا صورة الآخر المستبد الطامع في أرزاق الناس وخيراتهم وأراضيهم، وبيع أبنائهم في سوق النخاسة... وقد ظهر هذا في مؤلفات عربية عديدة وعبر عنها الشعراء بكل دقة وتسام كما نراه في أشعار أسامة بن منقذ (488 ــ 584هـ/ 1095 ــ 1188م) في كتابه (الاعتبار)[1] وفي شعر ابن القيسراني محمد بن نصير[2] وكتاب أبي شامة: عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي (ت 665هـ) (الروضتين في أخبار الدولتين)، وتلخيصه (عيون الروضتين)[3] وغير ذلك كثير...

فالنماذج الأدبية تحقق لنا ولادة الشفافية الأخلاقية لمفهوم الجهاد عند العرب والمسلمين، فهو جهاد قائم على احترام انتماء الآخر المغاير وعقيدته وحريته وصون كرامته والتفاعل معه... فهو أخ للمسلم في الإنسانية ولا يجوز امتهان مروءته ولا شرفه بعكس ما كان هذا الآخر يفعله مع العرب ويكتبه عنهم. وليس هناك من يرتاب منا في أن أكثر ما كتبه المؤرخون العرب والمسلمون، وما صوره الأدباء يعبر عن ذلك كله، وإن وقع أحياناً على بعض صور منفرة للآخر في تلك الكتابات والأشعار... ولم تكن هذه الصورة المنفرة

---

[1] حرر كتاب (الاعتبار)، فيليب حِتِّي، جامعة برنستون، 1930م ثم عني به غير باحث، مثل الدكتور حسن الزين ــ طبعة دار الفكر الحديث ــ بيروت ــ 1988م، والدكتور عبد الكريم الأشتر ــ طبعة المكتب الإسلامي ــ دمشق ــ ط2 ــ 2003م وانظر الأعلام 1/ 291.

[2] جمع شعر ابن القيسراني وحققه ودرسه د. عادل جابر، الزرقاء، الوكالة العربية للتوزيع، 1991.

[3] طبع كتاب الروضتين في أخبار الدولتين في دار الجيل، بيروت، 1974م.

بفعل الكراهية والحقد ــ كما نجده في المؤلفات الغربية عن الإسلام والمسلمين ـ بل كانت بحكم تاريخيتها، ووفق وجودها الحقيقي، كتلك الصور التي عرضوها للنساء الصليبيات اللواتي جلبن لبيع الهوى واللذة والترويح عن الجنود.

في صميم ذلك كله نجد الأدب العربي خاصة والتراث عامة يشكلان الوعي الناضج لحركة الجهاد، وكل منهما يديرها بحوار فكري وعاطفي شديد التأثير، هدفه الحق والحقيقة، وسمته الصدق والتفاعل النبيل مع الآخر لا نفيه لقوله تعالى: ﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه﴾ (التوبة 6/9).

ومن هنا يصبح لزاماً علينا أن نشير بشكل موجز وسريع إلى المؤلفات الغربية الكثيرة من القرون الوسطى كما كتبها المحاربون الصليبيون وغيرهم؛ وإلى التجربة المرة التي شهدتها فكرة الجهاد في الأندلس... وإلى التأثير الكبير للموروث الديني اليهودي التوراتي، في الذهن الغربي وهو التأثير الذي ما زال مستمراً في تشكيل المسيحية الأصولية[1]...

فالمؤلفات التي ورثها الغرب عن الحروب الصليبية مثل (أنشودة رولان) أو (أنشودة أنطاكية)، شوهت ملامح فكرة الجهاد النبيلة خاصة، وصورة العربي عامة؛ حين صورت العربي المسلم بصورة ساخرة بغيضة، جردته من كل قيم الخير والأخلاق... فهو كافر متوحش، قاطع للطريق، ليس جهاده إلا إرهاباً وقتلاً، يذبح بلا رادع أخلاقي وينهب ويسرق، ويفرض الإتاوات على الناس الأبرياء... ولا هم له من جهاده إلا المال واصطياد النساء، والاعتداء على شرفهن... فقد أمعنوا في تشويه الصورة العربية، بمثل ما غيّبوا الكتابات الغربية التي تحدثت عن وحشية الصليبيين الذين أتوا بأفعال مشينة لا نظير لها في التاريخ إلا ما يفعله الصهاينة والأمريكان هذه الأيام. ولعل ما كتبه (غوستاف لوبون) في كتابه (حضارة العرب) يكشف لنا عما فعله الصليبيون

[1] انظر مشروع القومية العربية إلى أين 156 ـ 168.

إبـان احـتلال القـدس سـنة (492هـ)، ومنـه قولـه علـى لسـان راهـب فرنجـي آنذاك:[1] "كـان قومنا يجوبون الشوارع والميادين وسطوح البيوت ليرووا غليلهم من التقتيل، وذلـك كـاللبؤات الـتي خطفت صغارها!!. كـانوا يـذبحون الأولاد والشباب، ويقطعونهم إرباً إرباً، وكـانوا يشنقون أناسـاً كثيرين بحبل واحد بغية السرعة. وكـان قومنـا يقبضـون كـل شـيء يجدونـه فيبقـرون بطـونٍ المـوتى ليخرجوا منها قطعاً ذهبية!!!. فيا للشره وحب الـذهب، وكانت الـدماء تسيل كالأنهار في طرق المدينة المغطاة بالجثث".

ثم استكمل الغرب تشويه الملامح الروحية لفكرة الجهاد بفعل المفارقات الشديدة بين العرب والإسبان نتيجة الحروب الدامية الطويلة التي جرت أحداثها في الأنـدلس. فـإذا تـذكرنا أن العـرب لم يـدخلوا شـبه الجزيـرة الإيبريـة إلا بنـاء على طلب من بعض أمرائها المقاتلين عرفنا قيمة ما قدموه للإسبان من تسامح بين الأديان في التعامل وممارسة الحرية في العقيدة والحياة. وما كنا لنتوقع من بعض الإسبان تلك المكافأة للعرب الـتي تجلت قتلاً وقهراً، ولا سيما إبـان مـا سموه (حرب التحرير)، وإثر خروج العرب من الأندلس مخذولين من قِبل مـن لم يقدر حضارتهم، ولا سيما حين تجاهل أغلب الغرب والإسبان ما قدمه لهم عهد عبد الرحمن الناصر وما أفادوه من المؤلفات العربية مثل مؤلفات ابن رشـد وابـن خلـدون، ولم يبصـروا دلالـة غرناطـة وقصـر الحمـراء علـى مفهـوم التفاعـل والتحضـر والارتقـاء... بـل شـرعوا يغـذون أطفـالهم بكـل حقـد علـى العـرب المسلمين، ويشوهون كل قيم الخير والأخلاق التي حملوها إلى الأسبانيين ومن ثمة خططوا لاحتلال المغرب العربي بمساعدة الدول الأوربية ولا سيما فرنسا وألمانيا[2]. ولعل قصة (حكايات إسبانية) للكاتبة (أ. خيمينييث لانـدي) مـن أبرز ما كتبه الغرب في هذا المجال... فقد ظهر العربي المسلم المجاهد في كل حكايـة مـن حكاياتهـا كـافراً غـادراً، مهووسـاً بالقتـل مـن أجـل المـال

---

[1] انظر حضارة العرب ـ 325، وراجع فيه (ص 326).

[2] انظر صفحات من الجهاد والكفاح العربي ضد الاستعمار ـ ص 35 و 42 ـ 46 و 82 ـ 85.

والنساء...[1] ، على حين أن هناك فرقاً كبيراً بين ما قدمه العرب المجاهدون وبين ما كافأهم الإسبان به...

ومن ثم أخذت تظهر في الغرب بعد القرن السابع عشر مؤلفات غربية مشبعة بالعنصرية والحقد على العرب والمسلمين، ويكفي أن نشير إلى كتاب شاتوبريان (1768 ــ 1848م)، (رحلة من باريس إلى القدس)، وكتاب غوستاف فلوبير (1821 ـ 1880) (مراسلات)، الذي طبع للمرة الأولى في سنة (1922م)؛ لا سيما الفصل الخاص فيه (رحلة إلى الشرق)[2].

فهذه المؤلفات وأمثالها امتداد طبيعي لمؤلفات الغرب في الحروب الصليبية في القرون الوسطى... وهي مؤلفات نالت من رجل الدين الإسلامي والمسيحي العربي على السواء... فرجل الدين المسيحي العربي القبطي عند فلوبير مدعاة للسخرية الشديدة وعدم الاحترام... بينما صورة المسيحي الغربي صورة متحضرة راقية؛ هدفه الدفاع عن المقدسات المسيحية في الشرق؛ وهي مقدسات فرط بها رجل الدين المسيحي العربي لحساب المسلم كما تزعم تلك المؤلفات.

هكذا بلغ التشويه والحقد مداه في الذهن الغربي لفكرة الجهاد، ولصورة العربي المكافح من أجل وجوده وحريته وعقيدته. وهو تشويه ينطوي على مرجعيات فكرية إيديولوجية، ومادية، ولا سيما ما يتعلق بالمرجعية الدينية التوراتية...

فالصورة الغربية الشمولية والمركبة والمشوهة والظالمة لفكرة الجهاد عند العرب والمسلمين إنما هي نتاج فكري تاريخي طويل الأمد تشكل على مراحل عدة وتأثر أيما تأثر بأدبيات الصهاينة وعقائدهم خاصة، لما يملكونه من نفوذ واسع ومتنوع في أمريكا وأوربا... ومن ثم يسدُّ الغرب أذنيه، ويغمض عينيه عما يفعلونه من جرائم ضد الإنسانية، وهي جرائم تخالف الاتفاقيات الدولية ولا سيما اتفاقية جنيف الرابعة (المؤرخة في 1949/8/12م) والبرتوكول الملحق بها في التاريخ نفسه... ثم يمعن الغرب الاستعماري في سد أذنيه لكي لا يسمع

---

[1] انظر: صورة المسلم في قصص الأطفال الإسبانية (حكايات أسبانيا) أنموذجاً.

[2] انظر صورة العربي في الكتابين المذكورين، د. أميرة عيسى.

ما يتبجح به حاخامات الصهاينة، في فلسطين المحتلة. فحين قتل مستوطن يهودي طفلة فلسطينية أصدر الحاخام (مردخاي إلياهو) فتوى يقول فيها: "إن المستوطن الذي قتل الطفلة العربية عائشة لا يعتبر قاتلاً ولا يجوز محاكمته استناداً للديانة اليهودية"[1]. فالغرب عكس الصورة وجعل العربي قاتلاً وشاذاً وإرهابياً متأثراً بما يؤسسه الفكر الصهيوني في أذهان أبنائه... ولعل سميح القاسم قد بين تصوير الفكر الصهيوني للعربي. فهو "رجل أشعث، حاد النظرات، غدار يخفي في ثيابه خنجراً رهيباً، لا تكاد تدير ظهرك حتى ينقض عليك بطعنة نجلاء، متخلف قاس، همجي، هوايته القتل، سادي، قاتل أطفال، جبان، رعديد، كذاب، منافق، قذر، ساخط، لئيم، حقود..."[2]... وهذا قليل من كثير في تصوير الفكر الصهيوني للعربي كما ظهر في عدد من المؤلفات، ومنها تلك التي ألفها كتاب يهود مثل (إيهود بن عيزر)[3]... ومن ثم فالفكر الغربي يتغذى من الفكر اليهودي في كتبه الدينية، التي عززت فكرة العنصرية والعداء عند الغربي للعرب والمسلمين، وهذا ما انتهى إليه الدكتور عبد الوهاب المسيري[4]. فقد امتزجت التربية اليهودية ومن ثم التربية الغربية بالفكر الإيديولوجي القائم على أرضية عنصرية متنوعة من التوراة والتلمود... ووجهت سموم حقدها إلى العرب والمسلمين في عقيدتهم وحياتهم وقيمهم وعاداتهم؛ وربطت بين تخلفهم وبين الإرهاب إمعاناً في التزوير والتشويه[5].

وبناء على ما تقدم فإننا نشهد في كل لحظة حالة من تزوير الحقائق التاريخية ليس لفكرة الجهاد فقط وإنما لكل القيم العربية والإسلامية؛ وللعرب والمسلمين أنفسهم واتهامهم بأخلاقهم وسلوكهم وثقافتهم وعقيدتهم... فالغرب

---

[1] مجلة الكفاح العربي (عدد 815)، ص 14.

[2] أضواء على الفكر الصهيوني 155 وانظر كتاب (الأدب الصهيوني وتضليل الرأي العام).

[3] انظر كتابه بعنوان (صورة العربي في الأدب العبري) ترجمة د. أحمد حماد ــ ولاسيما ص47-56.

[4] انظر الإيديولوجية الصهيونية 20 – 22 و50 – 61 و124 – 153 و212 – 214، وراجع كتابنا مشروع القومية العربية إلى أين 161 – 166.

[5] انظر مشروع القومية العربية إلى أين 141 وما بعدها.

الأمريكي الصهيوني والأشرار من أوروبة يجهدون لقلب الحقائق وتشويه صورة الإسلام ونعته بصفة الإرهاب والقتل والتخلف إذ راحوا يروّجون مصطلح (الإسلاموفوبيا)[1] لتعزيز فكرة الخوف في النفس البشرية من الإسلام. ومصطلح (الفوبيا) ـ ويعني (الرهاب) و (العنف) و (الخوف) ـ مصطلح يرجع في أصوله ومفاهيمه إلى ما يعرف بعلم الأمراض النفسية التي تثير تصرفات عصابية قهرية. وحين يقترن هذا المصطلح بالإسلام فإنما يعزز الخوف والرعب منه، ولاسيما حين تمارس بعض التيارات المتطرفة التي تنتمي إلى الإسلام السياسي كل أشكال العنف الوحشي، وكل صنوف الإرهاب الذي يقزز النفوس ويدمي القلوب... وهذا كله يؤدي ـ طرداً ـ إلى ربط الإرهاب بالعرب والمسلمين، فتزداد كراهية العالم لهم. وقد جرى له أول تعريف في بريطانيا عام (1997م)... وفي هذا العام ظهرت دعوات إلى طرد المسلمين من بريطانيا حين اتهموا بأعمال العنف في أحداث (1997/9/11م)... ثم تكرر الأمر في أحداث (2001/9/11م) في أمريكا حين هاجم المتطرفون بُرْج التجارة العالمي في نيويورك... وربما أسهم المسلمون أنفسهم في زيادة كراهية الأجانب لهم حين تشددوا في رسم صورة الإسلام، وتطبيق تعاليمه على الرغم من أنهم في بيئة الآخرين في أوربا وأمريكا وغيرهما... وإذا كان المصطلح نادر الاستعمال منذ عام (1976م) وعرف في عام (1987م) ثم عام (1994م) فإنه أخذ يؤسس لعنصرية قاتلة ضد العرب والمسلمين؛ وقد فاقمت التيارات الإسلاموية المتطرفة هذه العنصرية وزادتها عداء وكراهية لكل مسلم وعربي، وكأن الغرب المعادي لهما قد وجد ضالته في الأسباب التي يتنصل فيها من حقيقة مواقفه ضد الشرق. ومن ثم أصر الغرب على وصم الإسلام بأنه فاشستي، وبأن مفاهيمه متخلفة، أو معادية لحرية الإنسان، ومن ثم تصوير النبي الكريم بأبشع الصور، للإساءة إليه من جهة ولبث الرعب في نفوس الغربيين من جهة أخرى[2] وقد سخَّرت الولايات المتحدة كل ما تملكه هي وحلفاؤها لتشويه صورة العرب والمسلمين، وطفقوا يركزون قوتهم الظالمة عسكرياً وتقنياً

---

[1] انظر سورية الاستهداف والمؤامرة 22 ـ 23.

[2] انظر ظاهرة الإسلاموفوبيا ـ قراءة تحليلية – 31 –35 و 47 –49.

وإعلامياً واقتصادياً لإثبات ذلك، ولا سيما بعد وقوع أحداث الحادي عشر من أيلول (2001م)، إذ أعلن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية جورج بوش الابن بداية جديدة للحروب الصليبية التي كانت بداية التطرف الديني ضد العرب والمسلمين، وظل يعزز هذا الاتجاه دون أن يردعه خلق أو حق... وأطلق عبارته المشهورة (من لم يكن معنا فهو ضدنا) وجيش الجيوش والدول التي فتكت بجسد الأطفال والأبرياء في كل مكان، محاولاً إقناع العالم بأن كل مسلم إرهابي ـ وكاد ينجح ـ مصمم على زرع الخوف والرعب في نفوس البشرية... فوحشية الجيش الأمريكي في أفغانستان والعراق لا مثيل لها في الوصف. ونرى أن ظاهرة الإسلاموفوبيا كانت في جوهرها المبني على الكراهية والعداء للآخر موجهة في المجتمع الأمريكي إلى عدد من الأعراق الغريبة كالسود وبعض المهاجرين من القارات الأخرى...

ولهذا وذاك نتساءل: كيف يستقيم حال العرب والمسلمين وموقف أمريكا والصهيونية على تلك الشاكلة؟ كيف يستقيم حالهم وكان إرئيل شارون ثم أولمرت قد تلقيا الدعم من أمريكا وأشرار العالم،وراح شذاذ الآفاق يمارسون في فلسطين المحتلة كل لحظة أبشع أنواع الجرائم بحق الإنسانية والإنسان..في حين يزعمون أنهم دعاة سلام وتحضر؟!! لذلك لم يسلم من فسادهم وحقدهم حجر ولا مدر ولا شجر... لا امرأة ولا طفل ولا شيخ، ولم يتفوق عليهم في الحقد على العرب إلا الزمرة اليمينية الأمريكية بقيادة بوش الابن الذي وجه جيشه إلى احتلال العراق في (2003/4/9م) وعاث فيه قتلاً وتدميراً وحصاراً وما زال شعب العراق يعاني الأمرين حتى الساعة؛ إذ فقد من أبنائه ما يزيد على (700) ألف حتى (2007/5/1م) على حين هربَ من ظلم ذلك الاحتلال إلى مختلف دول العالم ما يزيد على (7) ملايين منهم أربعة ملايين في الدول المجاورة للعراق. وحين خرج الجيش الأمريكي من العراق عمّق روح الفرقة الطائفية والمذهبية بين العراقيين؛ فاستشرى الإرهاب والتطرف بينهم؛ وشرع عدد من ضحايا السيارات المفخخة والانتحاريين الجهلة يترحمون على أيام الاحتلال...

هكذا نتساءل: كيف يستقيم أمر العرب والمسلمين وهم يئنون تحت

ضربات الكراهية والحقد والعداوة، بدل مقاومتها ومواجهة صانعيها؟! ومن ثم من سيصدق أن بإمكان العرب التعايش المشترك مع الصهاينة، علماً أن هناك قسماً آخر قبل علناً بحماية أمريكا التي جاءت للتحكم بمقدرات الأرض العربية ووجودها؟!! أما موقف الإدارة الأمريكية بقيادة بوش الابن فكان صريحاً في العداء للعرب والمسلمين... ومهما كانت عظمة مآسي الإدارة الأمريكية فإنها لم تؤثر في توجهات بعض الحكومات العربية، وكأن مسؤوليها لم يسمعوا تلك التصريحات التي أعلنت بجلاء أن الخطر القادم على أمريكا والغرب يتمثل بالإسلام..

لذلك كلّه نقول: لا يستقيم الظل والعود أعوج، فلا بد من العودة إلى التمسك بقيم الجهاد، وكينونة الوجود الإنساني الفاعل... ولا سبيل لرد أي قهر أو بغي أو اعتداء بغير ثقافة المقاومة وتأسيس الوعي والعمل بها؛ إذ لا مناص لأمتنا عنها... لأنه كما يبدو لنا بكل وضوح أنها أضحت ضرورة حتمية ووجودية وهذا ما يعرض له الفصل الثاني الذي يتناول (المقاومة: الفكر والجدوى).

الفصل الثاني:

المقاومة (الفكر ـ الجدوى)

- قراءة في مبدأ المقاومة

1 ـ مكونات المقاومة وأركانها

1 ـ البعد العاطفي

2 ـ البعد الاجتماعي

3 ـ البعد التاريخي ـ الثقافي

4 ـ البعد الوطني القومي الحضاري

2 ـ المقاومة حرية وسيادة وكرامة.

3 ـ المقاومة حق مشروع.

الفصل الثاني:

المقاومة الفكر والجدوى

ـ قراءة في مبدأ المقاومة

أياً ما تكن طبيعة المقاومة وفلسفتها ونوعها، قديمة أم حديثة؛ إيجابية أم سلبية، سلمية أم عسكرية فإنها أصل الدفاع عن الذات بوصفها ضرورة وجودية، وليست رغبة لإشباع الغرائز والشهوات.. ولذا لا بد من مقاومة أي معتدٍ مهما كانت قوته المعنوية والمادية و... ومن ثم فأياً ما تكن طبيعة المقاومة ووظائفها فإنها **فعل إنساني إرادي واعٍ ومسؤول لمواجهة كل أشكال العدوان؛ وإحقاق الحق وحمايته والحفاظ على الوجود والعيش بكرامة وحرية**.. أي إن المقاومة الإنسانية ليست مجرد مجابهة غريزية للعدو الغازي، وليست مجرد عنف للعنف، إنها دفاع مشروع عن الحياة ضد من يعمل على قتلها، واجتثاث القيم الإنسانية النبيلة، فإذا كان الصراع حول المصالح والهيمنة نتيجة استشعار القوة الغاشمة فإن المقاومة خلاصة منطقية وموضوعية لإرادة الحق، والتصميم على احترام القيم النبيلة، والمبادئ الثابتة في الحق والخير والجمال.

هذا ما شهدت به ثورة الجزائر ضد المحتل الفرنسي الذي دام ما يزيد على /130/ سنة منذ عام (1830م)، والتي قدمت الجزائر ما يربي على المليون شهيد... وكذلك كانت مقاومة أوربا للاحتلال النازي[1].

فمقاومة الاحتلال الفرنسي، أو أي احتلال لم تصدر عن تحديات الانفعال، وعناصر الدهشة باحتلال الأرض (الوطن) وإنما كانت تجربة شعبية نضالية تضج بعاطفة الانتماء؛ والروح الوطنية المرتبطة بعدد غير قليل من

---

(1) انظر الاحتلال الإسرائيلي وشرعية المقاومة 82 – 92.

المفاهيم والآراء.

وقد أكد ميثاق الأمم المتحدة في المادة /51/ حق الدفاع عن النفس " إذا اعتدت دولة مسلحة على أحد أعضاء الأمم المتحدة"، ونص قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم (3382) تاريخ (1975/12/10م) على ما يأتي: " تؤكد الجمعية من جديد شرعية كفاح الشعوب في سبيل الاستقلال والسلام الإقليمي والتحرر من السيطرة الاستعمارية بجميع الوسائل أيضاً، بما فيه الكفاح المسلح"[1].

فالمقاومة ـ بهذا الاتجاه ـ تشكيل إبداعي يستقي مشروعيته من صيرورة الحرية التي تعلي كرامة الإنسان ومروءته بما يميزه من بقية المخلوقات التي تحتاج حياتها الدفاع عن وجودها.

وهذا يعني أن المقاومة ضد المعتدي الظالم والغاصب لحقوق الإنسان ضرورة لازمة في الشرائع والقوانين، والمبادئ الخلقية وقد أكدته الديانات السماوية وشرعة المنظمات الدولية وهيئاتها. وهذا يعني أنها ما خلقت لزمن دون زمن، أو لبيئة دون بيئة، وإنما هي حاجة أزلية ترافق الإنسان في كل حين... ومن ثم لابد من الوقوف عند مكوناتها....

1 ـ مكونات المقاومة وأركانها:

تبين لنا مما تقدم كله أن المقاومة فعل فطري وإرادي واعٍ ومسؤول للدفاع عن الوجود والهوية والأرض، ولا يمتنع عقلاً ولا منطقاً أن يتخذ هذا الفعل أبعاداً ذاتية وفكرية تنبثق ـ حيناً ـ من ردة الفعل لأنه لا يرتبط بالإنسان المجرد من العواطف، أو بالشكل الاحتمالي دون غيره... أي إن الفعل أوردّ الفعل لا يمكن أن يكون معلقاً بالفراغ وإنما يرتبط بالإنسان بوصفه كائناً بشرياً يتحرك في حيّز خاص به يحرم على الآخر النيل منه.

إن أي إنسان، وكذلك بقية المخلوقات الحية تحقق كينونتها الفاعلة

---

[1] انظر الاحتلال الإسرائيلي وشرعية المقاومة 50-56، و 99- 106 وراجع ما تقدم 28.

والإيجابية من خلال المكان /الوطن الذي تولد فيه وتنشأ؛ في إطار الاتحاد المطلق بالحقيقة التي تجذر العلاقة بين المخلوق والوسط الذي يألفه، ويستظل بظله، وينهل العادات والتقاليد في رحابه، فتغدو علاقة الانتماء إليه ذات خصوصية عاطفية واجتماعيّة وتاريخية مميزة لها من غيرها، وتبقى هذه العلاقة مميزة للجماعات البشرية من بقية المخلوقات.

وبهذا يتشكل من خلال مفهوم الانتماء إلى المكان هوية خاصة تجذر مفهوم المقاومة عنه بوصفه دفاعاً عن الذات والوجود بكل مكوناته الأصيلة، والممثلة بالأبعاد الآتية.

1 ـ البعد العاطفي: ذهب كثير من الدارسين إلى أن الفكر الإدراكي المستند إلى إرادة القوة يكمن وراء طبيعة المقاومة ووظائفها... ما يشي بأن هؤلاء الدارسين أهملوا المؤثر الانفعالي العاطفي وتشابكاته المعقدة، وهي تشابكات تتصل بالمكان الذي يكون فيه صاحبه، بمثل ما تتصل بالواقع الاجتماعي وما يغرسه في المخلوق من عواطف الارتباط بالوسط الخاص به حتى يرفعه إلى مرتبة القداسة[1]... ونرى أن المؤثر العاطفي بكل تجلياته يتحدد بوظائف تتعلق بالوطن الذي تنتسب إليه الكائنات، وتدافع عنه بسائق القانون الطبيعي، كونه دفاعاً عن كينونتها ذاتها كما نجده عند أضعف الحيوانات وأقواها كالأسود وغيرها... فالإنسان كغيره يولد بفطرته ولديه قوة التمسك بالحياة، وهي التي تدفعه إلى مقاومة أي أذى يصادفه أو يوجه إليه سواءً صدر عن صديق أم عن عدوٍّ.

ولهذا فإن طبيعة المقاومة في الحفاظ على البقاء هي التي تدعو الإنسان إلى اتخاذ الأسباب التي تكفل له العيش الكريم في أرضه التي ولد فيها ونشأ، مهما كانت الإمكانيات والأدوات التي يملكها. وهي تثبت أن غريزة حب البقاء ليست قوة غاشمة وعدوانية، لأن أول فطرة للإنسان والمجتمع تستند إلى مبدأ الحرية والمساواة الممثلة في الطبيعة، وفق ما ذهب إليه (جون لوك ـ 1632ـ

---

[1] انظر رمزية القدس الروحية 8 ـ 10.

1704م). فالإنسان ينمي حريته دون أن يقصد إلى إيذاء حرية الآخرين[1]. وبمعنى آخر إن البعد العاطفي الطبيعي عند الإنسان لا يمثل الصورة الذئبية للقوة الطبيعية في افتراس حرية الآخر، وفق ما نراه عند عدد من الأنظمة السياسية المتسلطة أو الدول الراغبة في الهيمنة والاحتلال، وإذا عجزت عن قوة الافتراس لجأت إلى النفاق؛ والخبث والدهاء لتحقق مصالحها. ومن ثم يحاول العقل الشيطاني السيطرة على قوة الغريزة المطلقة التي تؤدي إلى حق الدفاع عن الذات. وهي الشريعة نفسها التي تفرض على كل مخلوق تحقيق وجوده بالدفاع عنه بمختلف الوسائل المتاحة له. لهذا يلجأ الثعلب الضعيف إلى قوة الحيلة لديه؛ بينما يعتمد الأسد على مواجهة الفريسة دون تردد أو خوف. ولذلك كله فالبعد العاطفي المرتبط بالوسط (الوطن) يستجمع عناصره الوظيفية ليس في إطار الاستعداد المسبق عند الإنسان وإنما في صميم العلاقة المكانية التي تبيح إمكانية الدفاع عن الذات والوجود... ومن ثم تستخرج إرادته القوة الكامنة لديه وقدراته المتنوعة لتغدو حالة دفاع طبيعية ومشروعية، ولتقف في طليعة الأدوات التي يستعملها الإنسان للحفاظ على الحرية لقوله تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوةٍ ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم﴾ (الأنفال 60/8) وهو ما يستشف أيضاً من مضمون قوله تعالى في خطابه إلى يحيى (عليه السلام): ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة﴾ (مريم 21/19).

فاتخاذ العدة وابتكار آليات جديدة لمقاومة العدوان بكل أشكاله يؤكد إمكانية الحاجة إلى إسقاط التردّد والاضطراب؛ أو القلق والخوف من العدو المدجج بالسلاح... ثم إن إنجاز مفهوم المقاومة لا يتوقف على بعد دون بعد آخر؛ فالبعد العاطفي يزيد قوة الرابطة بين الإنسان وذاته؛ من جهة، ويوطد العلاقة بينه وبين الوسط الخارجي (المكان، الوطن) من جهة أخرى، ما يعني أنه ليس مفهوماً ساذجاً ولا مثالياً، ولا راهنيا وإنما هو بُعْد يتعالى في الارتقاء حين يتكامل مع البعد الاجتماعي والثقافي... ما يؤكد أن كل بُعْد يتحول، أو يتبدل أو يتطور تبعاً للغة الحياة، ليصبح البُعد الاجتماعي محمولاً على التجدد والتجديد في نشر فكر المقاومة...

---

[1] انظر بذور الفتنة الطائفية في لبنان 1/ 30 ـ 32.

2 ـ البعد الاجتماعي: لا مراء في أن هناك اشتراكاً في مفهوم المقاومة عن الوطن والوجود بين الإنسان والحيوان. فالحيوان يدفع الأذى عن نفسه وأسرته ومكانه الذي يكمن فيه، بسائق غريزي يدل على نمط من المودة والألفة، بيد أن هذا الدفاع يتخذ لدى الإنسان أشكالاً راقية من ثقافة الوعي بالوجود والانتساب إلى المكان الذي يكتسب في بعده الاجتماعي مشاعر مرهفة ذات أسرار بعيدة[1]. فالعلاقة العاطفية الاجتماعية التي تنشأ بين أبناء البيئة الاجتماعية المتماثلة، أو الواحدة تتصاعد وتنمو وفق المشاعر التي تتطور دائماً؛ وكذا هي الأفكار والمفاهيم التي تبحث على الدوام عن الارتقاء بالتواصل الاجتماعي؛ ومقاومة كل انحراف أو شذوذ، أو خلل فيه... وبهذا تختلف العلاقة العاطفية الاجتماعية عند الإنسان عن تلك التي تنشأ في حياة الحيوان، وفق ما نعرفه عنها. بين اللبوة وأولادها؛ أو بين النعام وفراخها، أو أي حيوان آخر. أي إن علاقة الارتباط بالمكان عند الإنسان علاقة حب سامٍ مجبول بالذكريات الاجتماعية لمجموع الكتل البشرية التي ولدت ونشأت فيه، وتعاونت على الخير، وكوّنت لنفسها قوة خاصة لمواجهة كل أشكال الشر والأخطار. ومن ثم تتفاوت المكونات الاجتماعية بين مجموعة وأخرى تبعاً لطبيعة التربية الاجتماعية والعادات والتقاليد، والثقافة الإنسانية المتسامحة، التي تنفر من الأذى والشر، وتكره التخريب والدمار كما أصّله مفهوم التاريخ الحضاري المبني على قيم الاحترام للآخر. فإذا كانت المقاومة ضد الكوارث الطبيعية ضرورة وجودية للحفاظ على النوع فإنها في المفاهيم الإنسانية ولادة خَلّاقة لتحقيق الإبداع المنشود في مواجهة الجشع الإنساني، وتوحشه الذي يطال الحياة والمقدسات والهوية والحقوق. ولذا فالعادات والتقاليد والأعراف المكتسبة تضاف إلى الشكل الطبيعي المألوف في المكان والزمان لتنتج نوعاً من التجانس في القيم والمبادئ، ولتصبح عناصر قوة ومدد لبناء المستقبل... ومن ثم فإن العلاقات الاجتماعية المتجانسة والمتحابة ترفع درجة الالتزام بين أفراد المجتمع الواحد، ما يؤدي إلى مفهوم الواجب في مقاومة كل من يعتدي على الفرد والمجتمع والوطن. وهذا ما تجلى من قبل في مفهوم الدفاع عن القبيلة، ثم

---

[1] انظر رمزية القدس الروحية 10 ـ 12.

الدولـة والأمـة... أي إن المحبـة الاجتماعيـة تـبني عَقْـداً اجتماعيـاً للـدفاع عـن كينونتها تجاه كل من يؤذيها ، وهـو عقـد يستند إلى نبل القيم وصفاء الـروح وعظمة الصداقة والتعاون. وإذا كان المرء كائناً اجتماعياً بطبعه فإن المقاومة ضرورة اجتماعية للحفاظ على الأرض والأسرة والعلاقات الروحية التي تنشأ بين أفراد المجتمع، كما نستشفه من حديث رسول الله: " من قُتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد "[1]. وهذا الحديث يشير إلى ضرورة الدفاع عن القيم الاجتماعية التي تنشأ في مجتمع ما للحفاظ عليها وعليه على الرغم من وجود الأنماط الشاذة من أشكال التعامل الاجتماعي والأخلاقي، مثل الأنانية، والحسد والحقد؛ والنفاق والكذب... وإذا ما استنسخت هذه الأنماط السلوكية ذاتها في مواجهة الخطر الخارجي الذي يهدد المجتمع، والوطن بأكمله كانت المصيبة أعظم شراً على الوطن والمجتمع على السواء....

وحين قدس المجتمع قيم المقاومة بوصفها قيماً حضارية، وأعلى من مكانة الشجاعة والإقدام، والثبات في ساحة المعركة... فإنما كان ذلك مستنداً إلى البعد التاريخي الثقافي الذي جسد الحالة السياسية الاجتماعية العاطفية لمكانة المقاومة في النفس البشرية.

3 ـ البعد التاريخي ـ الثقافي: الفعل الوجودي فعل تاريخي ثقافي واجتماعي وروحي يتميز بخصائص تميز كل أمة من الأخرى؛ ما يجعل المقاومة تتمسك بالمواطنة والتزام الهوية الوطنية أو القومية غير المنقطعة عن الصلة الإنسانية وهي في النهاية موقف يتخذه أصحابها من الحياة، وكل ما يحيط بها وفق الفعل المضاد.

فالمقاومة تصبح في أشد حالات الضعف الإنساني هدفاً منشوداً وقيمة مثلى للحفاظ على الهوية وخصائصها المميزة لأبنائها؛ وتغدو ـ كذلك ـ حاجة لتجديد الروح الوطنية والخلقية، والإرادة الحرة التي تتمسك بالفضائل الكبرى، والمبادئ التي تبعد عن أبناء الوطن والأمة العجز والضعف، والتردد

---

[1] الجامع الصغير 544/2 وانظر صحيح البخاري 179/3.

والاضطراب، والخوف والجبن... ما يثبت أن المقاومة وسيلة وهدفاً إنما تعبر عن مكانة الشعوب في صناعة الحضارة التي ترفض الإذعان والهوان والتبعية، والتهميش، والإلغاء أو الذوبان[1]...

ومن يتلمس تاريخ العرب القديم والحديث يدرك أن المقاومة حركة انبعاث وتجدد، ومنهج إبداع وارتقاء في إذكاء القيم المعنوية الأصيلة؛ وإن ارتكب المعتدون والغزاة أبشع أنواع الجرائم بحق الإنسان...

فالعرب لم يكونوا يوماً هواة اعتداء على الآخر؛ وإنما كانوا على الدوام يدفعون عن أنفسهم الضيم والقهر والظلم والغزو. فتاريخهم الوجودي أسس مفاهيم الإخاء والمسامحة والعفو والسلام ونشر المحبة والألفة قبل أي مفاهيم أخرى، ما جعله يكوّن خصوصية فريدة للمقاومة من خلال الابتعاد عن القتل للقتل، والعنف للعنف، أو ظلم الآخر والاعتداء عليه [2].

وإذا كنا عرضنا لشيء من أشكال المقاومة التاريخية عند العرب في الفصل الأول فإننا نؤكد ـ هنا ـ مفاهيمها الحضارية منذ العهد البابلي والسومري حتى العصر الحديث. وتشهد بذلك كله شريعة حمورابي، وقيم العرب في الجاهلية التي تعاظمت فيها مفاهيم إغاثة الجار، وحماية المستغيث ونصرة الضّعيف، وتحالف القبائل فيما بينها لرد الظلم عنها، علماً بأن العرب لم يكونوا يتقاتلون فيما بينهم على الماء والكلأ والأرض إلا من أجل البقاء. وإذا نشب القتال فيما بين عشائرهم وقبائلهم وقتل أحدهم الآخر ـ لأنه ظلمه ـ بكاه بكاء مراً. أي إن التفاعل الاجتماعي التاريخي الإنساني يجعله يندم على ما اقترفت يداه، يشي بأن هذا التفاعل يستند إلى جملة العلاقات الروحية والثقافية التي قوَّت مركزية التجاذب فيما بينهم. ولا شيء أدل عليه من قول قيس بن زهير العبسي الذي قتل حذيفة بن بدر الفزاري وأخاه (حملاً) ثم وقف على جثتيهما يبكيهما قائلاً[3]:

---

[1] انظر رمزية القدس الروحية 14 ـ 15.

[2] هذا ما سينهض به الفصل الرابع من هذه الدراسة.

[3] انظر كتابنا ((الرثاء في الجاهلية والإسلام/ ص81 ـ دارمعد للطباعة، دمشق -1991م.

شفيت النفس من حَمَلِ بن بدرٍ وسيفي من حُذَيفْةَ قد شفاني

فإن أَكُ قد بَرَدْت بهم غليلي فلم أقطعْ بهم إلا بَناني

ولعل المنصفات الشعرية لدى العرب دون غيرهم تثبت عظمة ما وصلوا إليه من القيم الإنسانية رحمة ورأفة وتسامحاً، إذ كان أحدهم يصف بطولة خصمه بمثل ما يصف بطولة قومه، كقول المفضل النكري[1]:

مشينا شطرهم ومشوا إلينا وقلنا: اليوم ما تُقْضَى الحقوق

وكم من سيّد منّا ومنهم بذي الطَّرْفاء منطقه شهيق

ومَنْ يتعقب مثل هذه الظواهر في الأدب العالمي فلن يجد لها أثراً بينما هي شائعة في الأدب العربي القديم، ما يشير إلى أن العرب لا يقدمون على القتال والصراع حباً بهما، وإنما وقع منهم ذلك بفعل مقاومة الظلم والاعتداء عليهم.

ثم نَمَتْ مفاهيم المقاومة وتعددت بعد انبعاث الرسالة المحمدية، في إطار مقاصد الشريعة الخمسة وهي (حفظ الدين والنفس والنسل والمال والعقل [2] ووفق قوله تعالى: ﴿ كُتِب عليكم القتال؛ وهو كره لكم، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبّوا شيئاً وهو شر لكم ﴾ (البقرة 216/2) وقوله تعالى: ﴿ أُذن للذين يُقاتلون بأنهم ظُلموا، وإن الله على نَصرهم لقدير﴾ (الحج 39/22) [3].

فالمقاومة العربية عانقت قيم الصفاء الديني التي تطورت في الإسلام؛ بمثل ما تعززت أشكال المقاومة الإيجابية والسلبية بكل خصائصها الخلقية السامية... وهي خصائص تتوافق مع أحداث التشريعات القانونية العالمية المعاصرة لوظيفة المقاومة وغاياتها ـ فالقانون الدولي ـ وفق ميثاق الأمم المتحدة ـ حَرَّم الاعتداء على الآخر، واستخدام القوة لتهديد وجوده وحريته ووطنه... وإذا

---

[1] انظر الأصمعيات ــ ص201-202 ــ تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون ــ دار المعارف بمصر ــ القاهرة ــ ط4 ــ 1976م.

[2] انظر في أصول الشريعة، لأبي إسحق الشاطبي ــ ج8/2 تحقيق محمد عبد القادر الفاضلي ــ المكتبة العربية ــ صيدا ــ بيروت ــ 2004م.

[3] راجع ما أثبتناه في الفصل الأول حول فكرة الجهاد في العقيدة الإسلامية.

ما فرضت المقاومة على العرب كان عليهم مواجهة أعدائهم بكل قوة وثبات وإرادة تستشعر النصر من دون التعرض للأبرياء بالإيذاء، أو العنف، أو الإذلال... ولهذا فالجهاد فرض على العربي/ المسلم درءاً للظلم والمفسدة، أو مقاومة للغزو والاستعمار... وإذا كان لا بد من قتال العدو فإن الإنسان مأمور بأن يكون قتاله دفعاً للشر والقتل، وليس سبيلاً للإيذاء لمجرد الإيذاء. وهذا ما تجسَّد في وصية الخليفة أبي بكر لجيش أسامة بن زيد حين توجه إلى قتال الروم، وفق ما أوردناه سابقاً، ونؤكده من جديد: " ياأيها الناس، قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني: لا تخونوا، ولا تُغْلُوا، ولا تغدروا، ولا تُمَثّلوا، ولا تقتّلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكله. وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له.. اندفعوا باسم الله"[1]. وما زالت فكرة الجهاد تكتسب فكراً متجدداً إلى أن وصلت إلى العصر الحديث في حروب الاستقلال فغدت مقاومة ومحاربة الاستعمار وكل أنماط الغزو، كفاحاً تحررياً بكل الأساليب المتاحة الأدبية والثقافية والفنية والسياسية والعسكرية والإعلامية... ولعل التشبث بالأرض والدفاع عنها وجه آخر من المقاومة كما نجده عند سميح القاسم في قصيدته (خطاب في سوق البطالة)، ومنها[2]:

ربما أفقد ـ ما شئت ـ معاشي

ربما أعرض للبيع... ثيابي وفراشي

ربما أعملُ حجّارا

وعتالا

وكنّاس شوارع!!

ربما أخدم... في سوح المصانع

يا عدو الشمس... لكن... لن أساوم

وإلى آخر نبض في عروقي... سأقاوم.

---

[1] جمهرة خطب العرب 187/1.

[2] الأعمال الكاملة ـ 1 / 91 ـ المجلد الأول ـ دار الجيل ـ بيروت ـ 1992م.

فكل نمط فكري وثقافي وفني مقاوم يجسد حقيقة الأرض المعطاء، وإخلاص الانتماء إليها على اعتبار العلاقة الجوهرية الفاعلة بين الأرض والوجود والمصير من جهة، وارتباط المقاومة الفردية والجماعية بالمجتمع وهوية الأمة وثقافتها من جهة ثانية. لهذا يرى غسان كنفاني في كتابه (الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال 1948 ـ 1968م) أن "الشكل الثقافي في المقاومة تحت الاحتلال ليست ـ أبداً ـ أقل قيمة من المقاومة المسلحة ذاتها"[1].

وهو الشكل الثقافي المقاوم الذي أخذت تنتظم فيه المقاومة العربية في غير ما كان، حتى صار هناك ما يسمى بأدب المقاومة في العراق ولبنان، ما يذكرنا بأدب المقاومة في فلسطين.

وأياً ما تكن هذه النماذج الأدبية، قديمة وحديثة، أو أياً ما تكن قيمة الروايات التاريخية عن المقاومة في التراث العربي/ الإسلامي فإن ذلك كله يؤدي إلى معرفة التفريق بين الحق والباطل من جهة؛ وبين مفهوم المقاومة المشروعة ومفهوم العدوان الآثم على العرب من جهة أخرى. ثم إن ذلك كله يثبت أن فلسفة المقاومة في مكوناتها التاريخية الثقافة إنما تعتمد المنطق العقلي والموضوعي المرتبط بالروح المتوقدة والوثابة لتجسيد فكرة الحفاظ على الوجود... فالمقاومة في الثقافة العربية رؤية تؤصل الواجب في الحفاظ على الحقوق ومواجهة كل صنوف العدوان والاحتلال... أي إن فلسفة المقاومة في الثقافة العربية تحقق جدواها من تكامل الخصائص الروحية والعقلية للوظائف التي تشتمل عليها هذه الثقافة قديماً وحديثاً، ومن ثم تصبح المقاومة بكل حيثياتها وأشكالها حقيقة لا يمارى فيها، ولا غنى عنها بوصفها حقيقة ثابتة في الوجود والحياة.

وهذا ما يدفعنا إلى الحديث عن فلسفة البُعْد الوطني من دون أن نتغافل عن أنماط المقاومة الكثيرة مادياً ومعنوياً وإنشاء إعلام مقاوم متمرس بالمعرفة وخبير بالتقنيات ومجبول بالثوابت الوطنية والقومية البعيدة عن كل أشكال

---

[1] انظر الآثار الكاملة ـ ص 203 ـ الدراسات ـ 1968م.

الخنوع والاستسلام لإبراز حقيقة المقاومة.

4 ـ البعد الوطني ـ القومي ـ الحضاري: اتضح لنا أن الفكر المقاوم عند العرب والمسلمين لم يكن نتاج فعل غريزي وعاطفي واجتماعي وتاريخي... ولم يكن اعتداء على هوية الآخر وثقافته ووطنه /محله الذي ولد فيه ونشأ وإليه انتسب، وإنما هو نتاج فِعْل إرادي عقلي حضاري يستحضره العربي بمقتضى الحاجة إليه حفاظاً على الذات والوطن، أياً كانت أشكاله سلمية أم مسلحة، وهو ما رسخته تجارب الأمم على تعدد انتماءاتها[1] في كل شكل واتجاه أن المقاومة ظاهرة إنسانية ترتقي على الدوام إلى الدفاع عن حقوق الإنسان المدنية والسياسية، الاجتماعية والثقافية؛ الخلقية والدينية... أي إن المقاومة ظاهرة ترفض العبودية والاستغلال؛ والتبعية والاسترقاق؛ والاعتداء على هوية الآخر وحياته... ومن ثم فإنها تحافظ على الروح الوطنية والقومية والإنسانية وإن انتهك المحتل قدسيتها؛ وارتكب أفظع الآثام بحقها... وهي ـ كذلك ـ تنبثق من الإيمان المقدس بالحرية وسيادة الإنسان والأوطان؛ ما يجعلها ترفض الاضطهاد والقهر؛ وأي نمط من أنماط السادية القاهرة...

وبناء على هذا الوعي فإن البعد الوطني/ القومي/ الإنساني يغدو صوت الضمير المقاوم لحماية الحق، وروح النية الصادقة في التحرر من الخوف والجبن؛ والإرهاب والقتل والعنف الأسود... ومن ثم لا غرابة أن تكون كل أشكال المقاومة متطابقة مع القانون الدولي... ولا مراء ـ كذلك ـ أن نقول: إن مفهوم المقاومة بهذه الفلسفة كان يرتقي دائماً عند العرب منذ القديم، وهم مَنْ قدّس التعاليم الخيرة والإنسانية الفاضلة، وأضافوا إليها نكهة ثقافية فكرية لا نظير لها في التاريخ البشري، سواء أكان ذلك في المقاومة الإيجابية أم السلبية، السياسية السلمية أم العسكرية والمادية. ولا شيء أدل على هذا كله من مقاومة الرسول الكريم لمشركي قريش، وصبره عليهم في (الطائف)

---

[1] انظر ـ مثلاً ـ كتاب (المقاومة الشعبية في الشرق) إذ تناول فيه عدد من الباحثين جيش التحرير في صدر الإسلام 22، والمقاومة في مصر 32 ــ 84 والمقاومة الفدائية فيها 85 ــ 154 والمقاومة السورية 155 ــ 170 والمقاومة في الهند 171 ـ 188 وأندونيسيا 189 ـ 198 وليبيا 199 ـ 203 والجزائر 204 ـ 223 والصين 224 ـ 237.

و(مكـة) وصـولاً إلى (صـلح الحديبيـة) و(فـتح مكـة)... ونحـو هـذا مـا قـام بـه الخلفاء بعده في العهد الراشدي والأموي والعباسي إبان الفتوحات العربية لبلاد فـارس ومـا وراءهـا. وهنـا نشـير إلى مـا جـرى في فـتح (قتيبـة بـن مسـلم بـن عمـرو الباهلي ـ 49 ـ 96هـ/ 669 ـ 715م)[1] لسمرقند وبخارى أيام الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك بـن مـروان.. وحكايـة خـروج الجـيش مـن سمرقنـد مشـهورة. وكـان قتيبـة قـد فتحهـا دون أن يعـرض علـى أهلـها مـا يفرضـه عليـه دينـه الإسلامي، فخـرج الجيش بنـاء علـى فتوى القاضـي الإسلامي، مـا جعل أهلها يتقبلون الدين بكل محبة ورضا، ويصبحون دعـاة فيـه لنشـره بـين النـاس. ولعل ذلك كله يثبت أن فكـرة المقاومة في إطارهـا الوطني والإنساني الحضاري عند العـرب والمسـلمين تسـتند إلى مفـاهيم روحيـة وأخلاقيـة وإنسـانية لتحقيـق حريـة كـل فـرد مـنهم في الوقـت الـذي تحفـظ وجـود الآخـر وتمتنـع مـن أن تنـال مـن سيادته واستقلاله؛ ما يجعلنا نفهم شيوع كلمة (السلام) بينهم وبين من يتلقونه عـدواً كـان أم صـديقاً، إذ يسـتقبلونه بهـا صـديقاً كـان أم عـدواً، مـا يعـني أن السلام الذي نشير إليه يختلف عن مفهوم خيـار السـلام الـذي انحـاز إليـه العـرب في العصـر الحـديث بوصـفهم الطـرف الأضـعف في معادلـة الصـراع العربـي ــ الصـهيوني... وهنـا يتركـز الكـلام علـى فلسـفة المقاومـة في بعـدها الـوطني/ القومي من خلال وقـائع الأحـداث المعاصـرة الـتي انحرفـت عـن السـياق الطبيعـي للمقاومـة السـلمية الحقيقيـة وبخاصـة حـين دخلـت في مفـاهيم الاستسـلام الـتي اغتالت كل المعطيات الإيجابية للمقاومة؛ وهي المفاهيم التي عمقت في النفوس المرتابة ثقافة التطبيع، وإقامة الندوات والمؤتمرات بين المثقفين العرب والصهاينة بحجـة اسـتلهام مبـادئ الحريـة والديمقراطيـة والانفتـاح علـى العـدو لتحقيـق السلام[2].

فاللجوء إلى الطرائق السلمية في مواجهة الاستعمار القديم والحديث قديمة عند العرب؛ وربما سبقوا فيها غيرهم... ومازالت أشكالها تتجدد لدى الأمم إلى

---

[1] انظر الأعلام 189/5 وانظر ما يأتي 212.

[2] انظر الفصل الرابع (ثقافة المقاومة بين السلام والاستسلام).

أن يرث الله الأرض ومن عليها. ولهذا فإن مقاومة العدو الصهيوني العنصري الاستيطاني لا يتم بالتلاعب على الشرعية الدولية أو القفز فوق القانون الدولي الذي نحتاج إلى التشبث به وبالاتفاقيات والمواثيق الدولية؛ واعتمادها في المحافل الدولية بوصفها أشكالاً سلمية للمقاومة... وإنما يتم بها وبأشكال أخرى تُبْتكر، وتضاف إلى غيرها مما يفرض علينا استنفاد كل الطاقات والوسائل، واستثمار تقنيات الإعلام المتطورة، وتوفير قوة الاقتصاد الجبارة والمتنوعة... ثم اللجوء إلى المقاومة المسلحة إذا فُرض الأمر على الأمة بعد الإعداد المطلوب.

ولا نغالي في الحكم إذا قلنا: إن أي شكل من أشكال المقاومة إنما ينبثق من بُعْده الوطني/ القومي الذي يوفِّر الانفتاح على الآخر وثقافته؛ بما يوصل العرب إلى درجة القيمة الحضارية المطلوبة التي ترفض الكراهية؛ وتقاوم إهدار الكرامة الإنسانية، وحينما يروم المقاوم هذه الأشكال في حياته وحياة وطنه وأمته يوظف كل قدراته للتكامل مع المقاومين وطنياً أو قومياً؛ لصناعة الوعد بالنصر...

ولذا ظل هذا البعد يتعمق ويرتقي في النفس العربية، وبخاصة حين جذّر العصر الحديث والمعاصر ارتباط العربي بوطنه وأمته وقيمها، وهو ارتباط منفتح على الكون الإنساني دون أن نستثني بلداً عربياً؛ وهو العصر الذي أكد ـ أيضاً ـ إصرار الغرب على استعمار الوطن العربي وتجزئته، كما يثبته الفكر الغربي منذ مطلع القرن العشرين، وهو الفكر الذي أسس لمشروع الشرق الأوسط الذي عرف على نحو واضح في المخططات التي أُعدّت للوطن العربي. فالضابط البحري الأمريكي، والإنكليزي الأصل، (ألفرد ماهان) وضع نظريته الجيوستراتيجية عام (1902م) وأكد فيها (تأثير القوة البحرية في التاريخ) ولا سيما في (الشرق الأوسط) وهو المصطلح الدال على ذاته، وكان (ماهان) أول من استعمله بهذا الوصف في هذه النظرية. ولمّا قوّى الرئيس الأمريكي (روزفلت) عام (1903م) نظريته التوسعية في الوطن العربي لم يشر إلى المصطلح المذكور حين قال: "أيها الأمريكيون احملوا عصا غليظة وسيروا

بعيداً من أجل أمركة العالم"[1].

ثم بدأ تعميم مصطلح (الشرق الأوسط) الذي يختص بدول المنطقة بما فيها الوطن العربي مع النشاط الصهيوني الساعي إلى إقامة الدولة اليهودية اللقيطة على أرض فلسطين وتقسيم أبناء العروبة إلى شعوب متباينة الأنظمة والمذاهب. ثم انتقل المصطلح إلى الدراسة العلمية فأصدر (هاملتون) سنة (1909م) كتابه بعنوان (مشاكل الشرق الأوسط).

ولا ننسى أن الزعيم الصهيوني (تيودورهرتزل) قد تحدث كثيراً عن الشرق الأوسط الذي تكون فيه الدولة اليهودية المزعومة قائدة فيه[2].

ثم استجابت المخططات الأوربية لكل تطلعات الفكر الغربي الاستعماري التي تعمل على مواجهة المشروع القومي العربي النهضوي وفي طليعتها ما عرف بوثيقة (بنرمان) الصادرة سنة (1907م)عن اللجنة الأوربية الاستعمارية المعروفة باسم (كامبل بنرمان) رئيس وزراء بريطانيا (1905- 1908م). والمشكلة من سبع دول أوربية. وهي قمة المخططات الأوربية ـ آنذاك ـ إلى تحقيق السيطرة على الأرض العربية ، دون أن ننسى لحظة واحدة الأطماع السابقة لأوربا في مشرق الوطن العربي ومغربه منذ القرن التاسع عشر. ولعل كتاب (صفحات من الجهاد والكفاح المغربي) قد أرخ لذلك كله فأغنانا عن تكراره[3]. وقد وضعت تلك اللجنة وثيقتها التاريخية المرعبة التي رسمت السياسة الاستعمارية للوطن العربي وتفتيته؛ وأكدت هذه الوثيقة أن الوحدة العربية؛ ـ إذا استمر الوعي القومي لدى العرب بالارتقاء كما هو عليه في القرن التاسع عشر ستتحقق حتماً ، علماً بأن إعلان (آيزنهاور) في (آب 1958م) جاء رداً على الوحدة السورية المصرية. ويمكن أن نثبت أبرز ما جاء في وثيقة (بنرمان)؛ ومنه:

---

[1] انظر العرب وتحديات الشرق الأوسط الكبير 31-53 و 40، و(الشرق أوسطية من المصطلح إلى المشروع السياسي) ـ مجلة المعلم العربي ـ وزارة التربية ـ دمشق ـ العدد (1+2) السنة 58 ـ لعام 2005م ـ ص 7 ـ 14.

[2] انظر العرب وتحديات الشرق الأوسط الكبير 39- 42 و(الشرق أوسطية من المصطلح إلى المشروع السياسي) ـ مجلة المعلم العربي ـ وزارة التربية ـ دمشق ـ العدد (1+2) السنة 58 ـ لعام 2005م ـ ص 7 ـ 14.

[3] انظر صفحات من الجهاد والكفاح المغربي ضد الاستعمار ـ ص 20 ـ 46.

"في هذه البقعة الشاسعة يعيش شعب واحد تتوفر له من وحدة تاريخه ودينه ووحدة لسانه وآماله كل مقومات المجتمع والترابط والاتحاد، وتتوفر له في نزعاته التحررية وفي ثرواته الطبيعية، ومن كثرة تناسله كل أسباب القوة والتحرر والنهوض... وإن خطراً على الاستعمار إذا توحدت الأمة وإذا تقدمت صناعياً"[1].

ويخلص تقرير اللجنة إلى ما يأتي:

1 ـ "على الدول ذات المصالح المشتركة أن تعمل على استمرار تجزئة هذه المنطقة وتأخرها وإقامة دويلات تابعة للدول الاستعمارية.

2 ـ وإبقاء شعبها على ما هو عليه من تأخر وجهل وضعف.

3 ـ ضرورة العمل على فصل الجزء الأفريقي في هذه المنطقة عن الجزء الآسيوي، وتقترح اللجنة لذلك إقامة حاجز بشري قوي غريب يتمتع بالقوة على المنطقة، يحتل الجسر البري الذي يربط أوروبا بالعالم القديم، ويربطها معاً بالبحر الأبيض المتوسط، بحيث يشكل في هذه المنطقة وعلى مقربة من قناة السويس قوة صديقة للاستعمار وعدوة لسكان المنطقة".

4 ـ منع قيام اتحاد روحي أو ثقافي أو تاريخي بين أبناء المنطقة ومحاربة أي شكل من أشكال الوحدة.

إذاً، ركزت هذه اللجنة على بنود أساسية لتنفيذ أهداف الدول الأوربية، وفي طليعتها إيجاد أنظمة سياسية متجاورة متباينة في نظام الحكم، وإشاعة الفرقة الطائفية والمذهبية بين الشعب العربي وإشاعة الخوف من العرب والمسلمين[2]، والعمل على تدمير اللغة العربية. ثم اتخذت الوسائل الكفيلة بتنفيذ ذلك من قِبَل الدوائر الغربية.

ولا مراء لدينا في أن العرب استشعروا خطط الدول الأوربية للانقضاض على الخلافة العثمانية، فاتفق هذا الأمر مع رغبتهم في الخلاص من سيطرة

---

[1] انظر سورية الاستهداف والمؤامرة 52 ـ 53.

[2] انظر ظاهرة الإسلاموفوبيا ـ قراءة تحليلية ـ ص 47.

العثمانيين بعد مقاومة طويلة لمظالم الانكشارية واستبداد جمال باشا السفاح، وإقدامه على إعدام المناضلين العرب في (1916/5/6م)... ولذلك انتفضوا على الجيش العثماني في الوقت الذي كانت مخاوفهم تزداد من الدول الأوربية ولاسيما بعد إعلان اتفاقية سايكس بيكو (1916/5/16م) ثم وعد بلفور (1917/11/2م). وقد صدقت مخاوفهم حين دخل الاحتلال الأوربي للوطن العربي تنفيذاً لتلك الاتفاقية وغيرها كالاحتلال الفرنسي لسورية ولبنان الذي بدأ باحتلال الساحل 1918م واستكمل مهماته في عام (1920م). بفك الارتباط العضوي بينهما وفق اتفاقية (سان ريمو) بإيطاليا في (5/5 /1920) ثم أصدر المفوض السامي الفرنسي قانوناً آخر يقضي بتشكيل دولة مستقلة في الساحل منفصلة عن سورية ما أغضب الشعب فقام بمقاومته وثوراته المتعددة ونادى باتحاد لبنان وسورية؛ كما يستشف من الشعر الآتي:[1]

طغت فرنسا فصبّت سوط نقمتها — في اللاذقية حتى صار بركانا

ما كان أغناكِ عنا لو فقهتِ إلى — فرض انتدابكِ عدواناً وأغنانا

حاولت عزل سوريا وهل فصلت — عنها العروبة سوريا ولبنانا

وإذا كان الشعب العربي السوري قد واجه الاحتلال الفرنسي بالمقاومة المسلحة في معركة ميسلون (1920/7/24م)... ثم تتابعت هذه المقاومة في الوقت الذي ترافقت مع المقاومة السلمية مثل (العصيان المدني، والإضرابات العامة، والمقاومة بالكلمة الأدبية والإعلامية...)... فإن الشعب العربي كله أكد روح المقاومة الوطنية والقومية من الشمال إلى الجنوب ومن الغرب إلى الشرق وعبر عن جوهر الحقيقة الناصعة في مقاومة المحتل الأوربي الذي حلّ محل الحاكم العثماني... فهو لم يتهاون مع كليهما، كما أنه لم يتردد في مواجهة المتخاذلين وفضح جبنهم وترددهم وبالمقابل استمرت الإجراءات الفرنسية بقطع أوصال سورية ولبنان[2]، وبخاصة بعد وضع دستور طائفي مذهبي للبنان عام

[1] جريدة الوحدوي ـ دمشق ـ تاريخ 2007/4/15م/ العدد 249.
[2] انظر بذور الفتنة الطائفية في لبنان 72 ـ 76.

(1923م). ولم تكتف بذلك هي وغيرها من الدول الاستعمارية الأوربية بل سارعت إلى خلق أزمات لكل بلد مع الآخر، فألحقت (إسكندرونة) بتركيا عام (1939م) كما ألحقت بريطانيا (عربستان) بإيران، ثم خلقت مشكلات عرقية هنا وهناك لتظل النزاعات بين دول المنطقة متأججة. أما وزير المستعمرات البريطاني (ونستون تشرشل) فقد أنشأ في آذار (1921م) إدارة خاصة للشرق الأوسط مهمتها الإشراف الدائم على تنفيذ مفهوم (الشرق الأوسط) وتجسيده على أرض الواقع، وقد أوكل إلى هذه الإدارة مهمة الإشراف على شؤون (فلسطين والأردن والعراق). ومن ثم أنشئ في الحرب العالمية الثانية (قيادة الشرق الأوسط) ثم حددت ملامحه الإقليمية التي تعزز ضم الدولة الصهيونية اللقيطة إليه، ويضم (تركيا وقبرص وإيران والبحرين والكويت والعراق وسورية والأردن والإمارات واليمن) وفق (دائرة معارف العالم الأمريكية)، علماً بأن كل ما أشرنا إليه لا ينسينا ذكر مبدأ (ترومان) الذي ظهر عام (1947م) والتوجه الأمريكي لتوسيعه في (1949/1/20م)[1].

ولما انتهت الحرب العالمية الثانية وانتهى إرهاب الدول الأوربية استمر إرهاب الكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة عام (1948م) وهو الإرهاب القديم المتأصل في ذاته وأدبياته والمدعوم من غربياً وأمريكياً كما هو معروف للجميع. ولعل الأحداث التي وقعت في المنطقة قد وفَّرت الظروف المناسبة لتنفيذ (مشروع الشرق الأوسط) وفق الرؤية الأوربية والأمريكية والصهيونية، مثل الحرب العراقية ـ الإيرانية عام (1980م) وحرب الخليج الثانية وتدمير العراق عام (1991م) وانعقاد مؤتمر السلام في مدريد (10/30 ـ 1991/11/2م)، وعقد اتفاقية أوسلو في (1993/9/13م). فإذا أضفنا إليها انهيار الاتحاد السوفييتي الداعم للقضايا العربية تأكد لنا أن تنفيذ ذلك المشروع آخذ في التحقق[2].

وهاهو ذا الجيش الأمريكي يحتل بغداد في (2003/4/9م) ثم قام المحتل

---

[1] انظر الشرق أوسطية من المصطلح إلى المشروع السياسي ـ د. مجيدة بدور ـ ص 9 -11.
[2] انظر الشرق أوسطية من المصطلح إلى المشروع السياسي ـ د. مجيدة بدور ـ ص 9 -11.

الأمريكــي بإشــراف (بريمــر) بوضــع دســتور إثــني عرقــي طــائفي مــذهبي ليســتكمل عناصــر الســيطرة علــى العــراق بعــد أن زرع الفتنــة والفوضــى في الصومال والسودان...

لـذلك كلـه فُرضـت المقاومـة الوطنيـة والقوميـة علـى أبنـاء الأمـة العربيـة الشـرفاء؛ مـا يعـني أن المقاومـة فـرض عـين علـيهم جميعـاً مـن أجـل الحريـة والكرامـة، أيـاً كـانوا فقـراء أم أغنيـاء، مـا دامـوا يحققـون شـرط الانتمـاء الأصيل الذي ينعم أهله فيه بوطنهم وبلادهـم بـالأمن والأمـان والسـعادة. وحينمـا سيطر تحالف الدوائر الصهيو/ أمريكية علـى جـزء مـن الأرض العربيـة، ونـال مـن سـيادة الشـعب العربـي أينمـا كانـت أقطـاره؛ فقـد صـممت قـوى هـذه الـدوائر علـى منـع نهوضـه، وإعاقـة تحقيـق مشـروعه العروبـي النهضـوي... فشـنت العـدوان تلـو الآخـر علـى أرضـه، وارتكبـت فيهـا المجـازر الوحشـية؛ واخترقت كـل قـيم الحـق والقـانون الـدولي... لـذا كـان علـى الشـعب العربـي وأنظمتـه الوطنيـة مقاومـة كـل أشـكال العـدوان الجديـدة، وهـي أشـكال لا تكتفي باحتلال الأرض وسرقة خيراتها؛ وإنما تعتمد منهج محـو الهويـة الوطنيـة والقوميــة؛ وممارســة الإرهــاب الهمجــي المــدروس، وطرائــق الترويــع المرعبــة كالإبادة الجماعية، لتحقيق الهيمنة على الأرض والإنسان... لذا كانت المقاومة حاجة ضرورية للحفـاظ علـى الحريـة والسـيادة؛ ومواجهـة كـل صـنوف الإرهـاب والاعتداء والعنف، والتشويه، والتضليل، مستندة في ذلك إلى مـا توصلت إليـه اللجنة التي شكلتها الجمعية العامة للأمم المتحدة عام (1972م) والـتي نجحـت في بيـان أسـباب ظـاهرة الإرهـاب عـام (1989م) ـ وبخاصـة السياسـية ـ ومنهـا: "الاسـتعمار والتشـبث بالسـيطرة الاسـتعمارية، وإنكـار حـق الشـعوب في تقريـر المصـير، العنصـرية والتمييـز العنصـري والفصـل العنصـري، حـروب الإبـادة الجماعيـة والحـرب العدوانيـة، اسـتخدام القـوة وانتهـاك السـيادة والاسـتقلال والوحدة الإقليمية للدول، احتلال أراضي الغير والهيمنـة علـى الشـعوب والتـدخل في الشؤون الداخلية للـدول، اسـتخدام الإرهـاب للسـيطرة علـى الشـعوب وإجبـار السكان على النزوح،...."

وهذا يفرض علينا تكثيف الكلام على المقاومة بوصفها حرية وسيادة.

2 ـ المقاومة حرية وسيادة وكرامة:

لعل أبرز ما يميز الفكر المقاوم، ويحقق الجدوى الخيرة منه أنه ما وضع إلا لحرية الإنسان وتحقيق كرامته واستقلاله ليكون في وطنه سيداً وسعيداً، منتجاً وبانياً، وفق مفهوم الحق والخير والجمال، وتطبيق مبادئ الكفاءة والقانون. ولن يتحقق له ذلك إلا إذا كانت لديه إرادة قوية تقف في ساحة المعركة صامدة للقضاء على كل ما يمكن أن يهدد الوجود الحر الكريم والهوية الذاتية الأصيلة. وحينما يخفت صوت المقاومة رسمياً وشعبياً فهذا يعني أن الفكر الدافع للمقاومة قد خفت في تأجيج العقول وتذكية المشاعر، ولم يعد قادراً على مجابهة صلف الغدر والظلم والخبث والقتل، والاستعباد والاستعلاء، والعَوَز والفقر، والاحتلال والتهجير، والتدمير. لهذا تصبح المقاومة في سبيل ذلك ذات اتجاهات سلبية وغير فاعلة على الصعيدين الداخلي والخارجي، الفردي والجماعي بعكس ما ينبغي أن تكون عليه حال الأمم والأفراد. ولعل الفطرة السليمة لارتباط المقاومة بالحرية والكرامة تذكرنا بحادثة الفارسي العبسي (عنترة بن شداد ـ ت 22 ق.هـ/ 600م) [1] المشهورة مع أبيه، إذ كان عبداً ذليلاً في قبيلته حتى أتاها غزو خارجي، فما أبه عنترة العبد المظلوم لما جرى لها لأن العبد لا يحسن إلا الحَلْب والصَّر، فاستنجده أبوه وقال له قولته المشهورة: كر وأنت حر، فكرَّ منتصراً لحريته ودافعاً الأذى عن قبيلته.

وتتجسد مقاومة الفساد والظلم، والاستبداد ومقارعة الغزو الخارجي لاحتلال الأرض وقهر الإنسان بكل أسلوب يتاح للإنسان ابتداء بالأسلوب الفردي والجماهيري الشعبي المادي وانتهاء بالأساليب السياسية والثقافية والأدبية والفنية والإعلامية و.. ويُصبح كل نمط فيها مشروعاً وفق مختلف الشرائع والقوانين الدولية. وهذا ما أكده قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة

(1) انظر الأعلام 91/5.

رقم (3314) تاريخ (1974م) الذي سبق ذكره[1]، والذي شرّع ـ فيما شرع ـ حق الشعوب بالكفاح المسلح من أجل نيل الحرية والاستقلال وحق تقرير المصير. ثم وافقت الأمم المتحدة في (1981/12/9م) على الإعلان الخاص بعدم جواز غزو أراضي الغير والتدخل في الشؤون الداخلية للدول الأخرى... ما يثبت أن مقاومة أي اعتداء على الحرية الشخصية وسيادة الدول إنما هي مقاومة قانونية مشروعة للحفاظ عليهما... فالجدوى الحقيقية للمقاومة إنما تؤصل الفكر الثقافي السياسي الذي يرفض الاحتلال والعدوان ويعزز الحرية والكرامة... ونرى أن مقاومة الاحتلال بكل الأشكال المتاحة للشعوب وما تحقق على الصعيدين الوطني والقومي يثبتان أن العرب لم يخرجوا من التاريخ، في الوقت الذي أثبتنا كذب نبوءة بعض الباحثين الغربيين التي أصرت على مفهوم تفوق الجنس الآري التي تلاقي نظرية أبناء (شعب الله المختار)، فالنظرة الغربية نظرة استعلائية عدوانية وعنصرية ولاسيما حين تبنت مفاهيم الاستشراق الاستعماري[2] وهي لا تختلف عمّا تتضمنه التوراة والتلمود الذي أنتج نمطاً من البشر العنصريين الذين لا يرعون حقاً ولا ميثاقاً للآخر، فمنهجهم العنف والحقد وسلوكهم القتل والتدمير، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذّبوا وفريقاً يقتلون﴾ (المائدة 181/5).

فاليهود على اعتبار زعمهم بأنهم (شعب الله المختار) جسّدوا الإله ممثلاً لأهوائهم كما ذكروه على لسانه ـ سبحانه ـ في التوراة: "إن امتثلتم أوامري وحفظتم عهدي فإنكم تكونون لي خاصة من جميع الشعوب"[3].

ومن ثم وجدنا (فرنسيس فوكوياما) يكتب كتابه المشهور (نهاية التاريخ والإنسان الأخير)[4]، وفق تميّز الإنسان الغربي وكأنه صادر عن مشكلة العنصرية نفسها؛ ونحو ذلك موجود في كتاب (صدام الحضارات) لصموئيل هنتنغتون الذي أعلن فيه هزيمة الحضارة العربية، وكلاهما يرى أن ثقافة

---

[1] راجع ما تقدم 28 وانظر ما يأتي 165.
[2] انظر مشروع القومية العربية إلى أين 87 ـ 95.
[3] سفر الخروج ـ الإصحاح 19 ـ آية 5-6.
[4] نشر في مركز الإنماء العربي ببيروت مترجماً سنة (1993م).

العولمة /الأمركة التي تقودها أمريكا قد غدت المنتصرة على غيرها[1].

وبناء على ما تقدم فإن الإدارة الأمريكية بقيادة جورج بوش الابن سعت جاهدة إلى تزييف مقاومة الشعب العربي ونعتها بالإرهاب والعنف؛ ونعت أصحابها بالمارقين والمتمردين والإرهابيين الذين يهددون السلم الأهلي والبشري سواء كان ذلك في فلسطين أم لبنان أم العراق والسودان؛ بيد أن المقاومة الوطنية في لبنان وفلسطين والعراق قد أكدت جوهر مصطلح (المقاومة) بوصفه مجابهة جوهرية وأخلاقية على الصعيد الذاتي والوطني والإنساني لكل محتلٍّ غريب للأرض والإنسان. فهو مصطلح يحتفي بالمثل والحرية والكرامة على عكس ما أرادت له الإدارة الأمريكية برئاسة بوش الابن، والصهيونية العالمية، والدوائر الاستعمارية التي طفقت تعمل على تشويه هذا المصطلح وإلباسه لبوس الغموض والتناقض. فقد جهدت في تغيير دلالته النفسية والاجتماعية والفكرية التاريخية والمعاصرة وفق ما عرفه العرب... لقد مارست خططها المنهجية والاستراتيجية لتشويه المصطلحات العديدة للحركات الوطنية والنضالية بدءاً من مصطلح الإرهاب والتضحية وانتهاء بمفهوم الجهاد والاستشهاد، وما ناظرهما من مفاهيم الكفاح والنضال والممانعة والصمود والتصدي والفداء و.. لهذا فالإدارات الأميركية جميعاً عملت جاهدة على دعم كل الأشكال الاستعمارية؛ إمبريالية واستيطانية، ثقافية وسياسية، اجتماعية واقتصادية، علمية وإعلامية، وتقنية لجعل الفعل المقاوم عن الوجود والحرية إرهاباً في وجه المحتل وقريناً للقتل.

فالإدارات الأميركية المتصهينة ما زالت منذ مطلع الألف الثالثة تقيم المؤتمرات والندوات وتشن الحملات الإعلامية لتزييف حقيقة مصطلح (المقاومة) وعدد من المصطلحات العربية، وتحميلها ـ ظلماً ـ الدلالة المعنوية لفلسفة الغرب التي تتركز حول العنف والقتل والاعتداء على الأبرياء. وهذا ما حدا بها إلى تعميق صلة المقاومة الوطنية بالقتل والاعتداء بعد أحداث (11/

---

[1] انظر ترجمته للسيد طلعت الشايب ـ بيروت ـ ط 2 ـ 1999م، وراجع حديثنا عن ذلك في كتابنا (مشروع القومية العربية إلى أين 96 ـ 102).

أيلول/2001م)؛ ومن ثم ربطت بين مصطلح (الإرهاب) بدلالته الغربية وبين مصطلح (المقاومة)[1] فشوّهت قيمتهما الإنسانية الشريفة، مستغلة القوة الإعلامية الجبارة وتقنياتها شرقاً وغرباً لغسل الأدمغة التي تربت على مفاهيم التحرر الوطني والقومي ثقافياً وحضارياً. وكانت إدارة بوش الابن تشوه مصطلح المقاومة وفق شعارات مزيفة باسم الديمقراطية والحرية، واستغلال الشرعية الدولية وحقوق الإنسان، وبخاصة حين قررت الدخول إلى صميم النسيج الاجتماعي والثقافي للشعب العربي لإقناعه بخطر المقاومة عليه باعثة في نفسه الشك نحوها[2].

وكانت تجيّش جيوشها لغزو أي بلد عربي أو مسلم في الوقت الذي تجيش الإعلام والفضائيات وتزودها بأخبار ملفقة لاستدرار عطف العالم، وجذب أبنائه للوقوف في صفها، وهو ما يتوافق مع الأجندة الصهيونية التي نهجت سياسة معادة العالم للعرب والمسلمين وتصوير نضالهم الوطني والقومي اعتداء على الآخر الصهيوني.

فالإدارات الأمريكية ــ وفي إطار تبنيها للأجندة الصهيونية ــ قرنت الإرهاب بالعرب والمسلمين بعد (9/11) فصوَّرت الفدائي والمجاهد والمقاوم منهم إرهابياً انتحارياً يعتدي على الآخرين؛ وإن كانوا محتلين لأرضه، وناهبين لثرواته، وقاهرين لحريته، أي إنه لا يجوز له قتالهم ومقاومتهم ـ بزعمها .. لهذا ركزت تلك الإدارة حربها في فلسطين والصومال والعراق والسودان ولبنان وأفغانستان على استئصال الإرهاب من هذه الدول ـ كما تزعم ..

ولعل أعظم ما يؤيد هذا ما ذهب إليه الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن إبان مواجهة المقاومة الوطنية اللبنانية للعدوان الوحشي الصهيوني على لبنان عام (2006م) حين صرَّح بأن الإسلاميين فاشستيون منحرفون وغير أسوياء، متجاهلاً ما يقوم به الكيان الصهيوني من تصرفات همجية لا نظير لها في التاريخ. ولكن من ينظر إلى المقاومة اللبنانية والفلسطينية بحياد ونزاهة فإنه

---

[1] انظر الموسوعة الفلسطينية 183/1 ـ 192 وانظر ما يأتي 168.

[2] انظر كتابنا: مشروع القومية العربية إلى أين 138-146).

يـدرك أنهـا كانـت تتسـامى علـى منطـق التحريـف والتشـويه والاستسـلام والتخوين... كونها أسقطت من حساباتها كل مفاهيم الخلط المشوّهة والمزيفة لمصطلح المقاومة. فالمقاوم إنسان واع عاقل عارف بما يفعل وما يريد ، ومدرك لما يملكه عدوه الذي احتل الأرض واغتصب العرض، ونهب الثروات باسم التحضر والتمدن وإشاعة الحرية.

وبهذا كله فالمقاومة ليست تخلفاً واعتداء على الآخر مهما ابتليت الأمة بعدد من أبنائها الذين عانوا من انحراف العقل والنفس فانتهوا إلى التفكير اليائس والبائس والعاجز عن التفريق بين الحياة الكريمة والخنوع الذليل؛ ومن ثم خلطوا بين المقاومة وبين العنف والقتل، والاعتداء على الأبرياء...

فإذا كان الشر جِبِلَّة لبعض النفوس الآدمية فإننا نجد أن عدداً من أرباب الدوائر الأمريكية خاصة والغربية عامة هم مَنْ يتصفون بكل صنوف الشر، لأنهم يمارسون كل فنون الكذب والتضليل والاعتداء على القرار العالمي حين يتبنون مفاهيم العنف والقتل المعروفة لدى الكيان الصهيوني خدمة لمصالحهم الذاتية. وكلنا يعرف أن الكيان الصهيوني في تعاليمه الفكرية والدينية يقوم على مبادئ القتل وإلغاء الآخر، لأنه مسكون تاريخياً ونفسياً بظلم الآخر وتعذيبه تعذيباً سادياً. فكل ما لدى هذا الكيان من سياسات ومبادئ لم تتسع إلا للقبح والكراهية، والكذب والافتراء، والخبث والدهاء في نسج المؤامرات والانقضاض على مبادئ الشرعية الدولية. فهو يمارس الإبادة الجماعية للشعب الفلسطيني، ويلتذ بتدمير الحجر والشجر بصورة شريرة لا نظير لها في التاريخ البشري دون أن يستطيع القانون الدولي معاقبته. ولعل وصول (أفيغدور ليبرمان) اليهودي المتشدد إلى الحكومة الصهيونية قد زاد الطين بلة وهو القائل:" إن تاريخنا يبرهن على أن الشعوب ذات الثقافة والديانة المختلفة لا يمكن أن تعيش مع بعضها البعض".

وهذا يعني أن (ليبرمان) ليس إلا رمزاً رديئاً آخر للحكومة الصهيونية التي لا تتورع عن قتل الشعب الفلسطيني.

وما يدعو إلى العجب أن أغلب دول العالم انبرى إلى عقد الندوات والمؤتمرات لوضع يده على ظاهرة القتل والعنف الشائعة في كثير من بقاعه،

وطفق يفتش عن سبب الإرهاب ودوافعه، وعن شيوع ظاهرة الكراهية في النفوس البشرية... وأطال البحث عن ذلك كله فما وجد إلا إجابة واحدة حاول أن يتناساها، وهي أن الكيان الصهيوني وإدارة بوش المحافظة هما من يخططان للقتل والكراهية وإشاعتهما بين الناس. فقد نجح كل منهما في جعل بعض المجموعات السكانية تقتل أخرى، إذ نرى أن قبيلة هناك تستأصل قبيلة هنا، وبلداً في الشرق يعادي الآخر في الغرب، ... لا لشيء إلا لأنهما ماضيان في تنفيذ ما يسمى مشروع الشرق الأوسط الجديد وفق سياسة أكاذيب مكشوفة وأوهام زائفة[1] لممارسة الفوضى البناءة التي اعتمداها لذلك. ثم أعلنت وزيرة الخارجية الأمريكية عن ولادته من القاهرة في بداية العدوان الصهيوني الوحشي على لبنان في (2006/7/12م). ومن ثم تمضي تلك المؤتمرات والندوات في توصيف ظاهرة القتل والإرهاب المنتشر في كل مكان ويجهد أصحابها في تمحيص الأفكار والآراء، وحينما تخلص تلك الجهود إلى تعريف للعنف والقتل والإرهاب، وتتبنى توصيات فاعلة ومهمة لقلع ظواهر الشر من العالم تنبري إدارة بوش المتصهينة لتمييع المسألة وتملأ العالم بالسجون بحجة مكافحة الإرهاب، فتراها تقذف إليها عدداً من أبناء الوطن العربي والعالم. ثم ترفض أن تطبق أياً من مفاهيم الإرهاب والقتل على جنودها الذين يرتكبون أشنع أنواع الجرائم بحق الإنسانية؛ كما رأيناه في العراق وأفغانستان. فهي تصدر القوانين الخاصة التي تجعلهم بمنأىً عن الملاحقة القضائية في بلادها وفي أي بلد آخر، لا يماثلها في هذا السلوك الإجرامي إلا الكيان الصهيوني.

ونحن نحس ونؤمن بأننا ننتمي إلى أمة ابتليت منذ وقت طويل بأنواع شتى من الاستعمار والاستعباد والظلم والقهر والعدوان منذ القديم، وأخيراً تركزت مجتمعة في أراضيها منذ مطلع القرن العشرين ابتداء بالاستعمار الأوروبي؛ الفرنسي البريطاني خاصة، ووصولاً إلى الاستعمار الصهيوني العنصري الاستيطاني المدعوم بآلة الفتك الأمريكية المتوحشة، وانتهاء بالاحتلال

---

[1] انظر المرجع السابق 7 – 12 – و35.

الأمريكي البريطاني للعراق، ما يعني أننا نعيش حالة من العدوان المنهجي الذي يمضي في القتل المستمر علينا، وحين ندافع عن أنفسنا نتهم بالإرهاب والعنف.

وإذا كنا قد عشنا حالة من الشعور بالعزة والكرامة إبان حرب الاستقلال، وشعرنا بالأمل في التحرر من التخلف والجهل والفقر على يد الحركات الثورية الوطنية والقومية، ولمسنا حالة الوعي بالحقيقة إبان انتصار تشرين أول/ أكتوبر لعام (1973م) ثم تجلّى نهوضاً نوعياً على يد المقاومة الوطنية في فلسطين ولبنان والعراق فإننا أيقنّا بأن الآخر المعتدي سواء كان صهيونياً أم غيره هو من يمارس كراهيته لنا وللبشرية والاعتداء على مبادئها الإنسانية والخلقية وسيادتها الوطنية.

فالصهاينة هم من احتلوا فلسطين؛ فقتلوا قسماً من أهلها وشردوا قسماً آخر، وزرعوا الدمار والشر والكراهية في جنبات الأرض مدعومين بالاستعمار الغربي بكل أشكاله وبإدارة أمريكية متصهينة ظالمة لذلك تراهم يرتكبون المجازر الجماعية الوحشية في أرضنا المحتلة بكل صلف، ودون مبالاة. وقد طفقوا يجربون مرة بعد مرة غزو لبنان/ المقاومة والشعب، ومارسوا شهوة القتل والإجرام والإبادة وتدمير البنى التحتية فما جنوا إلا الخيبة والهزيمة، وإن أشعلوا بين أبناء الوطن الواحد نار الفتنة. وهاهم أصحاب مشاريع الهيمنة القابعون في الدوائر الغربية ومن تبعها أو من حالفها من الصهاينة والعملاء يمارسون نزواتهم المريضة وشهواتهم الإجرامية بتنفيذ مخططات قتل بعض الشخصيات اللبنانية. وما يلفت الانتباه ويحير العقول أنهم يسارعون جميعاً إلى تجييش القنوات الفضائية وعملائهم لإسناد التهمة إلى سورية، التي تعدّ الخاسر الأكبر بمقتل أي قائد أو سياسي لبناني. فالإدارة الأمريكية الداعمة لذلك الكيان العنصري البغيض ـ والتي أمرت أساطيلها وطائراتها باحتلال أفغانستان والعراق؛ ومن قبلُ غزت الصومال وزرعت الفتنة بين أبناء السودان حتى نشب القتال بينهم ـ ما زالت تزرع بذور الفتنة في لبنان بقيادة سفيرها السابق (فيلتمان) لإيجاد شرخ دموي بين أبنائه، وتقف إلى جانب الشر الصهيوني بعد أن نجحت في وضع لبنان تحت الوصاية الدولية بقراري مجلس

الأمن (1559) و (1701).

إذاً، من يبذر الفتنة في الأرض العربية ويمعن في القتل للقتل، ويرتكب الإرهاب للإرهاب فإن الجواب قد بات واضحاً لكل حرّ وشريف في العالم. وقد عرفه كل عضو في مجلس الأمن حين رأى المهزلة الأمريكية وهي ترفع بكل وقاحة حق النقض يوم السبت (2006/11/11م) في وجه قرار عربي يُدين جرائم الكيان الصهيوني ومجازره في بيت حانون، ما جعل العالم يتقزز من موقف إدارة بوش، وسلوك سفيرها السابق (جون بولتون) في مجلس الأمن الذي عُدَّ السفير الثاني للكيان الصهيوني في هذا المجلس. حقاً لقد صدق القول على كل من الكيان الصهيوني وإدارة بوش: إذا لم تستح فاصنع ما شئت ما دام العالم عاجزاً عن ردّ ظلم أي منهما وإيقاف مجازرهما المنتشرة في كل مكان. ولا بد للدول والشعوب من أن تمارس حقها في المقاومة بوصفه حقاً مشروعاً وفق ما أشرنا إليه سابقاً ووفق ما نكثفه في القسم الآتي.

3 - المقاومة حق مشروع

عندما خلق الله الكون وقَدَّر كل شيء على مقتضى الحاجة إليه جعل الإنسان سيداً له وسخر الطبيعة بكل فيها لخدمته... وحين أدرك بعقله وحدسه الصائب أن التحولات في الوسط المحيط لا يمكنها أن تسيطر على الثوابت أيقن بأن مقاومة العنف والأذى والآثام بمختلف صنوفها تعبّر عن الروح الفطرية المعانقة للكرامة الإنسانية وللحق المقدس في الحياة. واستناداً إلى هذا الوعي نرى أن الشعوب والأمم قد مرّت في تحولات مدمرة، وخبرت الحروب التقليدية وغيرها، كما خبرت حروب الشوارع والحارات. وأيقنت بأن أي عدوان لا يمكنه أن ينال من سيادة الدول...

وإذا كان لبعض الحروب هدف محدد، وقواسم مشتركة قد تتقاطع مع أهداف المقاومة ووظائفها فإن المقاومة تظل ملتصقة بالحقوق الثابتة للإنسان على الصعيدين الشخصي والجمعي، وفي طليعتها الحريات العامة كحرية الاعتقاد والاختيار والرأي والتفكير والتعبير والنشر... وحرية تشكيل الجماعات وفق أُطر يتوافق عليها أبناء المجتمع، و.. ومازال الإنسان يتطلع إلى

حـق الأمـن والأمـان والعدالـة والمسـاواة؛ والحصـول علـى الحاجـات الضـرورية للكرامة الإنسانية في زمن بدأ الظلم يتعاظم في الكون. ومن ثم فإن قوانين الدنيا كلها أبرزت أن ممارسة أي حق تقتضي بالضرورة عدم الاعتداء على حق الآخر واستلابه بالقوة والعنف والإرهاب وإلا لا بد من مقاومة المعتدي الذي يستلب من الآخر حق الحياة وروح الكرامة. فالمقاومة فعل إرادي مشروع يدافع فيه المرء عن نفسه وعن أمواله وأهله ومن ينتمي إليهم في الوطن... إنه حق طبيعي وقانوني للإنسان والدول ضد العدوان والإرهاب والتسلط والقتل...

ومن ثم فإن ما تقدم بين أيدينا يوضح أن المقاومة شيء والعنف والإرهاب والقتل والإبادة والاحتلال بكل ضروبه شيء آخر؛ فالمقاومة حق مشروع للإنسان في إطار السنن الطبيعية والقوانين الوضعية؛ وهو ظاهرة تقدمية خلاّقة للحياة، مبدعة للتجدد... ولولا المقاومة والقوانين التي رعتها الدول الحضارية وطوّرتها وأنضجت مفاهيمها لساد الاضطهاد والظلم جنبات الحياة؛ والكون... وحين تتطور أشكال المقاومة بين السلمية والمسلحة؛ وبين الكلمة والموقف والفعل، وتتجاوز ردة الفعل المعتمدة على الانفعال تستطيع أن تتجاوز فكرة النمط السائد في المقاومة عند هذه الأمة أو تلك، وهو ما أدركه واضعو القوانين الدولية حين أكدوا الحدود الفارقة بين المقاومة وأشكال العنف والإرهاب. وإذا كانت الرؤى مختلفة بين الشرق والغرب قديماً وحديثاً، فما يراه الغرب ـ أحياناً ـ مقاومة في مكان ما يعده الشرق في المكان المقابل إرهاباً والعكس قد يكون صحيحاً ما يستدعي التوافق بين الدول والأمم على مفاهيم المقاومة، ومصطلحات الإرهاب ودلالاتها. فالاتفاقية العربية لمكافحة الإرهاب الصادرة في (نيسان 1998م) عن مجلس وزراء الداخلية والعدل العرب تنص في مادتيها الأولى والثانية على دعم المقاومة والتصدي للإرهاب والتفريق بينهما؛ فالإرهاب جريمة مدانة؛ والمقاومة بما فيها المقاومة المسلحة كفاح مشروع ضد الاحتلال الأجنبي وإرهابه... وهي تلزم الدول العربية بدعم حركة المقاومة العربية التي تواجه الاحتلال الصهيوني وجرائمه الإرهابية... إلا أن الحكومات العربية ذاتها انتهكت تلك الاتفاقية ولم تنفذها على حين رأت

الحكومات الغربية النأي بنفسها عن تحديد معنى الإرهاب بشكل دقيق.

ومهما كان رأي هؤلاء أو أولئك فالاحتلال الغربي للوطن العربي في القرن العشرين ـ مثلاً ـ كان عدواناً صريحاً على الحرية والسيادة الوطنية وإن ألبسه الغرب لباساً جميلاً حين أطلق عليه مصطلح (الانتداب) أو مصطلح (الاستعمار) وكأنه ما احتل الأرض العربية إلا ليقدم لها الخير؛ وليأخذ بيد الشعب العربي إلى النهوض والارتقاء... أما الواقع فقد كذّب أقواله. وكذلك نرى أن العنف مكروه ـ من دون جدل ـ وأداة ضغط على الآخر بخلاف العنف الثوري بوصفه طريقاً نضالياً للحصول على الحق، وليس لمجرد الانتقام والثأر كما كانت عليه بعض صوره عند العرب وغيرهم من الأمم القديمة والحديثة. فالعقل الفاعل يبدع التوازن في مقاومة العدوان الخارجي؛ويخرج من حالة الانجذاب لردة الفعل إلى فعل جوهري يبرز معنى المقاومة التي تخلق عناصرها المنطقية والمشروعية بين يديها بعيداً عن الإذعان والامتثال لرغبات شخصية أو جمعية وإن قامت بالعنف الضروري، أي إنها تكفل الحرية والسيادة بمثل ما تكفل حق الآخر بعدم الاعتداء عليه بالعنف إلا إذا فرضته الحاجة.

ولذا فإن ثقافة المقاومة بما تمثله من قيم وتطلع إلى مفهوم الحق المشروع للفرد والجماعة في الوجود الكريم والحرية المسؤولة تصبح مهمة إنسانية لا بد من حمايتها. فالثورة الفلسطينية ضد الاستعمار الاستيطاني الصهيوني حق مشروع ومقدس، ومصون في القوانين والمواثيق... وعلى فصائل المقاومة الشعبية إتباع كل أشكال المقاومة للوصول إلى ذلك الحق في الحرية وتقرير المصير وإقامة الدولة الفلسطينية من البحر إلى النهر وعاصمتها القدس... وإذا كانت المفاوضات أسلوباً سلمياً مقبولاً للوصول إلى الأهداف المنشودة فإن الاستسلام والخنوع خيانة له[1]...

فالاستسلام يدعو إلى الهزيمة والذل والهوان والتخلي عن الحق في نهاية المطاف...

([1]) انظر الفصل الرابع من هذا الكتاب.

وتظـل المقاومـة مرتبطـة بأهـدافها ووظائفهـا؛ بمثـل مـا تـرتبط بأدواتهـا وطبيعتهـا ومنهجهـا الواضـح والصـادق... والإرادة والـوعي والصـبر والصـمود والثبـات للحفـاظ علـى الدولـة وسـيادتها بوصـفها شـكلاً مـن أشـكال الدفاع المشروع؛ أياً كان النمط الذي تنفذه من الإعداد والاستعداد والتدريب إلى تـوفير مسـتلزمات المقاومـة المسـلحة الـتي تـؤدي إلى النصـر... فـالتفكير بالمقاومة لمجرد التفكير أو التغني بها وبماضي الأمة المجيد لن ينتج إلا المآسي والكوارث.

وأرى أن التاريخ الإنساني قَدَّم اعتزازه بالمقاومة بين يديه حين جعل المقاومة في المكانة الأعلى من القيم لدى الشعوب ما دامت مقهورة وأرضها محتلة... فالمقاومة خيار الشعوب والدول التي تتعرض للاعتداء أو العدوان؛ وهي تنطلق من صميم عَقْد اجتماعي نضالي تختاره لذاتها ، في الوقت الذي يستند هذا العقد إلى المواثيق الشرعية والدولية ، ونرى أن الأمم المتحدة ما نشأت، ولا اكتسبت شرعيتها الوجودية إلا لأنها صممت على مكافحة الاحتلال؛ والتصدي للحروب الظالمة بين الدول.. وقد أكدت الأمم المتحدة في مواثيقها المتعددة ومعاهداتها الكثيرة حق الدولة الوطنية في مقاومة من يعتدي عليها ، كما حدث في مقاومة أوربا للنازية الهتلرية؛ وكما يحصل في مقاومة الشعب العربي للاحتلال الصهيوني لفلسطين المحتلة؛ أو في مكافحة الشعب العربي للدوائر الصهيو/أمريكية السادرة في غيّها للسيطرة على الوطن العربي ودول المنطقة وسرقة مواردها...

ولا بأس في هذا المقام أن نثبت ما انتهى إليه (مركز التحرير للدراسات) في بيان شرعية المقاومة ضد الاحتلال في ظل القانون الدولي، اللهم إذا استثنينا النزاعات الأهلية التي لا تخضع لقانون. وقد "أثيرت هذه المسألة خلال القرن التاسع عشر عندما طرحت للنقاش في مؤتمر لاهاي عام 1899م، وإن كانت قرارات مؤتمر لاهاي لم تتطرق أصلاً إلى وجوب الطاعة إزاء السلطة المحتلة إلا أن الأنظمة الملحقة بالاتفاقية قد طرحت بعض الالتزامات على السكان تجاه السلطة المحتلة واستمرت النظرة إلى اعتبار المقاومة نوعاً من النزاعات غير المتصفة بالطابع الدولي.

استمر الجدل حتى منتصف القرن العشرين تقريباً عندما أعلنت اتفاقيات جنيف الأربع عام 1949م وحينها استقر القانون الدولي على اعتبار الاحتلال لا ينقل السيادة على الإقليم المحتل وإنما تظل السيادة لدولة الأصل ويقتصر أثر حالة الاحتلال على منع دولة الأصل صاحبة السيادة على الإقليم من ممارسة هذه السيادة على الإقليم المحتل بصورة مؤقتة.

فالاحتلال ما هو إلا حالة فعلية مؤقتة فهو وإن قطع مباشرة الدولة لاختصاصات السيادة على الجزء المحتل من إقليمها فإنه لا يُخول دولة الاحتلال نقل حقوق السيادة إليها وإنما تبقى هذه الحقوق محفوظة لدولة الأصل حتى ينتهي الاحتلال.

وعلى هذا الأساس لم يعد هناك ثمة أساس قانوني أو نظري يسوّغ الطاعة أو يجعل من مقاومة سكان الأرض المحتلة خرقاً لأية التزامات ومبادئ دولية.

ولمّا بحث الأمر في اتفاقيات جنيف لعام 1949م لم نجد نصاً يحول بين سكان الأرض المحتلة وحقهم في الثورة ضد سلطات الاحتلال بل على العكس يمكننا الاستنتاج أن الاتفاقية الثالثة من اتفاقيات جنيف والخاصة بمعاملة أسرى الحرب تجيز المقاومة الشعبية المسلحة ضد الاحتلال.

وقد أصدرت الأمم المتحدة ـ الجمعية العامة قرارات عدة أكدت فيها على حق الشعوب في الكفاح ومقاومة السلطات المستعمرة أو المحتلة أو تلك التي تمارس تفرقة عنصرية صارخة وإسباغ حماية أسرى الحرب على أفراد المقاومة الشعبية المسلحة وحركات التحرير الوطني" وفق الاتفاقيات الدولية المعروفة.

ولذا "سنبين حق المقاومة الذي ورد في الاتفاقيات الدولية اتفاقيات لاهاي لسنة 1899م و1907م واتفاقيات جنيف لعام 1949 وأهم القرارات الصادرة عن الأمم المتحدة:

أولاً: اتفاقيات مؤتمر لاهاي 1899 و1907

وصفت المادة الثانية من لائحة لاهاي لعام 1907 الشعب القائم أو المنتفض في وجه العدو بأنه: (مجموعة المواطنين من سكان الأراضي المحتلة الذين يحملون السلاح ويتقدمون إلى قتال العدو سواء أكان ذلك بأمر من حكومتهم أم بدافع من وطنيتهم أو واجبهم).

وأقرت المادة المذكورة كذلك بأن (هؤلاء المواطنين المقاتلين يعدون في حكم القوات النظامية وتنطبق عليهم صفة المحاربين لكن وجوب توافر شرطين فيهم الأول حمل السّلاح علناً والثاني التقيد بقوانين الحرب وأعرافها).

وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى جرى العرف على اعتبار القوات المتطوعة والشعب المنتفض بوجه العدو حركات مقاومة شعبية يستحق أفرادها حمل صفة المحاربين وقد سار الفقه الدولي في هذا الاتجاه.

ثانياً: اتفاقيات جنيف لعام 1949

عند البحث في موضوع حق المقاومة والثورة على سلطات الاحتلال في ضوء اتفاقيات جنيف لعام 1949 نجد أن الاتفاقية الثالثة والخاصة بمعاملة أسرى الحرب تجيز المقاومة الشعبية المسلحة ضد سلطات الاحتلال [حين] أدخلت الفقرة الثانية من مادتها الرابعة أولاً في تعريف أسرى الحرب: (بأنهم الأشخاص الذين يقومون بحركات مقاومة نظامية ويتبعون أحد أطراف النزاع ويعملون داخل أو خارج أراضيهم حتى لو كانت هذه الأراضي محتلة).

وقد اشترطت المادة الرابعة من اتفاقية جنيف الثالثة الشروط التي ينبغي توافرها في عنصر المقاومة وهي:

1 ـ أن تكون تحت قيادة شخص مسؤول عن مرؤوسيه أي وجود منظومة قيادة وسيطرة للمقاومة.

2 ـ أن تكون له علامة مميزة يمكن تمييزها عن بعد.

3 ـ أن تحمل أسلحتها بشكل ظاهر.

4 ـ أن تقوم بعملياتها الحربية طبقاً لقوانين وتقاليد الحرب.

وبالرغم من صعوبة تحقيق هذه الشروط، [بوصف] عمل المقاومة سرياً ومخفياً، فإن هذا لا ينفي الاعتراف الصريح بالمقاومة الشعبية المسلحة ضد سلطات الاحتلال.

وجرى في عام 1977 إقرار بروتوكول تفسيري للفقرة الثانية من المادة الرابعة أولاً من اتفاقية جنيف الثالثة لعام 1949 حين أصبحت الشروط اللازمة لإسباغ حماية أسرى الحرب على رجال المقاومة تنحصر في أن يكون وصف

أفراد المقاومة كمقاتلين ظاهرين [لكي] يسهل تمييزهم من السكان المحليين سواء تحقق هذا عن طريق علامة مميزة و ملابس عسكرية أو عن طريق حمل السلاح ظاهراً بالإضافة إلى شرط احترام قوانين الحرب وأعرافها.

لقد كان إقرار البروتوكول الأول الإضافي لاتفاقية جنيف في حزيران 1977 مناسبة لتقنين تحريم العدوان وحق الشعوب في تقرير المصير وغيرها من القضايا والإجراءات التي تحمي أفراد المقاومة المسلحة ضد المحتل وتعترف بمشروعية حق الشعب في مقاومة الاحتلال.

وقد نصت المواد (43) وما بعدها من البروتوكول الإضافي الأول على أن أفراد المقاومة النظامية مذكورين في مفهوم القوات المسلحة.

وجاء في المادة (44) من البروتوكول على أن:

1 ـ يُعدّ كلّ مقاتل ممن وصفتهم المادة (43) أسير حرب إذا ما وقع في قبضة الخصم.

2 ـ يلتزم المقاتلون بقواعد القانون الدولي التي تطبق في المنازعات المسلحة.

3 ـ يلتزم المقاتلون المكلفون بحماية المدنيين من آثار الأعمال العدائية أن يميزوا أنفسهم من السكان المدنيين أثناء الاشتباك في هجوم أو في عملية عسكرية.

وكذلك ذهب البروتوكول الأول الإضافي إلى تفسير شرط انتماء حركة المقاومة إلى أحد أطراف النزاع تفسيراً واسعاً سواء عن طريق الاكتفاء بتحقيق نوع من الرابطة الواقعية بإحدى دول أطراف النزاع أو الاعتراف لها بنوع من الشخصية الدولية من جانب دولة أو عدد من الدول".

ثالثاً ـ قرارات الأمم المتحدة

"حظرت الأمم المتحدة بالفقرة الرابعة من المادة (2) من الميثاق التهديد باستعمال القوة أو استخدامها ضد سلامة الأراضي أو الاستقلال السياسي لأية دولة أو على أي وجه آخر، وأن استعمال القوة لا يتفق ومقاصد الأمم المتحدة التي هي حفظ السلم والأمن الدولي وإنماء العلاقات الودية بين الأمم على أساس احترام المبدأ الذي يقضي بالمساواة في الحقوق بين الشعوب وبأن يكون

لكل منها تقرير مصيرها.

وأجاز الميثاق بالمادة (51) منه حق الدفاع الشرعي عن النفس والتي جاء فيها: ليس في هذا الميثاق ما يضعف أو ينقص الحق الطبيعي للدول فرادى أو جماعات في الدفاع عن أنفسهم إذا اعتدت قوة مسلحة على أحد أعضاء الأمم المتحدة.

وتعد هذه المادة الأساس في الميثاق التي تتيح الحق بالدفاع الشرعي لصد العدوان والاحتلال.

ولقد أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة قرارات عدة على طول مسيرتها أكدت فيها حق الشعوب في الكفاح ومقاومة الاحتلال والاستعمار والأنظمة التي تمارس تفرقة عنصرية صارخة، وإسباغ حماية أسرى الحرب على أفراد المقاومة المسلحة وحركات التحرير الوطنية ومن أهم هذه القرارات:

1 ـ القرار 1514 في 14 كانون الأول 1960 الذي يقر في المادة (2) منه بحق ا لشعوب في تقريرها مصيرها ولها بمقتضى هذا الحق أن تحدد بحرية مركزها السياسي وتسعى إلى تحقيق إنمائها الاقتصادي والاجتماعي والثقافي.

ونصت المادة (1) من هذا القرار على أن إخضاع الشعوب للاستعباد الأجنبي وسيطرته واستغلاله يشكل إنكاراً لحقوق الإنسان الأساسية ويناقض ميثاق الأمم المتحدة ويعيق قضية السلم والتعاون العالميين.

2 ــ القرار 3103 في 12 كانون الأول 1973 الذي أقر بأن نضال الشعوب في سبيل اقتضاء حقها في تقرير المصير وكرس إقرار المشروعية الدولية بحق الكفاح المسلح [من خلال] الإقرار بشرعية حركات التحرر الوطني.

3 ــ القرار (2649/د ــ 25) والمؤرخ في 30 تشرين الثاني 1970 والذي جاء فيه: أن الجمعية العامة تؤكد أن الأشخاص المشتركين في حركات المقاومة والمقاتلين في سبيل الحرية في جنوب أفريقيا وفي الأقاليم الخاضعة للاستعمار والسيطرة الأجنبية والاحتلال الأجنبي والذين يناضلون في سبيل حريتهم وحقهم في تقرير المصير ينبغي في حالة اعتقالهم معاملتهم أسرى حرب وفقاً لمبادئ اتفاقية لاهاي لعام 1907 واتفاقية جنيف الثالثة لعام .1949

4 ـ القرار 37/43 الصادر في عام 1982 والذي ورد فيه.

تؤكـد الجمعيـة العامـة مـن جديـد شـرعية كفـاح الشـعوب في سـبيل الاسـتقلال والسـلامة الإقليميـة والوحـدة الوطنيـة والتحـرر مـن السـيطرة الاستعمارية والأجنبية ومن التحكم الأجنبي بجميع ما أتيح لهذه الشعوب من وسائل بما في ذلك الكفاح المسلح.

5 ـ العهـد الـدولي الخـاص بـالحقوق الاقتصـادية والاجتماعيـة والثقافيـة والعهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية لعام 1966 والنافذ في عام 1976 والـذي جـاء في الجـزء الأول مـن هـذين العهـدين وفي المادة الأولى الفقـرة (1) منهما: لجميع الشعوب حق تقرير مصيرها بنفسها وهي بمقتضى هذا الحق حـرة في تقريـر مركزهـا السياسـي وحـرة بالسـعي لتحقيـق نمائهـا الاقتصـادي والاجتماعية"[1].

لهذا انقضَّت علـى سـيادة الـدول وهيمنـت عليهـا ـ بعـد أن غـدا عـدد مـن الأنظمـة العربيـة الرسميـة محمَّـلاً بـإرث مـن السـلبيات ـ وراحـت تسـرق ثرواتهـا باسـم الحريـة والديمقراطيـة، مُلْبسـة أعمالها العدوانيـة صفة الشـرعية الدوليـة باعتبار سيطرتها على الهيئات الدولية، ما أوقع هذه الشرعية في أزمات متتاليـة نتيجـة سـيطرة الإدارة الأمريكيـة عليهـا ولا سـيما في مـا يتعلـق بقضـايا العـرب والمسلمين.

ولعل القرارات الدوليـة في هـذا الشـأن أعظـم مـن أن يشـار إليهـا منـذ نشـوء الكيان الصهيوني سنة (1948) وصدور قرار عودة اللاجئين رقم (194) تاريخ (1948/12/1م) الذي لم ينفـذ حتـى الآن دون أن ننسـى لحظـة واحـدة مـا قالـه الصـهيوني (نـاحوم سـوكوف) في خطابـه للمـؤتمر الصـهيوني الماسـوني في (كالسبارد) يوم (1922/8/27م) ونشـرته صـحيفة (نيويـورك تـايمز) في اليـوم التـالي: "عصـبة الأمـم فكـرة صـهيونية خلقناهـا نحـن بعـد كفـاح دام خمسـاً وعشرين سنة".

فالفلسفة القانونية؛ والقانون الطبيعـي؛ والشـرط الموضـوعي الإنسـاني لحق

---

[1] النص مقتبس من موقع التحالف الوطني (العراق).

الحياة... أو أي عامل آخر يؤكد شرعية الأفراد والشعوب والدول في الدفاع عن حريتها واستقلالها وسيادتها ، ووحدة شعبها وأراضيها وتمنع الآخر القوي من العدوان عليها... وعلى الرغم من ذلك كله لا يزال الاستعمار الصهيوني العنصري الاستيطاني يمارس وحشيته الفائضة بوتائر متصاعدة ومتعددة ضد الشعب الفلسطيني أرضاً وهوية؛ وجوداً وحضارة؛ ثقافة ومقدسات... وهذا ما يتناوله حديثنا القادم في الفصل الثالث الذي يدور حول انتفاضة الإقصى.



الفصل الثالث

انتفاضة الأقصى، أبعاد ونتائج وآفاق

الفصل الثالث:

انتفاضة الأقصى: أبعاد ونتائج وآفاق(*)

تقديم:

قد يقول قائل: إن الحديث عن انتفاضة الأقصى التي اندلعت شرارتها إثر تدنيس أرئيل شارون للأقصى الشريف يوم دخله في (2000/9/28م) لم يعد جديداً[2]... فقد جرت فيها أقلام الدارسين ووقفوا عند أبعادها ونتائجها.... وحين ذهب غير واحد من الدارسين إلى التشكيك بجدوى المقاومة الشعبية على الرغم من قدمها في مواجهة المحتل في سورية والجزائر ومصر و[3]... فإنها برزت مؤثرة بأشكالها المتنوعة مثل الإضراب والعصيان المدني وغيرهما. ولم تقل قيمتها عن المجابهة المسلحة. وكذا كانت (انتفاضة الحجارة ـ 1987م) داخل الأرض المحتلة ثم تبعتها (انتفاضة الأقصى)، وهما تؤكدان حقيقة المقاومة وفاعليتها الكبيرة التي برزت في الساحتين العربية والدولية؛ وحققت احترام الذات نتيجة اختلال الموازين العسكرية والدولية، لصالح العدو الاستيطاني الصهيوني... ثم تأكدت معاني القيم البطولية للمقاومة الوطنية الشعبية في لبنان والعراق... وأخذ التفاضل بين أسلوب المقاومة المسلحة وأسلوب المقاومة السلمية بكل أشكالهما يجري على الألسنة هنا وهناك ولاسيما أنه قد سقط فيها ما يزيد على خمسة آلاف شهيد وأكثر من (40) ألف جريح وسجين. ثم إن باحثين كثيرين ومفكرين عديدين ما زالوا يرون أن المقاومة المسلحة ستبقى السبيل الوحيد للدفاع عن الوجود الكريم ولتحرير الأرض

(*) أصل هذا الفصل بحث قُدّم إلى ندوة (ثقافة المقاومة) في جامعة فيلادلفيا بالأردن عام (2005م) وفيه تحدثنا عن اغتيال الرئيس ياسر عرفات بالسم؛ وثبت ذلك أخيراً.

(2) انظر انتفاضة الأقصى (مقدمة النصر القادم) – 15 – 22 و 28 – 29.

(3) انظر المقاومة الشعبية في الشرق 5 – 10 و 22 و 33 – 84 و 85 – 154 و 155 – 170 و 171 – 188.

والإنسان. وأياً ما تكن تضحيات الشعب المصمم على انتزاع حريته، وأساليبه في المواجهة فقد استطاع استحداث نماذج مقاومة وأشكال جديدة. دخلت في قاموس الثقافة الإنسانية كمصطلح (الانتفاضة) وآليات تنفيذه، بوصفه حركة شعبية مدنية لتحرير الأرض والإنسان؛ وأنموذج متكامل لتفجير الإمكانات الثورية والإبداعية[1].

ويرى بعض الباحثين أن الانتفاضة "صنو الحرب، فهما تعبيران متماثلان لمعادلات متشابهة. فمثلما نكون إزاء الحرب عندما لا يعود بوسع أحكام القانون الدولي تسوية العلاقات بين الدول بشكل طبيعي فإننا نكون بإزاء الانتفاضة عندما لا يعود بوسع القوانين الداخلية التي هي غير مقبولة احتواء الصراع السياسي"[2]... ولعل هذا يؤكد أن الانتفاضة ما جاءت كيفما اتفق؛ وإن كان الباعث فيها معروفاً... فانتفاضة الأقصى وكذلك كانت انتفاضة الحجارة عام (1987م) نتيجة عوامل موضوعية بفعل الاحتلال الصهيوني وتهويد الأرض والحياة. وبهذا وضعت الكتب لدراسة انتفاضة الحجارة بمثل ما وضعت لدراسة انتفاضة الأقصى في أسبابها وأبعادها الكاشفة للعنصرية الصهيونية ومظاهرها الحاقدة على الشعب الفلسطيني، ما جعلها تصمم على تهجيره من أرضه، أو جعله يعيش في سجن كبير؛ والضغط عليه في معيشته[3]...

ومن هنا نرى أن العلاقة علاقة وجودية بين المخلوق عامة وبيئته أو مجاله الحيوي كما يقال في عالم الحيوان ولابد من حمايته والحفاظ على موجوداته... فالحيوان – أياً كانت قدراته – يلتصق غريزياً ببيئته ويدافع عنها، لكن علاقة الإنسان بالمكان تتخذ أشكالاً راقية من الانتماء والتفاعل لما أودعه اللّه

---

[1] الانتفاضة: مصدر، وفعله (انتفض) أما النَّفْض فمصدر لفعل (نفض) أي حرّك، وكل زيادة في المبنى تدل على زيادة في المعنى، ما يعني أن الانتفاضة مبالغة في التحريك، انظر لسان العرب (نفض) وانتفاضة الأقصى (مقدمة النصر 28).

[2] انتفاضة الأقصى (مقدمة النصر القادم) 27.

[3] انظر ـ مثلاً ـ الانتفاضة في أدب الوطن المحتل 23 ـ 32 و 40.

فيه من سر إعمار الأرض[1] وتسخير كل شيء لخدمته في الوقت الذي حرم الله على الإنسان قتل أخيه الإنسان ... لكن بني إسرائيل كانوا على الدوام أعداء المحبة والإنسانية، لهذا خصهم الله – سبحانه وتعالى – بحكم النهي عن القتل الذي استمرؤوه بحق البشرية فقال: « من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً، ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك لمسرفون » (المائدة 32/5)، فتعاليمهم في التوراة والتلمود وغيرهما تثبت عنصريتهم، وهمجيتهم في سفك الدماء وبراعتهم في الغدر والخداع والتعامل بالربا و .... [2] ومن ثم فإن الحكم واضح في بني إسرائيل الذين اصطنعوا القتل والفساد في الأرض، إذ كان واجب البشرية دفع أذاهم وشرورهم أينما وجدوا ... وليست انتفاضة الأقصى التي دخلت عامها الخامس في (2004/9/28م) إلا شكلاً من أشكال مجابهة الاحتلال و القتل، (والقتل أنفى للقتل) كما قيل على ألسنة عرب الجاهلية. وليس هناك مراء في أن هذه الانتفاضة قد تراجعت وتيرتها على نحو ما في نهاية هذا العام، ثم تغيّر وجهها في عام (2005م)؛ لكنها ستبقى حدثاً تاريخياً يفرض على الباحث تحليله وبيان ماله وما عليه.

فدخول شارون حرم المسجد الأقصى ليس مجرد زيارة مباحة في مفهوم القانون الدولي والإنساني... وإنما هي في المفهوم العربي رسالة صهيونية مبنية على أبعاد إيديولوجية وسياسية ودينية ومعتقدات كاذبة[3] تؤمن بتأسيس مملكة إسرائيل وبناء هيكل سليمان المزعوم بعد هدم الأقصى الشريف، ولا سيما أن عدداً من الصهاينة العنصريين قد صرحوا بأن الطائرات الإسرائيلية ستقوم بذلك بعد أن أخفقت عملية الأنفاق المحفورة تحته، ولم تفلح بهدمه، أو

---

[1] انظر رمزية القدس الروحية 9 وراجع ما تقدم 87 – 92.

[2] انظر – مثلاً – أسطورة هرمجدون والصهيونية المسيحية 28-32 واليهود – عقائد وتاريخ اجرامي 68 وما بعدها و109 وما بعدها و217 وما بعدها، والمشروع الصهيوني والسلام الإسرائيلي – حقائق ووثائق – 60 وما بعدها والأبعاد الفكرية والعلمية 23 – 43.

[3] انظر انتفاضة الأقصى (مقدمة النصر) 51 – 54 و 61 – 71.

إثبات أي صلة لليهود به، ففلسطين مرتبطة اسماً وتاريخاً بالشعب الفلسطيني كما دلت عليه المكتشفات والآثار[1]. ما يعني التنكر لكل قرارات الأمم المتحدة المتعلقة بالقدس المحتلة والإجراءات المتعلقة بها ومنها القرار رقم (252) تاريخ (1986/5/21م) ونصه كما يأتي: " دعوة إسرائيل إلى إلغاء جميع إجراءاتها لتغيير وضع القدس.

إن مجلس الأمن، إذ يستذكر قراري الجمعية العامة، رقم 2253 (الدورة الاستثنائية الطارئة ـ5) الصادر في 4 تموز (يوليو) 1967، والقرار رقم 2254 (الدورة الاستثنائية الطارئة ـ5) الصادر في 14 تموز (يوليو) 1956،

وقد نظر في كتاب ممثل الأردن الدائم رقم (S/8560) (341) حول الوضع في القدس وتقرير الأمين العام رقم (S/8146)، (342) وقد استمع إلى البيانات التي ألقيت في المجلس، وإذ يلاحظ أنه منذ تبني القرارات المذكورة أعلاه، فقد اتخذت إسرائيل المزيد من الإجراءات والأعمال التي تتنافى مع هذه القرارات، وإذ يذكر الحاجة إلى العمل من أجل سلام دائم وعادل، وإذ يؤكد رفضه الاستيلاء على الأراضي بالفتح العسكري:

1 ــ يأسف على فشل إسرائيل في الامتثال لقرارات الجمعية العامة المذكورة أعلاه.

2 ـ يعتبر أن جميع الإجراءات الإدارية والتشريعية، وجميع الأعمال التي قامت بها إسرائيل بما في ذلك مصادرة الأراضي والأملاك التي من شأنها أن تؤدي إلى تغيير في الوضع القانوني للقدس، هي إجراءات باطلة ولا يمكن أن تغير وضع القدس.

3 ـ يدعو إسرائيل بإلحاح إلى أن تبطل هذه الإجراءات وأن تمتنع فوراً عن القيام بأي عمل آخر من شأنه أن يغير وضع القدس.

4 ـ يطلب من الأمين العام أن يقدم تقريراً إلى مجلس الأمن حول تنفيذ هذا القرار".

فلما تنكَّرت الدولة الصهيونية لذلك كله كانت انتفاضة الأقصى التي

---

[1] انظر مثلاً – الموسوعة الفلسطينية 219/1 -222و274/3-277 والمشروع الصهيوني 382 وأبعاد القضية الفلسطينية 130-132.

فاجأت العالم كله بما فيه الصهاينة، بعد أن تهيأت لها العبر والدروس من الانتفاضتين السابقتين: انتفاضة الحجارة لعام (1987) التي اوقفتها محادثات أوسلو ومعاهدتها في (1993/9/13) وانتفاضة النفق سنة (1996) التي أوقفتها محدثات واشنطن في (واي ريفر) سنة (1998)[1].

لقد رجح للشعب الفلسطيني في الداخل وفي المنافي والشتات أن الدولة الصهيونية مصممة على تحقيق المشروع الصهيوني الذي بني على مفاهيم الاستيلاء والطرد والإلغاء لكل ما يتعلق بالشعب الفلسطيني بيوتاً وأملاكاً وأراضي، وسكاناً... في الوقت الذي يستهدف عروبته (هويته) وتراثه وثقافته... أي إن الكيان الصهيوني تأطر في أفكار الحركة الصهيونية؛ وطفق يعمل على إنجاز هوية الدولة اليهودية وتجسيدها في الواقع لتكون وحيدة في فلسطين ما يفرض على الشعب الفلسطيني اللجوء إلى المجابهة المسلحة بوصفها السبيل الوحيد والأخير لمقاومة غطرسة الإبادة الوحشية الصهيونية المنظمة وبخاصة إثر الاخفاقات السياسية المتلاحقة للسلطة الفلسطينية التي وضعت كل قراراتها في السلة الأمريكية والأوربية... فكانت الانتفاضة وسيلته الوحيدة التي يملكها أمام القتل والتهجير [2] والإلغاء والوجود ...

---

[1] انظر المشروع الصهيوني 357 و 371.

[2] انظر أسطورة هرمجدون 233.

1 ـ أبعاد الانتفاضة:

أدركت انتفاضة الأقصى بحكم وضعها التاريخي والوطني والقومي والاجتماعي والسياسي والفكري أن قدرها الحتمي يتجلى في الدفاع عن الوجود والمصير، بعد أن تركزت في أبعاد كثيرة تعد في طبيعتها نتائج في آن معاً ومنها:

1- أعادت الانتفاضة الزمن الوطني والقومي كله ودفعة واحدة إلى الوراء، فأكدت أن الصهاينة يريدون فلسطين أرضاً بلا شعب، لأنهم يطبقون تعاليم التلمود وكتاب (الكابلاه) أي (الرعب والإرهاب) بحق السكان الأصليين لفلسطين، ويرون أن أرواح هؤلاء الفلسطينيين نجسة على حين أن أرواحهم من روح الله ... لأنهم شعب الله المختار[1].

لهذا مارسوا من قبل عمليات الإبادة الجماعية، وفق أحط المعتقدات التي يؤمنون بها ليصلوا إلى أهدافهم، وإقامة دولتهم المزعومة من الفرات إلى النيل كما صرح بها ذات يوم وزير الدفاع السابق (موشي دايان) لصحيفة (الجيروزلم بوست) في (1967/8/10م) إذ قال: ((إذا كنا نملك التوراة وكنا نعتبر أنفسنا كشعب توراة فإنه يجب أن نملك الأرض التوراتية، أرض القضاة والشيوخ والقدس والجليل وأريحا وأمكنة أخرى)). إن موشي دايان ومن ثم شارون يطبقون ما جاء في سفر التكوين رقم (13- 14- 15- 17) إذ روى السفر الخامس عشر أن الرب عقد مع ابراهيم عهداً يقول: ((لنْسلِكَ أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير)) أي الفرات[2]. أنهم يرون قتل الأغيار جزءاً من قرابين مقدمة للإله الذي يرعى عظمة مستقبلهم السعيد[3].

فالانتفاضة كانت تتحرك في صميم هذه المفاهيم التي آمن بها الصهاينة

---

[1] انظر أسطورة هرمجدون 236-240 وأزمة فلسطين بين الحقائق والتزوير 222-223 والأبعاد الفكرية والعلمية 13 ـ 15 ـ والاحتلال الإسرائيلي وشرعية المقاومة 69 ـ 73.

[2] الموسوعة الفلسطينية 592/1 وانظر المشروع الصهيوني 69 و 418 و أسطورة هرمجدون 225 و 277-288 وأزمة فلسطين 198.

[3] انظر أسطورة هرمجدون 184.

وتتشكل فيها أبعادها المتعددة ... ولا سيما ما يتعلق بالصحوة الفكرية......

2- شكلت الانتفاضة صحوة شعبية وطنية وفكرية فاعلة في داخل فلسطين وبلاد العرب والإسلام والعالم كله لفهم حقيقة الكيان الصهيوني، وتجلت هذه الصحوة دراسات وأبحاثاً[1] كثيرة حين خاضت غمار المجابهة علانية. ولا شيء أدل على هذا من تصريح أو بيان غابريل ماركيز الذي رفض جائزة نوبل للآداب لكيلا يقترن اسمه باسم مناحيم بيغن وارئيل شارون شاربي الدماء[2].

فكثير من المثقفين والمفكرين والأدباء الشرفاء لم يكونوا قادرين على اقتحام ساحة الانتفاضة واكتشاف أسرارها والوقوف إلى جانب المستضعفين في الأرض لولا إدراكهم لما يجري في الأرض المحتلة من إبادة جماعية للشجر والحجر والبشر ولولا أنهم عاشوا حقيقة هذا البعد من الصحوة الواعية ...

3- مارست انتفاضة الأقصى مبدأ التحام القوى السياسية الداخلية ولا سيما قيادات الانتفاضة على اختلاف انتماءاتهم الفكرية والدينية ... فقد اتفقوا جميعاً على التحرر الوطني في إطار تعزيز الهوية الفلسطينية العربية والإسلامية ... ثم انتقل اتفاقهم إلى تعاون فاعل ومثمر على صعيد المجابهة العسكرية بكل الوسائل ... وهذا البعد لم يتوافر لانتفاضة الحجارة سنة (1987م). على حين استطاعت انتفاضة الأقصى كسر الاحتواء الذي مارسته الدولة الصهيونية على القدس خاصة والشعب الفلسطيني عامة[3]، وأعادت "رسم المشهد العربي والإقليمي بما يتفق مع مصلحة الأمة"[4].

4- عاشت انتفاضة الأقصى مفاهيم الشهادة الراقية، فلم يكن الاستشهاد هواية ولا انتحاراً لسبب ذاتي أو اجتماعي وإنما هو دفاع مشروع مارسته الجماهير الشعبية[5] عن الوجود والحياة فأطفال الحجارة كبروا ونضجوا نتيجة المعاناة

---

[1] انظر ـ مثلاً ـ كتاب (أضواء على انتفاضة الأقصى).
[2] انظر مجلة الأسبوع الأدبي – عدد 932-2004/11/13م – ص ا و 5.
[3] انظر انتفاضة الأقصى (مقدمة النَّصر) 105 ـ 106.
[4] المرجع السابق 106.
[5] انظر أضواء على انتفاضة الأقصى ص 10 ـ 12.

الطويلة لممارسة العدو الوحشية في تجويع البطون واستمرار الحصار وتجريف الأرض وتهديم البيوت على العجائز والنساء والأطفال ... لم يكن لهذا الطفل خيار إلا الدفاع عن وجوده وحياته ولا يضيره أن يموت في سبيلهما وعلى أرضه. فكذّب مقولة موشي دايان : الكبار يموتون والصغار ينسون وتنتهي قضية الشعب الفلسطيني ....

ومن ثم فكل طفل كان يتمنى أن يعيش طفولته كبقية أطفال العالم وأن يعيش حياته بهدوء وأمان، وأن يحظى بأقل التعليم والمعرفة دون قهر أو ذل أو قتل أو إغلاق لمدرسة ... لكن الصهاينة أعداء الطفولة والإنسانية لم يتركوا له شيئاً، حتى الحلم بوطن محدود قتلوه في نفسه وسرقوه من مخيلته ....

فلو أحصينا ما قامت به [إسرائيل]، وفق العديد من الإحصاءات، ولا سيما إحصاءات الأمم المتحدة، وأقوال مبعوثها (تيري لرد لارسن) لرأينا – منذ بداية الانتفاضة – ما يأتي:[1]

أ- قتلت [إسرائيل] ما يزيد على (3700) فلسطيني فيهم (652) طفلاً و(242) امرأة منهن من سقطن شهيدات في أثناء الذهاب إلى المشفى ...

ب - جرحت ما يزيد على (44022) شخصاً، جراحات كثير منهم خطرة وأخرى عطلت حياة الجرحى الطبيعية ولا سيما أنها تستخدم الأسلحة المحرمة دولياً كما تستخدم طائراتها وصواريخها استخداماً غير قانوني ولا شرعي ...

ت - كما أسرت ما يزيد على (15000) أسير في سجون لا تليق بالبشر مع التعذيب والعقوبات القاسية المحرمة دولياً كما في المادة الخامسة من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان لعام (1948م) والمادة السابعة من العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية لعام (1996م) وغيرهما ...

ث - إنها قتلت (30000) من رؤوس البقر والأغنام والماعز ....

---

[1] انظر مثلاً – المشروع الصهيوني 454.

ج- إنها قلعت ما يزيد على (10000) شجرة ....

ح - إنها دمرت (570) منشأة فلسطينية ....

خ - صادرت (20815) دونماً لصالح الجدار العنصري فقط، فضلاً عن مئات الآلاف المصادرة من قبل لبناء المستوطنات وغيرها[1].

د - إنها فصلت العمال الفلسطينيين، فأوجدت أزمة عطالة وبطالة زاد عدد العاطلين على (260) ألفاً، فضلاً عن سياسة التهجير للعرب بأشكال شتى مرعبة[2].

فإسرائيل ظهرت بكل وضوح أنها دولة إرهابية إجرامية خارجة على القانون الدولي، والشرائع السماوية والإنسانية .... فهي لم تكتف بإيقاف التنمية الفلسطينية حتى بلغت خسارتها ما يعادل (15) مليار دولار فتراجع القطاع الزراعي بنسبة (75٪) عما قبل والقطاع الصناعي بنسبة (65٪) فازداد عدد الفقراء حتى بلغوا مليوني نسمة لا يزيد إنفاق أفضل واحد فيهم علىدولار واحد باليوم ... وإنما عمدت بكل وحشية وهمجية إلى قتل بشع بحق الفلسطينيين .... إنها تمارس القتل المنهجي والاغتيال المنظم الفردي والجماعي، لأن ((القوة تأتي قبل الحق، وبغير القوة لا يقتلع شعب من أرضه)) كما قال هرتزل[3].

إن إسرائيل تمارس إرهاب الدولة مستعملة الآلة العسكرية الأمريكية كالسيارات المفخخة وطائرات الفانتوم والأباتشي والقذائف المسمارية و .... والجداول كثيرة وطويلة كلها تثبت جرائمها ومجازرها التي لم يسلم منها طفل ولا امرأة ولا ضعيف ولا عاجز فضلاً عن اغتيالات الموفدين الدوليين وغيرهم:[4].

---

[1] انظر الاستيطان الصهيوني [محاضرات في الاستيطان الصهيوني] -37-40 و 51 – 58 و 60 – 74 و 99 – 103 والمشروع الصهيوني 465-505 واليهود عقائد وتاريخ اجرامي 512-518 والاحتلال الإسرائيلي 57 – 68.

[2] انظر المشروع الصهيوني 201-205

[3] محاضرات في الصهيونية 66 والأبعاد الفكرية والعلمية 33 – 45 والاستيطان اليهودي 13 – 31.

[4] انظر مثلاً – اليهود عقائد وتاريخ اجرامي 306 – 311 و 315-318 والاستيطان اليهودي 57 – 62.

أ- اغتيال المهندس يحيى عياش في مطلع عام (1996م) بوساطة هاتفه النقال ....

ب - استهدفت الشيخ صلاح شحادة في (2002/7/23م) فقتلت (28) شخصاً بريئاً غالبيتهم من النساء والأطفال والشيوخ.

ج - اغتيال ستة أشخاص منهم نضال فرحات (2003/2/16م) عن طريق تفخيخ طائرة لاسلكية (لعبة أطفال) وتفجيرها عن بعد.

د - اغتيال محمد العبيدات في بيت لحم يوم (2002/10/13م) بوساطة تفجير هاتف عمومي.

هـ - قتل (17) قيادياً من منظمة حماس وجرح كثيرين آخرين معظمهم من الأطفال و النساء يوم (2003/3/20م) حين فجرت سيارة عند مدخل مخيم النصيرات.

و- محاولة اغتيال عدد من الفلسطينيين فكانت الحصيلة جرح أربعين شخصاً جراح بعضهم خطيرة في أيلول (2004م) في ميدان الياسين شرقي الشجاعية حين ضربته بالصواريخ من طائرات الأباتشي وغيرها ...

ز- اغتيال محمود أبو طوالبة يوم (2004/3/23) حين وجهت طائرة اسرائيلية صواريخها إليه برفقة شيخ المجاهدين المرحوم أحمد الياسين.

ح- اغتيال مؤسس حركة (حماس) الشيخ أحمد الياسين وهو خارج من صلاة الفجر يوم (2003/10/23م) حين وجهت الطائرات صواريخها إليه وهو مقعد في كرسيه.

ط - اغتيال الدكتور عبد العزيز الرنتيسي يوم (2004/4/17م) حين قصفت الطائرات النفاثة الإسرائيلية منزله بالصواريخ الموجهة.

ي - اغتيال عز الدين الشيخ خليل وسط دمشق في حي الزاهرة بسيارة مفخخة فجرت عن بعد بوساطة العملاء والخونة يوم (2004/9/23م).

إن قائمة الإجرام طويلة وأسماء الشهداء كثيرة فقد حاولت اغتيال السيد

خالد مشعل رئيس المكتب السياسي لحماس في الأردن سنة (1997م) ولكن الله أمد بعمره، على حين اغتالت ما يزيد على (400) شخصية قيادية بكل الوسائل التي تملكها وبشكل منظم ومخطط له دون أن يردعها قانون دولي، أو بقايا من ضمير إنساني فالقتل عند قادة إسرائيل يعادل وجودهم كما قالت غولدامائير ((أنا أقتل، فأنا موجودة))[1].

ويمكن أن نشير إلى أسماء آخرين من الشهداء الذين اغتالتهم إسرائيل ومنهم (جمال منصور وجمال سليم ومحمود أبو هنود ومهند الطاهر وابراهيم بني عودة ونصر جزار وأيمن حلاوة ومهند أبو حلاوة وياسر رزوق وحسين عبيات وثابت ثابت وأحمد ريحان ورائد نزال وناصر عويس وأبو علي مصطفى قائد الجبهة الشعبية).

إن قادة الحركة الصهيونية يتبارون في ارتكاب المجازر الوحشية الجماعية وكذلك هم أطفالهم الذين يتلذذون بقتل العرب إذ تقول تلميذة يهودية صغيرة ((تستبدّ بي رغبة جامحة لقتل العرب جميعاً))، ثم يُشَرِّعُ حاخاماتهم ذلك كله[2].

وبناء على ذلك كله يتساءل المرء: لم تصر دولة الكيان الصهيوني المدعومة بقرار الفيتو الأمريكي وآلته العسكرية على ارتكاب إبادتها الجماعية بحق الفلسطينيين؟ والجواب لا يكمن - فقط- في التخلص من أكبر عدد، وإرعابهم لإكراههم على الهجرة والاستيلاء على أملاكهم واستجلاب يهود العالم بدلاً منهم ... وإنما يكمن - أيضاً- في خلط الأوراق بين مفهوم الإرهاب والمقاومة وإيهام العالم بما تتبناه من مخططات القتل والشر بعد أن كشفت انتفاضة الأقصى زيف ما تقوله، وخداعها المستمر لكي تتنصل من كل قرار دولي فهي تتبنى سياسة القتل العشوائي لأهداف منها :

1- إظهار إسرائيل بصورة الدولة الشرعية المعتدى عليها مما تطلق عليه (الإرهاب) الفلسطيني والعربي والإسلامي مستغلة اعتراف الدول بها في هيئة

---

[1] محاضرات في الصهيونية 66 انظر الإيديولوجية الصهيونية 128/2.

[2] محاضرات في الصهيونية 66 وانظر المشروع الصهيوني 72 وما بعدها.

الأمم المتحدة، بما فيها الدول العربية والإسلامية ولا سيما بعد قراري مجلس الأمن (242) و (338).

فهي تظهر للعالم أنها لا تمارس عملية القتل المنظم والتدمير المنهجي وإنما تقوم بتخليص العالم الحر من الإرهابيين وشرورهم لأنهم يهددون السلام العالمي والعالم الغربي المتمدن... ولهذا وجب التخلص من هؤلاء الإرهابيين في إطار الدفاع عن الذات وعن السلام وقد نجح (إرئيل شارون) في ربط محاربته للفلسطينيين تحت اسم الإرهاب بعد أحداث الحادي عشر من أيلول (2001م) بمكافحة أمريكا للإرهاب في أفغانستان على الرغم من أنه من عتاة الإرهابيين كدولته الخارجة على القيم والشرائع والقوانين.

2- إظهار القدرات العسكرية الفائضة عند الصهاينة لزرع الرعب والخوف في نفوس الشعب الفلسطيني وقادته ... فهذه الآلة العسكرية المتفوقة قدرة وتقانة يمكنها النيل من رموز المقاومة و الوصول إليها أينما كانت .... لهذا عمد الصهاينة إلى **أمرين اثنين:**

الأول: القيام بضربات وقائية واستباقية عسكرية بالطائرات النفاثة بطيار ومن دون طيار، وبطائرات الأباتشي، وبالصواريخ والقذائف المسمارية وغيرها ... ونفذت ذلك مسوغة إياها بالدفاع عن الذات، وفي إطار مظلة مكافحة الإرهاب الدولي، ... إنها تنفذ مجازرها الجماعية وإبادتها الوحشية تحت هذا الشعار ... وهذا ما تمارسه أمريكا في أفغانستان والعراق ... مستغلة هيمنتها على المحافل الدولية، وسيطرتها على الإعلام والاتصالات والفضائيات ....

الثاني: شراء ضعاف النفوس من الفلسطينيين والعرب ومن باعوا أنفسهم للشيطان وخانوا أوطانهم وعقيدتهم ... فجندت إسرائيل عدداً منهم فكانوا مرتزقة مخلصين ينفذون أوامرها في ظل مبدأ الترهيب والترغيب ... واستطاعت أن تجند نحو (6000) عميل، وبهذا أحدثت شرخاً كبيراً وقاتلاً في بنية المجتمع الفلسطيني ثم العربي.

3- المحافظة على الروح المعنوية للصهاينة، وتحريرهم من عقيدة الخوف والرعب والاضطراب والقلق والأمراض النفسية الأخرى التي استشرت فيهم وتعاظمت في أنماطهم السلوكية، ومن ثم قتل الروح المعنوية المتصاعدة التي

بدأت تتعزز لدى الفلسطينيين والعرب وتدفعهم إلى الأمل والمستقبل.

4- فرض الصيغ الأمنية الخاصة بها لإنجاز عملية السلام / التسوية أو ما يسمى بعملية وقف إطلاق النار للتنصل من القرارات الدولية، ولاسيما قرار حق العودة رقم (194) تاريخ (1948/12/11م) الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة والقاضي فيما تضمنه من قرارات بالسماح للاجئين بالعودة إلى ديارهم بعد انقضاء محنتهم ... وعدم تقسيم القدس وفق أي نظام بما فيه القرار رقم (186) تاريخ (1948/4/14م) القاضي بتعيين وسيط دولي لحماية المواقع المقدسة... وقبله القرار (181) تاريخ (1947/11/29م) الذي قضى في بنده الثالث بتقسيم القدس وفق نظام حكم دولي يرأسه مجلس وصاية علماً أن اليهود آنذاك لم يشكلوا نسبة سكانية تزيد على (8٪) ولا يملكون من الأرض إلا (5٪)[1].

وبهذا كانت إسرائيل تهدف من عملياتها الإجرامية، واغتيالاتها المنهجية إلى كسر التشبث بالأرض والعودة إليها. وهي في آن معاً تهدف إلى تفريغ فلسطين المحتلة من السكان حين تجبرهم وحشيتها على التهجير مرة أخرى إلى الأردن أو إلى أي مكان آخر، ومن ثم تنقلب على خارطة الطريق وهي الخديعة الكبرى لإدارة بوش الابن ولكن النتائج لم تأتِ كما أرادت الدولة الصهيونية ورعاتها الأمريكيون. ولهذا نتساءل: كيف يمكن لجائع، أو ذليل مقهور، أو إنسان استوى لديه الموت مع الحياة ألا يثور على جلاديه، ومغتصبي الحياة من أخوته أو أبنائه، أو أقربائه؟ وكيف له ألا يحصل على النتائج المرجوة وهو من آمن بالشهادة أو النصر؟!!

2ـ نتائج الانتفاضة:

في ضوء ما تقدم، وفي ضوء الواقع العربي والدولي، وفي ضوء معاناة

---

[1] انظر الموسوعة الفلسطينية 552/1 و 557 و 359/3- 362 وحق العودة بين القرار 194 ووثيقة جنيف 39-44 والمشروع الصهيوني 197و 206-210 وأزمة فلسطين 145-148.

الشعب الفلسطيني وقيمه ومبادئه ولا سيما المفاهيم الدينية – وهي أصل راسخ في نفسية الفلسطيني وثقافته – نرى أن انتفاضة الأقصى حققت نتائج باهرة في صميم معادلة الوجود والحياة والتفاؤل بنيل الحرية، وهي نتائج تنبثق من الأبعاد السابقة وأبرزها:

1- أظهرت الانتفاضة أن الكيان الصهيوني دولة إجرامية إرهابية لا تقوم إلا على قتل الأغيار، والتلذذ بسفك دمائهم. فالصهاينة يرسمون خطط الاغتيال والقتل الجماعي والتهجير والتفريغ للفلسطينيين من أرضهم. ومن ثم فإن الانتفاضة أبرزتهم بأنهم أعداء السلام مهما تقولوا بأنهم لم يجدوا شريكاً للتفاوض معه في السلطة الفلسطينية ... لقد اتضح للعالم كله أن إسرائيل تريد تدمير البنية الاجتماعية والأسرية للشعب الفلسطيني ومن ثم تدمير البنية الوطنية والقومية، فلا يتذكر إلا الموت والقتل والتدمير والتصفية التي تمارسها آلة الدمار الوحشية ...

إنه التاريخ يكرر نفسه كما تصوره كتبهم لتعزيز الرعب في نفوس الناس وكما أظهروه في شخصية يوشع بن نون التي اصطنعوها مثلاً لهم في القتل والدمار والفساد فالصهاينة يزعمون أن فلسطين –ويسمونها يهودا– سقطت بالدم والنار وستنهض بالطريقة نفسها[1].

2- أثبتت الانتفاضة أن وعي أطفال فلسطين لهويتهم في كل مكان قد ازداد عمقاً وتجذراً، إذ تعلق كل واحد منهم بأرضه وخبر معالمها الجغرافية بكل تفاصيلها، هضاباً وجبالاً، سهولاً وودياناً، أنهاراً وطرقات، صحارى وغابات، قرى ومدناً ... غدا الطفل الفلسطيني مسكوناً بحب فلسطين و ما يجري على ثراها، فشرع يتمنى أن يكون أحد أبطالها المناضلين ولو كان طالباً جامعياً أو مهندساً أو محامياً أو .... وأيقن بأن مفاهيم التسوية لا تنتج[2] إلا الإذلال وضياع الأرض. وكذلك أخذت أحلام العودة تكبر في نفسه ويرجو أن ينقل إلى ترابها ولو رفاتاً بعد أن كان هذا الحلم محصوراً بكبار السن من

---

(1) انظر الإيديولوجية الصهيونية 2/69-70 و 94-95 والمشروع الصهيوني 61-72 والموسوعة الفلسطينية 1/592 وما بعدها.

(2) انظر انتفاضة الأقصى (مقدمة النصر) 113 – 126.

أبناء النكبة ...

3- أثبتت الانتفاضة للعرب وللعالم كله أن المقاومة الشعبية المنظمة والموحدة ـ هدفاً ووسيلة ـ تعد السبيل الأمثل للتحرير مفيدة من تجارب الشعوب المكافحة الأخرى. وحين تعلقت المقاومة الشعبية بالكفاح المسلح بكل أنماطه لم تهمل الأشكال الأخرى[1] .... في الوقت الذي أدركت أن العمل الشعبي المقاوم إنما هو عمل تراكمي أساسه الإرادة والصبر والصدق والإخلاص، والتسلح بالعلم والمعرفة والتقنية وكل ما تحتاجه معركة التحرير.

4- قضت الانتفاضة على عامل الرعب والخوف والقلق، والاضطراب وكل عجز تمكن في النفوس من آلة البطش الصهيونية ومجازرها الجماعية البشعة، ونقلته إلى نفوس الصهاينة وصفوفهم على الصعيد المدني والعسكري، فقد أدت روح الجهاد – على مستوى الكيان الصهيوني – ولا سيما العمليات الاستشهادية إلى نتائج مهمة منها:

أ - دفعت كثيراً من الصهاينة إلى التفكير مجدداً بحقيقة الهوية الصهيونية أهي حقيقية أم مزيفة ؟.

ب - ازدادت الهجرة المعاكسة من فلسطين المحتلة إلى الخارج، إذ وصل عدد الذين غادرها حتى منتصف عام (2004م) نحو مليون مهاجر [2] وبهذا لم يعد شعار (الوطن الآمن) أو (الدولة العبرية الآمنة) صحيحاً ولا حقيقياً، لأن الشعور بالأمن تراجع إلى حد كبير ... علماً أن الصهيوني الذي أتى إلى الأرض المحتلة تحت زعم التوراة بالأرض الموعودة كان يعتقد بأنه سيعيش بهدوء وطمأنينة لأنها من دون شعب[3] ولهذا وحده – تجري محاولات الصهاينة الحثيثة للقضاء على الانتفاضة مستغلين الوضع الدولي والضعف العربي.

ج - ازدادت معدلات الجريمة ومحاولات الانتحار فضلاً عن انتشار الأمراض النفسية والاجتماعية ... فالمجتمع الصهيوني أصبح مأزوماً وغير قادر

---

[1] انظر أضواء على انتفاضة الأقصى 10 – 12.

[2] انظر الموسوعة الفلسطينية 4/523-525 وأزمة فلسطين 145-198 وأضواء على انتفاضة الأقصى 12 – 16.

[3] انظر الموسوعة الفلسطينية 1/181-183 و 4/516-523 والمشروع الصهيوني 273 والأبعاد الفكرية والعلمية 33 – 37 والاستيطان اليهودي 17 – 30.

علـى مجابهـة المشـكلات اليوميـة الـتي خلقتهـا الانتفاضـة لـه ... بـل غـدا الصـهيوني – تحـت مزاولـة الإبـادة الجماعيـة للشـعب الفلسـطيني – متبلـد المشاعر، يمارس الإرهـاب والجريمة علـى أبنـاء هويتـه بكـل انتمـاءاتهم ... ولا سيما من يهود أفريقيا وآسيا ...

د- ازداد عدد الفقراء والجوعى[1] في المجتمع الإسرائيلي، ولم يعد كثير من أبنائه قادرين على تغطية النفقات المنزلية والشهرية ... ففـي عـام (2003م) – مثلاً – لـوحظ انخفـاض متزايد في مستويات الحيـاة وظهـر هـذا علـى ألسـنة النـاس ... ولا سـيما أن عمليـة التنميـة قـد تراجعـت، فأصـيب الاقتصـاد الإسرائيلي بخسائر بلغت نحو (10 مليارات) دولار.

صحيح أن المقاومة لم يكن هدفها تهديد المنشآت الاقتصادية الإسـرائيلية بيد أن استمرار الأزمـات الداخليـة سـكانياً واجتماعيـاً وإصـابة التنميـة بهـزات كثيرة قد أدى إلى زيادة عدد الجوعى والفقراء...

هـ - أسقطت الانتفاضة مفهوم الأمـن القـومي، ومفهـوم القـوة الإسـرائيلية المتوحشـة الـتي لا تقهـر ... فالعمليـات الاستشـهادية[2] أعـادت صـياغة المفـاهيم الأمنيـة بمثـل مـا أعـادت صـياغة الأنمـاط السـلوكية الحياتيـة للصـهاينة... ثـم ازداد الانقسـام داخـل المؤسسـة العسـكرية، فقـد امتنـع (27) طيـاراً عـن تنفيـذ أوامـر أرئيـل شـارون فضـلاً عـن امتنـاع كـثير مـن الصـهاينة عـن الانخـراط في الجيش أو الخدمة في الضفة الغربية وقطاع غزة ... إذا أهملنا الإشارة إلى فـرار عدد من أفراد الجيش من الخدمة.

ولما زادت المشكلات المتنوعة في المؤسسة العسكرية زادت معدلات تدريب المسـتوطنين في الوقـت الـذي زادت الانتقـادات الموجهـة إلى شـارون وإن لم يوجـد منـافس حقيقـي لـه حتـى الآن في الكيـان الصـهيوني بمـا في ذلـك حـزب العمـل الذي سعى إلى الإئتلاف معه لتشكيل الحكومة لأهداف محددة ....

و- نقلـت الانتفاضـة المعركـة إلى داخـل البيـت الصـهيوني فالعمليـات

---

[1] انظر أضواء على انتفاضة الأقصى 18 – 23.
[2] انظر الاحتلال الإسرائيلي 116 ت 129.

الاستشهادية جعلت ساحتها أرض فلسطين كلها بما فيها الأرض المحتلة منذ عام (1948م) فلم يعد الكيان الصهيوني قادراً على منع المقاومة من الوصول إلى تل أبيب أو غيرها مما كان يظنه أنه بأمان وسلام ... ومن ثم لم يعد – أيضاً – يقرر موعد الهجوم أو تجنبه على ما يملكه من آلة همجية وتقنيات متقدمة ... فالمبادرة انتقلت إلى الاستشهادي فهو الذي يقرر زمان العملية ومكانها ...

هكذا أثبتت عمليات الاستشهاد[1] بكل قوة واقتدار أن عملية الخوف والرعب صارت لصيقة بنفوس الصهاينة، ولا سيما حين شاركت المرأة الفلسطينية بعمليات استشهادية، أذهلت العدو وأرعبته، ووضعت الوطن الفلسطيني على عتبات النصر مصداقاً لحديث الرسول الكريم (ﷺ) ((نصرت بالرعب مسيرة شهر ...))[2].

ومن هؤلاء الشهيدات :

1- وفاء ادريس عمرها 26 سنة من مخيم الأمعري وهي أول من قام من النساء بعملية استشهادية في (2001/1/28م) أدت إلى قتل صهيوني واحد وجرح (140) آخرين ... فأحدثت عمليتها رعباً كبيراً في نفوس الإسرائيليين، بدليل زيادة التدابير الأمنية المشددة ....
2- دارين أبو عيشة طالبة تدرس الأدب الإنكليزي وقد فجرت نفسها عند حاجز شرطة في الضفة الغربية يوم (2002/2/27م).
3- آيات الأخرس عمرها 18سنة فجرت نفسها بالقدس الغربية فقتلت اثنين من الصهاينة في (2003/3/29م).
4- عندليب طقاطقة فجرت نفسها في القدس الغربية فقتلت ستة من الصهاينة في (نيسان /2002م).
5- نورا شلهوب استشهدت عند أحد الحواجز ولم تستطع تنفيذ العملية.

---

[1] انظر أضواء على انتفاضة الأقصى 24 – 30 والاحتلال الإسرائيلي 116 – 129.
[2] لسان العرب – نصر.

6- هبة عازم دراغمة قتلت ثلاثة وجرحت العشرات في أحد الملاهي يوم (2003/5/19م).

7- المحامية هند جرادات قتلت اثنين وعشرين صهيونياً في (2003/10/4م).

8- ريم صالح الرياشي، وهي أم لطفلين، وأول استشهادية من غزة فجرت نفسها عند معبر (إيرنز) فقتلت أربعة صهاينة وجرحت العشرات يوم (2004/1/14م).

9- زينب علي عيسى فجرت نفسها يوم (2004/9/22م) في مجموعة من الصهاينة ...

ولو قام أحد منا بعملية إحصائية لعدد من قتل من الصهاينة حتى مطلع (2004م) لوصل إلى (979) قتيلاً و(11356) جريحاً مقابل(4319) جريحاً من عام (1947م) إلى عام (2000م).

5- طورت الانتفاضة خططها وأنظمتها الداخلية، في الوقت الذي طورت آليات العمليات الجهادية والأسلحة المحلية الفردية، فأنتجت قذائف القسام وابتكرت الأنفاق الملغمة .....

وبهذا كله تنوعت أشكال المقاومة ولا سيما العسكرية، وهي أشكال لا تنفصل عن المقاومة السياسية والاقتصادية شعبياً وحزبياً ورسمياً محلياً وعربياً ودولياً ... ولا سيما ما يتعلق بالجدار العنصري الذي حكمت محكمة العدل الدولية في لاهاي ببطلانه.

6 - ازداد دعم الجمعيات المحلية والعربية والإنسانية لحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره واستقلاله وفق مبادئ الشرعية الدولية وقراري مجلس الأمن رقم (242) تاريخ (1967/11/22) ورقم (338) تاريخ (1973/10/22م)[1].

وكذلك ازداد دعم الحكومات ولا سيما الغربية الأوربية لهذين القرارين

[1] انظر الموسوعة الفلسطينية 320/1 – 321.

وطفقـت الجمعيـات وبعـض الحكومـات تقـدم المسـاعدات الغذائيـة والطبيـة والإسعافات والأدوات اللازمة للمستشفيات فضلاً عن الأطباء ...

ولعـل فيمـا تقـدم مـن نتـائج التصـعيد الفلسـطيني والعربـي وعلـى صـعيد الكيـان الصـهيوني فقد أثبتت مع الصحوة العربية قدرة فهم طبيعة الكيـان الصهيوني العنصري من قبل أحرار العالم وارتباط هذا الكيان بتعاليم وعقائد شـرعية شـريرة مجسـدة في التـوراة والتلمـود وكتـاب (الكـابلاه) وفتـاوى الحاخامـات: لعقـة الـدم الإنسـاني، فهـذه العقائـد عـززت همجيـة الجنـرالات وشهوتهم إلى الإبادة الجماعية وعمقت خبث الساسة وكراهيتهم للبشرية...[1] إن الكيان الصهيوني مجتمع مأزوم بالعنصرية وشرورها إنه حاقد على القيم والمبادئ والشعوب ....

وهاقد مضى على الصراع العربي الصهيوني ما يزيد على 65 عاماً من المجابهة ولم يفلح العرب في تخطي الواقع الدولي المجسد بهيئة الأمم المتحدة التي أصدرت قراراتها معترفة بالكيان الصهيوني كما في القرار (46) تاريخ (1948/4/17م) القاضي بوقف العمليات العسكرية والقرار السابق الصادر أيضاً عن مجلس الأمن رقم (181) تاريخ (1947/11/29م) القاضي بتقسيم فلسطين والقدس بين الفلسطينيين واليهود ...

ولما تحولت حماية الصهاينة من الانتداب البريطاني ثم أوربا إلى الولايات المتحدة الأمريكية وأخذ التحول الديمغرافي شكلاً مرعباً في توطين المهاجرين في فلسطين على حساب أصحابها ... وخاضت الدول العربية مع الكيان الصهيوني عدة حروب منها حرب (1956م و 1967م و 1973م) فضلاً عن حرب (1948م) وعن المقاومة المسلحة المستمرة للشعب الفلسطيني بانتفاضات متكررة منذ ثورة فلسطين (1936م- 1939م) وتشكيل كتائب الجهاد المقدس في عام (1947- 1948م) بقيادة عبد القادر الحسيني ثم انطلاق شرارة العمل الفدائي في (1965/1/1م) ... نقول: لما كان ذلك كذلك لجأ

---

[1] انظر المشروع الصهيوني 72-74 واليهود عقائد وتاريخ اجرامي 83 وما بعدها و 132 وما بعدها و 159 وما بعدها والموسوعة الفلسطينية 346/3-355.

عـدد مـن الفلسـطينيين والحكومـات العربيـة إلى اعتمـاد سياسـة المقاومـة السلمية... ثم أخذت تتشكل في نفوس كثير من الناس مفاهيم التفاضل بين المقاومة المسلحة والمقاومة السلمية .... ثم طفق كثير منهم في صميم مظاهر العجـز العربـي – يميـل إلى المسـاومة وتـبني اسـتراتيجية السـلام كخيـار وحيد....[1]

لهذا كله جاءت المؤتمرات العديدة، ابتداء بمدريد عام 1991م ومروراً باتفاقات أوسلو (1993/9/13م) واتفاقية وادي عربة عام (1994م) وقبلها كلها اتفاقية كامب ديفيد في (1979/3/26م)[2] ملبية لتبني مفهوم السلام.

ولا مراء في أن انتفاضة الأقصى قد كشفت ألاعيب الكيان الصهيوني والتفافه على أي قرار دولي لإقامة السلام فخارطة الطريق التي تبنتها اللجنة الرباعية ممثلة بالأمم المتحدة والولايات المتحدة وأوروبا وروسيا تحولت إلى خطة شـارون في فـك الارتبـاط ومفهـوم غـزة أولاً وفـق الانسـحاب الأحـادي مـن قبـل إسرائيل عندما لم تستطع أن تحدث حرباً أهلية فلسطينية [3].

ولا مراء ـ أيضاً ـ في أن الرئيس الفلسطيني الذي قتلته إسرائيل بالسم في يوم الجمعة (29/ رمضان/ 1425هـ /2004/10/12م) لأنه رفض التنازل النهائي عن القدس وقد وقع هو الآخر في فخ التسويات الإسرائيلية والجلوس إلى طاولة المفاوضات برعاية الولايات المتحدة المنحازة إلى إسرائيل ... على الرغم من نجاح خططه بالانتقال من خارج الأرض المحتلة إلى داخلها ...

وبناء على ذلك بدأ سؤال كبير يراود كثيراً من الناس شرقاً وغرباً ولا سيما أهل الفكر والثقافة والسياسة: ما مصير انتفاضة الأقصى، وقد تسلم محمود عباس رئاسة منظمة التحرير الفلسطينية وهو أحد مهندسي اتفاقات السـلام مـع زميلـه رئـيس وزراء السـلطة الفلسـطينية أحمـد قريـع والواصـف للمقاومين بالقتلة والإرهابيين [4]؟

---

[1] انظر الموسوعة الفلسطينية 1/150-96 واليهود عقائد وتاريخ اجرامي 319-371.

[2] انظر الموسوعة الفلسطينية 3/625-632 والمشروع الصهيوني 371.

[3] انظر حق العودة بين القرار 194 ووثيقة جنيف – 28-33 ولا سيما فيما يتعلق بخارطة الطريق.

[4] انظر حق العودة بين القرار 194 ووثيقة جنيف 33 في ما قاله محمود عباس في بيانه، وما قاله المؤتمرون في شرم الشيخ .... ثم استحضر التصريحات الكثيرة له حول انهاء عسكرة الانتفاضة ثم نزع سلاح المقاومة وفق ==

ما الآفاق التي ستنتهي إليها هذه الانتفاضة ومن ثم الشعب الفلسطيني والعربي برمته ؟! وما قدرتها على الاستمرار في ضوء ذلك كله وقد أخذت الأصوات تعلو هنا وهناك بإنهاء عسكرة الانتفاضة ؟! وما حقيقة هذا المصطلح؟!

وهذا كله ينقلنا إلى الحديث عن الآفاق المستقبلية:

3 ـ آفاق الانتفاضة:

ليس هناك عاقل يشك في أن انتفاضة الأقصى التي دخلت عامها الخامس في (2004/9/28م) قد لاقت عمليات إضعاف كثيرة من الداخل والخارج نتيجة ضغوط شتى ومزاعم عديدة ومتنوعة[1] .... فجرت مساومات حثيثة لإسقاط مفهوم المجابهة العسكرية واللجوء إلى المجابهة السياسية... لهذا بدأ عدد من قادة السلطة الفلسطينية يدعون بصراحة إلى إنهاء عسكرة الانتفاضة بحجة انجاح العمل السياسي. وقد نجحوا في ذلك حين جاءت (خارطة الطريق الأمريكية) ملبية لأغراضهم، والتي أدت إلى توقف الانتفاضة[2].

ونعتقد بأن قيادات الانتفاضة بكل تياراتها قد تجاوزت ذلك كله حتى الآن بحنكة عالية وقدرة كبيرة على المناورة ولم تقع في أي شرخ داخلي.... وأظهرت أن أي عمل مقاوم ينبغي أن يظل إنجازاً وطنياً وقومياً ، شعبياً وعربياً وانسانياً... ولا سيما أن مقاومتها للاحتلال الاستيطاني الصهيوني دخل في صميم معادلة الوجود والحياة فضلاً عن مفاهيم العقيدة الدينية التي كفلت حق الدفاع عن الذات...

ثم إن تاريخ المجابهة منذ الوعد المشؤوم لبلفور في (1917/11/2م) وثورة البراق في (1929/8/23) حتى انطلاق انتفاضة الأقصى (2000/9/28م) قد

ما بيناه للمرحلة الراهنة.

[1] انظر انتفاضة الأقصى (مقدمة النصر) 127 ـ 149 وانظر فيه خطة (جورج تينيت لوقف إطلاق النار) 158 ـ 161.

[2] انظر مشروع خارطة الطريق في كتاب (انتفاضة الأقصى ـ مقدمة النصر) 207 ـ 211.

أكد استحالة عيش الضحية مع القاتل، وعزز عمليات الصمود والصبر والإرادة لاستنهاض القدرات والانتفاض على الجلاد الغازي الغاصب للأرض والحياة القائم على التعصب العنصري التلمودي الاستعماري الاستيطاني الوحشي[1].

ونرى أن انتفاضة الشعب الفلسطيني قد أصبحت طقساً تقليدياً على مر التاريخ. ولهذا قد تخبو يوماً أو تتوقف ولكنها تغدو ناراً تحت الرماد تتأجج إلى أن يحين زمانها فتتوقد من جديد على أيدي المناضلين الشرفاء لهزيمة الشر الموجود في العالم والمتجسد بالكيان الصهيوني ... ولهم من سجلهم التاريخي المثل الأكبر منذ اليبوسيين – سكان القدس – حتى اليوم ومنه :[2].

1- لقي الإسكندر المقدوني الأكبر مقاومة مسلحة حين غزا منطقة غزة ثم عكا.
2- اندحر الصليبيون على أسوار عكا بعد أن نزعت شوكتهم في معركة حطين بقيادة صلاح الدين الأيوبي سنة (583/هـ /1187م).
3- انهزمت على أرض فلسطين / أرض الرباط والجهاد/ جيوش هولاكو الجرارة.
4- انهزمت على أسوار عكا سنة (1799م) مدافع نابليون ومكائده.

إنها سلسلة تاريخية طويلة من مقاومة الغزاة والطامعين التي انتهت بالاحتلال الأوربي للوطن العربي وديار الإسلام فكانت فلسطين والأردن ومصر والسعودية وغيرها من نصيب الانتداب البريطاني وذلك نتيجة اتفاق (سايكس بيكو) الذي تبودلت وثائقه في (9- 1916/5/16م) بين بريطانيا وفرنسا وفيه أثر كبير للصهيونية[3]

ثم حلت أوربا مشكلتها بوجود اليهود على حساب العرب الفلسطينيين وظهرت مساندتها لليهود بأنماط عديدة. ومن ثم ظهرت المقاومة بأشكال شتى؛ لأن مقاومة الاحتلال والغزو والاستلاب مشروع في السنن الكونية وفي

---

[1] انظر الموسوعة الفلسطينية 1/415-418 و 614 وسورية الاستهداف والمؤامرة 54 ـ 57.

[2] انظر الموسوعة الفلسطينية 1/150-196 و 2/248-250 و 3/290-305 و 368 و 389 و 398 و 4/609 و 611 و 625 واليهود عقائد وتاريخ إجرامي 506-512 والصهيونية غير اليهودية 108.

[3] انظر الموسوعة الفلسطينية 2/534 والصهيونية غير اليهودية 169-171 وسورية الاستهداف والمؤامرة 54..

الدساتير والتشريعات الدولية وقوانينها. فإذا كان الوطن العربي يمثل قلب العالم فضلاً عما تختزنه أرضه من خيرات طبيعية وبشرية، فإن فلسطين تعد واسطة العقد لهذا القلب، وهي الواسطة التي انفرد بها الوحش الصهيوني ليفتك بها بممارسات شاذة وهمجية، على حين طفق عدد من العرب والمسلمين يعمدون إلى التطبيع معه أو مهادنة رغباته.

من هنا يصبح التساؤل عن آفاق الانتفاضة وتجلياتها ضرورة حتمية لاستمرارها حتى تحقيق الأهداف المنشودة ويمكن أن تتجلى تلك الآفاق بما يأتي:

1- التمسك الثابت بالوجود والأرض باعتبارهما حقاً شرعياً إلهياً ودينياً.... ورفض الاعتراف بأي قانون دولي يتعارض مع الحق الإلهي في الوجود أو ينال من قدسية الرجوع إلى أرض الأجداد في سياق وطن حر وكريم لا يرضخ للابتزاز والاستسلام.

فإذا كانت نصوص الإعلان العالمي لحقوق الإنسان – المادة الثالثة – قد كفلت لكل فرد حق الحرية والأمان الشخصي في إطار حق الحياة، فتطابقت مع الحق الإلهي فإن من حق الشعب الفلسطيني والأمة العربية والإسلامية الدفاع عن وجودها، ومقاومة أي شكل من أشكال الاعتداء والاحتلال ومقاومة كل أنماط التطبيع الثقافي والاقتصادي[1].

فالقوانين الدولية التي تجسدت خلال تاريخ البشرية تفرض ضمان حياة الشعوب في العيش الحر الكريم، وإقامة التوازن الحيوي المعبر عن العدل والحق الإلهي في العيش لئلا تطغى دولة على أخرى بما تمتلكه من قوة فائضة... وعلى الأمم المتحدة والهيئات الاقليمية ألا تصبح أدوات تسخر بأيدي الدول القوية للسيطرة على الدول الصغيرة والشعوب المستضعفة وهي التي نصت قوانينها على حق تقرير المصير ومشروعية النضال الوطني للشعوب المحتلة كما في قرارات الجمعية العامة كالقرار رقم (2625) والقرار

---

[1] انظر الموسوعة الفلسطينية 2/250-262.

(3314) و(3236)[1].

2- التربية الوطنية القومية[2] وربطها بالعمق الإسلامي والإنساني وتجسيد انتفاضة الأقصى بها ، أي محاولة تطبيق مفهوم المثل العربي القائل: خيامنا منفصلة وقلوبنا متحدة ... وتبدأ عملية التوحيد من الداخل بالالتفاف حول المقاومة وتطوير آلياتها وأدواتها وأنماطها فكل ما في الوطن يبرز عملية التجميع لا التفريق ... وبهذا ينزع الإسفين الذي دقه الصهاينة وأمريكا بين المسلمين والمسيحيين من عرب فلسطين ... ومن ثم تتعمق الصلة بالعرب والمسلمين خارجها ، وقد أدركت – منذ وقت مبكر- منظمة المؤتمر الإسلامي هذا الاتجاه منذ نشأتها في (22- 1969/9/25م) نتيجة إحراق المسجد الأقصى من قبل غلاة الإجرام الصهيوني في (1969/8/21م).

فقد اجتمعت في الرباط بدولة المغرب (25) دولة عربية وإسلامية في أول دورة لها للتشاور والتعاون والتنسيق والتوحد وتلاحم المواقف لصيانة المقدسات وحماية القيم الروحية والخلقية من السقوط ...

ثم أرست الدورة الثالثة في (25- 1981/1/28م) في مكة المكرمة بالسعودية أول استراتيجية كاملة للعمل الاسلامي والحفاظ على مقدسات القدس وعدم تمزيقها وجاءت الدورة الرابعة في (16- 1984/1/19م) لتدعم القضية الفلسطينية باعتبارها جوهر الصراع العربي الصهيوني وتنفيذ قرارات لجنة القدس ... ثم أكدت الدورة الخامسة في الكويت (26- 29/ك1987/1م) دعم القرارات الشرعية الدولية وقضية القدس والسلام العادل والشامل وعقدت تحت عنوان (دورة التضامن الأسيوي) ...

أما الدورة التاسعة (12- 2000/10/13م) فقد عقدت تحت شعار (انتفاضة الأقصى الشريف) فأدانت جرائم الصهيونية إدانة شاملة واسعة...[3].

ثم إن التربية الوطنية القومية الإسلامية الإنسانية تعني الثقة بكل موقف

---

[1] انظر الموسوعة الفلسطينية 553/1-555.
[2] انظر الفصل الخامس مما يأتي.
[3] الموسوعة الفلسطينية 333/4-336.

للآخر في إطار الانتماء وعدم الاتهام والتخوين، فالوحدة الداخلية وتعميق صلتها بالوحدة العربية والإسلامية ثم أحرار العالم الشرفاء أساس آفاق العمل المستقبلي للانتفاضة ... فالحاجة إلى التوحد ودعم المقاومة أينما وجدت – وبكل الأشكال والوسائل – واجب ديني وإنساني يستند إلى الحق الإلهي والتشريعات والقوانين الدولية في حق الحياة والوجود ... وهذا يتطلب الاستمرار بالحوار الحر والديمقراطي بين أبناء الوطن لإيجاد علاقة عضوية صحيحة بينهم، ثم بينهم وبين البعد العربي.

3- الوعي والخبرة والحنكة في التعامل مع الشرعية الدولية وقوانينها سواء أكان ذلك في قرارات الأمم المتحدة ومنظماتها أم في قرارات المنظمات الاقليمية وعلى المستويات كلها دولاً وجمعيات وأحزاباً ... فما زلنا نعاني حتى اليوم من تفسير كلمة واحدة في القرار (242). ثم إن القوانين الدولية كاتفاقية (جنيف) لعام (1949م)[1] - مثلاً- تلزم مادتها رقم (136) باتخاذ عقوبات جزائية على كل من يأمر أو يشارك في التصفيات الجسدية أو الإعدام خارج القانون ... ويلزم كل طرف متعاقد بملاحقة المتهمين وتقديمهم للمحاكم مهما كانت جنسياتهم ... فإذا ما تحلى الشعب الفلسطيني والعربي بالوعي والخبرة والحنكة حصن نفسه من القوانين التي يتلاعب فيها الصهاينة والامبراليون كما يشاؤون.

لذا من حق الشعب الفلسطيني والأمة العربية والإسلامية أن تقاضي الدول المعتدية والأفراد المتوحشين وفق القوانين الدولية، فمثلاً جاء في بروتوكول جنيف المؤرخ في (مايو/أيار/989م) وفي المادة العاشرة مقاضاة أولئك وحق الدفاع عن الوجود والحياة من قبل المعتدى عليه[2].

ولما كانت الأمم المتحدة مرجعية دولية لحل النزاعات الدولية وفق قراري الجمعية العامة (2625) و (3314)[3] كان على العرب والمسلمين استغلال

---

[1] راجع ما تقدم 125 – 127.

[2] االموسوعة الفلسطينية 2/250-261.

[3] راجع ما تقدم 28 والموسوعة الفلسطينية 1/553 – 555.

ذلك أحسن استغلال بكل حنكة ووعي ودراية، ولاسيما أن إسرائيل هي الدولة الوحيدة في العالم التي أُنشئت بقرار من هيئة الأمم المتحدة ثم غدت الدولة الوحيدة الخارجة عن قراراتها وقوانينها بما فيها قرار التقسيم في (1947/11/29م) ووعد بلفور المشؤوم في (1917/11/2م)

4- دراسة آليات التعامل مع الغرب وأمريكا ودول العالم وفهم اللغة والأساليب التي تمارسها كل دولة إزاء الصراع العربي الصهيوني ... ويحتاج هذا إلى قيام القيادات العربية والمثقفين والمناضلين بحملة مدروسة موثقة بالأدلة التاريخية والقانونية والعلمية والموضوعية لكشف المغالطات التاريخية التي وقعت فيها هذه الدول ... ولا سيما حين ربطت الولايات المتحدة الأمريكية وبعض الدول الأخرى إثر أحداث (2001/9/11م) بين العرب والإسلام من جهة وبين الإرهاب من جهة أخرى ... وقد أطّرت إدارة بوش الابن /هذه الادارة اليمينية المتصهينة كثيراً من دول العالم في هذا الاتجاه مستغلة أوضاعها الداخلية كما هي حرب الشيشان في روسيا.

ولهذا فإن هناك عدواً واحداً – كما تزعم – قد ظهر بعد سقوط ما عرف بالاتحاد السوفييتي. وهو يتجلى بالإرهاب الدولي الذي تلصقه تلك الإدارة بالعرب والمسلمين ـ خاصة ـ زاعمة أنهم ينالون من العالم الحر والديمقراطية والتقدم ...

وحين استمالت إدارة بوش بعض الحكومات العربية، منصاعة لموقفها درءاً لدفع تهمة الارهاب عنها فإن أرئيل شارون قد نجح في تضليل كثير من دول العالم حين ربط المقاومة الفلسطينية بمفاهيم الارهاب الدولي الذي يقف العالم كله ضده ... فادعى أن الفلسطينيين مسؤولون عن الارهاب الذي يوجهونه نحو الدولة الديمقراطية الوحيدة في المنطقة إذ قال لبوش الابن في زيارة لواشنطن : ((إن ما حصل للولايات المتحدة تعيشه إسرائيل يومياً... إنها معركة واحدة ضد الارهاب تجمع بين إسرائيل وأمريكا والعالم الحر))... وكان إيهود باراك قد قال من

قبل لإذاعة (B.B.C) ((الدين الإسلامي دين ارهاب))[1].

ولهذا كله يستوجب على العرب والمسلمين والشرفاء في العالم أفراداً ودولاً وأحزاباً مواصلة دعم المقاومة الفلسطينية والعمل الفوري على إيقاف التطبيع الذي يجري باتجاهات متنوعة مع الصهاينة وتفعيل المقاطعة الشاملة لإسرائيل وأمريكا وكل دولة تعادي القضايا العربية.

5- استثمار الانجازات العديدة التي قدمتها انتفاضة الأقصى لكشف ما تتبناه دولة الكيان الصهيوني من مبادئ وسياسات إبادة وحشية جماعية منظمة... مثل:

أ - تعرية مقولة ربط المقاومة بالإرهاب ولا سيما الارهاب الدولي الذي تقوده الولايات المتحدة ومن ثم كشف زيف ما تقوم به إدارة بوش المتغطرسة والمتصهينة، التي تريد السيطرة على العالم تحت اسم (النظام العالمي الجديد – العولمة)[2] ، ومحاربة الديكتاتورية والتخلف في المنطقة العربية والإسلامية وإشاعة الحرية والديمقراطية فيها...

ب - الرد على خرافة المقولة التاريخية حول الأرض الفلسطينية الخالية من الشعب وأرض الميعاد، فالشعب الفلسطيني ثابت الجذور تاريخياً وواقعياً في فلسطين، على حين أن الصهاينة مجموعات غازية طارئة عليها، فعلى الرغم من تدفق الهجرات اليهودية إلى فلسطين حتى عام (1948م) لم يزد عدد اليهود الصهاينة على (65000) ألف يهودي على حين كان تعداد الفلسطينيين (1415000) ثم جاءت نكسة حزيران (1967/6/5م) فطردت إسرائيل (465) ألف فلسطيني من الضفة والقطاع ... لكنها لم تستطع أن تمنع ازدياد عدد السكان الفلسطينيين الأصليين داخل الأرض المحتلة عام (1948م) وإن فرضت عليهم الجنسية الإسرائيلية أو تمنع ازدياد سكان الضفة والقطاع إذ أصبح عددهم عام (1967م) نحو (1400000) ثم بلغ عام (2002م) (3.5)

---

(1) انظر دوائر الخراب : الاستشراق والعنصرية الصهيونية 264.

(2) انظر الموسوعة الفلسطينية 1/183-192 والمثقف العربي وآفاق الواقع 52 وما بعدها، والثقافة القومية وتداعيات العولمة 78-82.

مليون، وفي الجزء الشرقي من القدس وحده (220) ألف فلسطيني فضلاً عن أن إسرائيل أبعدت (1.5) مليون فلسطيني بين عام (1967- 2004م) منهم (265) ألف شاب[1]. وبهذا كله كانت المرأة الفلسطينية تمثل القنبلة الديمغرافية السكانية في وجه الصهاينة لكشف زيف الأرض الخالية فدولة الكيان الصهيوني سعت جاهدة إلى تغيير الخارطة السكانية لفلسطين بل لبنان أيضاً وقد خطط لذلك كله، إذ كتب ديفيد بن غوريون في (1948/5/21م) في يومياته عن لبنان: ((إن تفوق المسلمين في هذا البلد مصطنع ويمكن أن يقلب بسهولة على أن تقام في هذا البلد دولة مسيحية سيكون نهر الليطاني حدها الجنوبي))[2].

إن خطط الصهاينة واضحة في احتلال جنوب لبنان وتغيير الخارطة الديمغرافية على حين كانوا واثقين من تغييرها بفلسطين المحتلة مستندين إلى الهجرات المتتالية لليهود إلى فلسطين وممارسة الإبادة الجماعية الوحشية للفلسطينيين، وهو ما ارتكبه شارون يومياً ضد سكان الضفة الذين بلغوا (2300000) عام (2002م) كما بلغ عدد سكان غزة ما يزيد على (1200000) فلسطيني فيكون المجموع كما قلنا (3.5) مليون فإذا كان الاستيطان مخططاً له منذ عهد بعيد بمشاريع كثيرة ومدروسة[3] فإن الواقع الفلسطيني قد نال منه.

ج - الرد على خرافة (شعب الله المختار) على اعتبار أن اليهود المتصهينين إنما يجسدون قمة النزعة العنصرية نحو البشرية ... وعلى الرغم من أن الجمعية العامة ألغت قرارها (3379) تاريخ 1975/11/10 الذي عد

---

[1] انظر الموسوعة الفلسطينية 181/1-183 و 239-241 و 583-587 و 591-599 و 516/4-523 وأبعاد القضية الفلسطينية 17-19 و 35 وأزمة فلسطين 182-189و 208-209 والإيديولوجية الصهيونية 70/2-71 والصهيونية غير اليهودية 270 والاستيطان الصهيوني 90-92 وأسطورة هرمجدون 170واليهود عقائد وتاريخ إجرامي 291 وما بعدها و489-492.

[2] أزمة فلسطين 129.

[3] انظر الموسوعة الفلسطينية 219/1-235 والاستيطان الصهيوني 81-98 والصهيونية غير اليهودية 267-272 وأسطورة هرمجدون 116-123.

الصهيونية شكلاً من أشكال العنصرية[1]، فإن عنصرية بني صهيون متأصلة، وهي تعد خطراً على البشرية كلها، لأنها تمثل قمة التمييز العنصري فضلاً عن كونها عقيدة استعمارية توسعية. ما جعل الدارسين يربطون بينها وبين النازية الهتلرية خاصة[2]. فخطرها لن ينحصر في المنطقة العربية إذا حققت أطماعها فيها بل سينال العالم كله.

د- استغلال الجرائم الصهيونية البشعة في ارتكاب الإبادة الجماعية الوحشية ومصادرة الأراضي وجرف المزروعات بحجج أمنية واهية – كما هو الحال في إقامة الجدار العنصري الذي سبقت الإشارة إليه وإلى جرائم الصهيونية – لفضح كل ما تقوم به إسرائيل من ممارسات همجية منظمة باعتبارها دولة خارجة عن القانون والشرعية الدولية[3].

هـ - فضح كذبة بناء هيكل سليمان مكان المسجد الأقصى ولا سيما ما يتعلق بخرافة حائط المبكى (طوله ثلاثون متراً) وهو جزء لا يتجزأ من الجدار الغربي للحرم القدسي الشريف (طوله مئة متر وعلوه عشرون) وهو المعروف بحائط البراق...[4].

وقد أكدت حفريات اليهود أنفسهم بطلان مزاعمهم حتى صرح العالم الإسرائيلي في الآثار (إسرائيل فلنكشتاين) في (آب) لعام (2004م) بأنه لا صلة لليهود بالجدار وأن الهيكل خرافة توراتية وكان عالم الآثار اليهودي (بنيامين مازار) قد كتب مثل ذلك في تقرير له أصدرته الجمعية الأثرية الإسرائيلية سنة (1971م)[5].

و - القيام بحملة واسعة ومدروسة لوضع حد لاستغلال مفهوم العداء للسامية وكشف المغالطات السياسية والدينية للربط بين المسيحية واليهودية[6]

---

(1) انظر العنصرية والإبادة الجماعية ـ نص القرار ـ 215 ـ 216، وانظر فيه الكلام على إقراره وإلغائه 103 ـ 116.

(2) انظر الموسوعة الفلسطينية 1/219-235 والأبعاد الفكرية والعلمية 9 ـ 33 والاستيطان الصهيوني 81-98 والصهيونية غير اليهودية 267-272 وأسطورة هرمجدون 116-123.

(3) انظر العنصرية والإبادة الجماعية 11 ـ 21.

(4) انظر الموسوعة الفلسطينية 1/219-222 و 2/136 وأسطورة هرمجدون 128.

(5) انظر مجلة فلسطين المسلمة – مقال (محمد جمال القدسي) – عدد أيلول 2004م.

(6) انظر الموسوعة الفلسطينية 2/531 والإيديولوجية الصهيونية2/132-133 وأسطورة هرمجدون 37-66

==

وكشف عملية استغلال مفهوم الحرية والديمقراطية. فقد راج استعمال هذا المفهوم للسيطرة على الآخرين، على الرغم من أنه لا يمثّل إلا ديمقراطية الذئاب[1].

6- السعي الجاد لتأصيل الثقافة العربية والإسلامية في إطار الحداثة الإنسانية وكشف الأضاليل الكبرى حول التراث العربي والإسلامي ولا سيما ما يتعلق بالجهاد، أو المقاومة ... فالتراث ممتد فينا وجزء لا يتجزأ من دورة الحضارة الإنسانية في الماضي والحاضر والمستقبل ... وعلينا ألا نخضع تحت أي تصور معاد لعملية تغيير تمارس قسراً على ثقافتنا ومناهجنا وعاداتنا .... فتراثنا لم يكن يوماً منغلقاً على الآخر، ولم يمارس عليه عمليات القهر والتبعية والاستلاب كما يحدث لنا مع الغرب اليوم....

وهذا كله يدعونا إلى الإعداد الثقافي الكافي لأبناء الأمة وربطه بالحق الإلهي والطبيعي في الدفاع عن الوجود والحياة مهما طال الزمن[2] بوصف المخطط الصهيوني الامبريالي الغربي والأمريكي ليس وليد اللحظة الراهنة في القضاء على كل ما هو عربي وإسلامي[3]، إنه نتيجة جهود تاريخية وفكرية واجتماعية وسياسية وعسكرية طويلة ومستمرة ومركزة ... لأن العرب والمسلمين وحدهم من يملكون نظرية متكاملة الثقافة، ومتوازنة بين الرغبات المادية والروحية ... ولهذا كله فإن الحضارة الغربية برمتها- وإن أحرزت انتصارات شتى في مجالات متعددة، مادية غالباً- حضارة مادية جسدية تعلي من قيمة الإنسان الأرضي المتفوق، وهو ما تتبناه الصهيونية عينه، على حين تدهورت القيم الروحية والخلقية بشكل لا نظير له ... داخل الكيان الصهيوني بمثل تدهورها في المجتمع الغربي الذي يشجع المنحرفين فيه، كما فيه ولاية كاليفورنيا –مثلاً- التي كثر فيها الشواذ ...

7- إيلاء الإعلام والتقنيات المتقدمة والفضائيات العناية القصوى

والصهيونية غير اليهودية 60-64 و 116 و 146 و 169 و 244.

(1) انظر المشروع الصهيوني 80.

(2) انظر الفصل الخامس مما يأتي.

(3) راجع كتابينا (ملامح في الأدب المقاوم 25 – 28 و 43 – 44) وتجليات النكبة والمقاومة 24 – 53.

وتسخيرها لكشف أضاليل اليهود والإمبريالية، وما تمارسه على شعبنا داخل الأرض المحتلة ... وألا يصبح مشهد الدماء مشهداً مألوفاً تتبلد عنده المشاعر والأذهان ....

إن محاولة كسب الرأي العام الدولي لا يتم إلا بالقيام بعمل إعلامي فكري منظم وفاعل في المحافل كلها مستفيداً من كل نظم المعلومات المستحدثة. فالعرب أصحاب حق، على حين أن المحتل الصهيوني غاصب ومعتد، في الوقت الذي ينبغي أن تمارس فيه أجهزة الإعلام والصحافة والمنابر الحرة في المؤتمرات والندوات كشف المشاريع الاستسلامية التي تؤدي إلى ضياع الأوطان والثروات والكرامة والحرية ...

8- اتخاذ القدوة الحسنة في القيادة: إن القيادة الحكيمة والواعية والصادقة والمناضلة المتشبثة بالثوابت الوطنية والقومية دون احتكار لسلطات القيادة في المقاومة وغيرها تغدو قيادة شعبية ودولية ولا سيما إذا كانت ممثلة لمؤسسات الحرية والديمقراطية... وفي إطار دورات تشريعية تكفل تنمية الكوادر القيادية والمنافسة المستمرة فيما بينها لتظل القدوة الحسنة مستمرة...

إن مثل هذه القيادة التي تنفتح بتوازن فاعل على الحوار الداخلي والخارجي، وعلى قيادات النضال التحرري تعد القدوة الحسنة للمقاومة وهذا يعني أن الانشغال بالرموز التاريخية للقادة قد ذهب إلى غير رجعة، وذهب معه التنازع على سلطتها وصلاحياتها وقيادتها لعملية البناء والتحرير والمقاومة. فالوطن والأمة ينبغي أن يعزز مفهوم القدوة الحسنة، في الوقت الذي يدفعان أبناءهما إلى الاحتذاء بها وتمثّلها....

إن سد الخلل في الوحدة الوطنية الداخلية باتخاذ القدوة الحسنة يقوي النزوع الإنساني الحر لدى المقاومين والمواطنين على السواء ويعمق صلتهم بمحيطهم العربي والإسلامي والدولي، ويمنع من نفوسهم دوافع انقضاض أحدهم على الآخر.

ولهذا لا يضير هذه القدوة أن تمارس بصدق مفهوم الديمقراطية والحرية في الانتخابات المباشرة من قبل الشعب، لأن تاريخها النضالي وسلوكها القويم سيجعلها أبداً القدوة المرجوة على أن ينظم الدستور سنوات عملها في إطار المنافسة الحرة النزيهة على القدوة الحسنة لخير الوطن والمقاومة.

ومن ثم تنتهي – وإلى الأبد- مزاعم فقد العرب للديمقراطية، وبوصفها الدافع للغرب عامة وأمريكا خاصة للقيام بمهمة إرساء الديمقراطية للشعوب المغلوبة على أمرها، كما هو حاصل في العراق، وكما حصل في أفغانستان ودول أخرى كثيرة من قبل ... إذ تدخلت أمريكا مباشرة في شؤونها وقلبت حكوماتها ... وأخذت تمارس مفاهيم الحرية و الديمقراطية التي تعزز مصالحها وتضمن ولاء الحكومات التي تنتجها ....

9- اتخاذ الحركات المناضلة للاحتلال، وكذلك الأحزاب والشعوب في كل مكان وزمان رمزاً وقدوة للسير على طريقها في التحرر من المحتل الغاصب سواء أكانت حركات سلمية كما فعل غاندي، أم حركات مسلحة وهي كثيرة وآخرها ما قامت به المقاومة الوطنية في لبنان بقيادة (حزب الله)..

وهذا يفرض على الشعب الفلسطيني خاصة والعربي عامة التحلي بالإرادة والصبر والعزيمة التي لا تلين أمام جبروت القهر و الظلم والفتك الوحشي للآلة العسكرية القاتلة ...

وأخيراً نقول: إن ممارسة النضال التحرري لا تكون بنت ليلة وضحاها، فدرب الكفاح الوطني والإنساني درب طويل وشائك ومليء بالألغام والتضحيات. وما شعب فلسطين ببعيد عن هذا السبيل. فهو الذي توارث النضال جيلاً إثر جيل، فإذا صارت الانتفاضة عنده طقساً عقيدياً، فلأنه مازال يدافع عن وجوده .... وكان المسيري قد قال : ((وبما أن الهجمة الصهيونية على الفلسطينيين كانت بهذه الشراسة فالمقاومة العربية أخذت أشكالاً واضحة أيضاً ... فالفلسطينيون لم يكن أمامهم سوى رد الهجوم الذي شن عليهم دفاعاً عن أراضيهم وحقوقهم القومية ضد المستعمرين الصهاينة. ومثل هذه المقاومة الحقيقية والعميقة لها – بلا شك – أبعادها الأخلاقية المطلقة، حيث إنها في النهاية تأكيد لكرامة الإنسان ولإرادته في مواجهة العنف والقهر المادي، إلا أنها – مع هذا – ليست غيبية. فهي تضرب بجذورها في الواقع الاجتماعي والتاريخي، وتعبر عن نفسها من خلال أشكال سياسية وعسكرية مألوفة[1].

---

[1] الإيديولوجية الصهيونية 132/2.

وستظل أرض الجهاد والرباط خزاناً لانتفاضات جديدة فيما لوخمد أوار انتفاضة الشعب الفلسطيني لأمر ما، ولا سيما بعد موت الرئيس ياسر عرفات، ومجيء محمود عباس الذي أصَرَّ على إنهاء مفهوم عسكرة الانتفاضة ونزع سلاح المقاومة وإيلاء التسوية السلمية مكانتها الدولية، على حين يتلاعب الصهاينة بكل عملية للسلام. ولهذا نرى أن أي مقاومة للشعب الفلسطيني إنما هي صرخة مدوية للدفاع عن الكرامة والوجود والمقدسات ورفض ملموس للقهر وحياة القيد والذل والتجويع والتهجير والتشريد، والقتل الوحشي ....

وستظل انتفاضة الأقصى وكل مقاومة أتت بعدها معجزة الشعب الفلسطيني البطل الصامد باعتبارها غدت طقساً يتعبده إلى أن يحقق انتصاره في الحرية والحياة تحت الشمس ... مصداقاً لقوله تعالى : « الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا اللّه .... ولينصرن اللّه من ينصره إن اللّه لقوي عزيز » (الحج / 40/22).

وهذا يعني أن ثقافة المقاومة إنما هي ثقافة وجود ودفاع عن الكرامة الإنسانية، والسيادة الوطنية والقومية، وهي تتخذ أساليب شتى، لتصل إلى تحقيق الأمن والطمأنينة للبشرية.

ومن هنا يتساءل أحدنا: أين تقع ثقافة السلام من ثقافة المقاومة؟ وما الفرق بينها وبين ظواهر الاستسلام؟ هذا ما يتناوله الفصل الرابع والأخير.



الفصل الرابع:

ثقافة المقاومة بين السلام والاستسلام

- تقديم:

1 - مشروع الهيمنة الأمريكية الصهيونية.

2 - تاريخ عملية السلام.

3 - مفهوم السلام والاستسلام بين ثقافة المقاومة والعولمة.

4 - سقوط الأسطورة واحتضار الخرافة.

5 - المقاومة استنهاض وانتصار.

الفصل الرابع:

ثقافة المقاومة بين السلام والاستسلام

ـ تقديم:

ليس للثقافة تعريف واحد عند الدارسين قديماً وحديثاً، ولكن أي تعريف لها كان يشتمل على دلالة الحذق والمهارة والفهم. ولعل أشهر تعريف سار بين الناس تعريف (تايلور) ومفاده أن الثقافة مجموع المعارف والعلوم والآداب والفنون والخبرات والتكيفات والمهارات والعادات والأخلاق والقوانين التي يكتسبها المرء..[1]

وباختصار نرى أنها كل مدخلات الذهن البشري وتحويلها إلى سلوك وتصرفات، وأفكار وإبداعات بوصفها أنساقاً تغذي الذاكرة البشرية.

وللثقافة أنواع وتجليات باعتبارها أنساقاً من القيمة والتقنيات عند الشعوب[2]، فمن أنواعها الثقافة الوطنية والقومية والإنسانية؛ والفنية والأدبية والعلمية، والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والثقافة التراثية والحديثة، والرجعية والتقدمية، و... وثقافة الاحتراف والمهنة و...

وفي هذا المقام لابد أن نستوعب مشاريع الهيمنة الأمريكية الصهيونية وندرك وظائفها العداونية، لتشكيل مفهوم الوعي التاريخي الفردي والجماعي لإدراك الحقيقة الكاملة.

1 ـ مشروع الهيمنة الأمريكية والصهيونية[3]:

---

[1] انظر المعجم الأدبي ـ جبور عبد النور ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ 1984 ـ ط 2 ـ ص 81.

[2] انظر قاموس مصطلحات الأنثولوجيا والفولكلور ـ إيكه هولتكرانس ـ ترجمة د. محمد الجوهري ود. حسن الشامي ـ دار المعارف ـ ط 2 ـ ص 149 ـ 153).

[3] انظر ما يأتي 188 ـ 191.

يركز الحديث ـ هنا ـ على سياسة الإدارة الأمريكية الساعية إلى فرض كل ما يحقق مصالحها، سواء تمثل بتدجين النظام العربي الرسمي، أم بخفوت الصوت الشعبي، حتى بات انتشار القوات الأمريكية أمراً واقعاً في الأرض العربية، وبات التدخل في الشؤون الداخلية للحكومات والدول أمراً لا يماري فيه أحد كما يتضح للناس جميعاً من تنصيب حكومة هنا أو هناك أو التحكم بأحوال البلاد والعباد؛ والتدخل في شؤون عدد من الحكومات العربية حتى أضحت حكومات معلبة فاقدة لكل الشروط الموضوعية. وهي ـ اليوم ـ تقف مساندة بعض اللبنانيين الذين اختاروا الوقوف إلى جانب الدوائر الغربية والأمريكية، تحت مزاعم السيادة الوطنية ما أدَّى بهم إلى التنكر لسورية ودورها القومي النبيل في لبنان. ولعل ذلك دفع بعض الشخصيات اللبنانية إلى مدّ جسور اللقاء مع الكيان الصهيوني، أو بعض رجالاته. ولا شيء أدل على هذا من بعض مواقف النائب اللبناني وليد جنبلاط حين التقى النائبة الصهيونية كوليت أفيتال في فرنسا يوم الاثنين (2006/8/28م) على هامش اجتماع للحزب الاشتراكي الفرنسي. وقد صرحت هذه النائبة ـ آنذاك ـ بأن السيد وليد جنبلاط أظهر عداءً عظيماً لسورية ونظامها ولحزب الله وقائده، وكشف عن نفاق وكذب وتدجيل لا نظير له عند السياسيين، وفق ما نشرته جريدة (الشرق الأوسط) في (2006/8/29) وصحف أخرى (كالنور) و(الوحدوي 2006/9/1م) إثر ذلك التاريخ.

ومازال أمثال جنبلاط من اللبنانيين والعرب يقامرون على القوة الأمريكية الفائضة في مختلف المجالات وهيمنتها على المنظمات الدولية بما فيها مجلس الأمن الذي صار أداة بيدها، بمثل ما يقامرون على القوة الصهيونية لنزع سلاح حزب الله وإضعافه ما يعني إضعاف المقاومة الوطنية والعربية، وكأنهم لم يدركوا ما قالته صحيفة هاآرتس بأن "إسرائيل كلب صيد أمريكي فقد جدواه" وتأكد ذلك باعتراف وزيرة خارجية الصهاينة (تسيفي ليفني) بأن أي قوة في الأرض لا تستطيع نزع سلاح حزب الله.

ويبدو لي أن انكشاف المشهد الأمريكي ـ الصهيوني سياسياً وعسكرياً وأخلاقياً ـ على الرغم من ارتكابه للمجازر المتعددة وانتهاكه لسيادة الدول

والأمم ـ لم يقنع العديد من السياسيين العرب بأن الصورة قد انقلبت لصالح المقاومة الشعبية الوطنية والقومية والإنسانية. أي إنهم ما زالوا ينظرون إلى الواقع العربي والدولي نظرة أحادية ويعتقدون بأن هناك دولة قوية واحدة في العالم تتحكم بإرادته، وقوة واحدة أخرى في المنطقة تملك السلاح النووي والأسلحة الفتاكة العمياء التي زودتها بها الدوائر الغربية/ الصهيونية وبخاصة الإدارة الأمريكية التي تملك أعتى قوة على وجه الأرض، ما يعني ـ في زعمهم ـ أن المقاومة مغامرة؛ والعين لا تقاوم المخرز. ولهذا يرون أن نفتش عن حلول بمعزل عن استخدام السلاح الذي لم يجرّ علينا وعلى بلادنا إلا الويلات والدمار. ثم يعرضون لما جرى في لبنان نفسه إبان العدوان الوحشي عليه في (2006/7/12م). وكل من ينتمي إلى تيار (14/ آذار) يصرح به يومياً في الإذاعة والصحافة والقنوات الفضائية، كما جرى في مقابلة أجرتها القناة اللبنانية (ل. ب. س L B C) مع النائب أكرم شهيب، بتاريخ الثلاثاء (2007/4/10م).

ونرى أن صمود المقاومة الوطنية اللبنانية[1] بقيادة حزب الله وتشبث الشعب بأرضه في الجنوب وصمود المقاومة العراقية على يد الشرفاء وتمسكهم بأرضهم وصمود الشعب الفلسطيني وإيصاله منظمة (حماس) إلى السلطة عن طريق انتخابات ديمقراطية قد أحيا روحاً جديدة في المنطقة لمواجهة المشروع الأمريكي الصهيوني؛ هذا المشروع الذي أخذ يخطط لتوجهات جديدة في المنطقة من أجل استمرار وجوده والقضاء على كل مقاومة له. ومن أبرزها أنه بات يزرع الموت والدمار في أي أرض يطؤها مستعملاً الأسلحة الفتاكة والمحرمة دولياً، وفي الوقت نفسه يزرع الفتنة الطائفية والمذهبية والعرقية، ويجعل الأخ عدواً لأخيه لا يتورع عن قتله، فالمشروع الأمريكي يزرع كل ما من شأنه التفرقة والاقتتال بين أبناء المنطقة. لكن الشعب العربي قد خيّب ظن المحتل الأمريكي والصهيوني وهزم مخططاته حين تشبث بأرضه ولم

---

[1] سوف نفصّل الكلام على ذلك فيما يأتي 218 ـ 228.

يغادرها، بل قبض عليها بالدم والإصرار على الانزراع في ذراتها، ما جعل ذلك المشروع الأمريكي الصهيوني يتراجع؛ ولابد له أن يسقط أمام إرادة أبناء الأمة وذلك كله يعني أن حرية العربي والمحافظة على وجوده وهويته وانتمائه لا ينفصل عن ثقافته وموروثاته التي تؤكد وجوده الفاعل الحر والكريم لمقاومة أي ثقافة قاهرة مهما تزيَّت بالأقنعة المخادعة.

وعلى الرغم من ذلك نقول: هناك فجر جديد على الصعيدين العربي والدولي في المنطقة بإحياء ثقافة المقاومة وفكرها؛ وهي الثقافة التي جعلت القوة الأمريكية تخفق في تطبيق مشروع الشرق الأوسط الجديد، وفي إعادة صياغة العالم على أساس سياسة الفوضى الخلاقة كما مارستها في أفغانستان والعراق[1].

فالإدارة الأمريكية تحاول تفتيت الدول العربية من خلال تجزئة المجزأ، وزرع السجون في الأرض العربية والعديد من دول العالم لزج المناضلين فيها، على الرغم مما تكبدته في العراق من خسائر فادحة؛ إذ خسرت حتى (2007/7/1م) ما يزيد على (3500) قتيل فضلاً عن الجرحى من جنودها.

والدليل على ذلك انفضاض بعض حلفاء الإدارة الأمريكية وانصداع أمرهم حين انكشفت لهم أغراض هذه الإدارة في أفغانستان والعراق ولبنان؛ بل إن بريطانيا ـ وهي أكبر حلفائها ـ قد أدركت خطأ رئيس وزرائها (طوني بلير) وتبعيته المطلقة للسياسة الأمريكية فحاولت تصحيح صورتها الموروثة. وبرز ذلك حين أقدم ستة وزراء عماليين من حكومته على الاستقالة؛ وازداد الضغط عليه حتى حدَّد يوم (2007/5/31م) موعداً لاستقالته، أعقبها ستة أسابيع لحملة انتخاب زعيم جديد لحزب العمال البريطاني يوم (2007/7/26م) ثم أعلن صراحة في (2007/2/21م) عن سحب القوات البريطانية من العراق. وها هو ذا يرشح يوم الجمعة (2007/5/11م) وزير المالية (غوردن براون) لتزعم حزب العمال ورئاسة الوزراء ويدعمه لشغل المنصبين، وقد جرى كل ذلك،

---

[1] انظر كتابنا (مشروع القومية العربية إلى أين ــ قسم: إخفاق المشروع الصهيوني؛ وسقوط ما يسمى بدعوات الحرية 221 – 230).

فرحل (بلير) وجاء (براون) رئيسا للوزراء رسمياً في (2007/6/27م)، بعد أن حظي ـ هو الآخر صـ بإشادة الإدارة الأمريكية بقيادة جورج بوش الابن.

ومن ثم فالمشروع الصهيو ـ أمريكي حاول خداع العالم بأنه يسعى إلى إشاعة الحرية والديمقراطية في العراق[1]، ولكن الحقيقة الناصعة التي تجلت للبشرية كلها أن أربابه هم من يديرون صناعة الحروب، ويرسمون الخرائط التي تدمر الشعوب وثقافتها من أجل مصالحهم، وهم الذين يشيعون الفتنة والاقتتال بين الفلسطينيين، أو اللبنانيين، ثم يحملون تبعات ذلك لسورية لإركاعها وجعلها تمشي في ركاب السياسة الأمريكية، علماً بأن دولاً عربية وأوربية ترحب بذلك، وهو الذي جعلها تحض ((إسرائيل على توجيه ضربات عسكرية إلى سورية خلال حرب تموز 2006م)).[2] لذلك كله فهم من يتمردون على شرعة الأمم المتحدة، والمبادئ الإنسانية، وهم من يتدخلون في الشؤون الداخلية للبنان والعراق والمنطقة برمتها، بل إنهم ينظمون الجريمة تلو الجريمة للوصول إلى أهدافهم للهيمنة على المنطقة وسرقة خيراتها. لقد أرادوا للجريمة الممثلة باغتيال بيير الجميل ـ مثلاً ـ في أواخر تشرين الثاني (2006م) ـ وهو رأس حزب الكتائب ـ أن تفَجِّر الدم في الرؤوس ليطغى الانفعال على العقل، فينجر لبنان إلى حالة مزرية من الفوضى والاقتتال الذي يخدم الأجندة الصهيونية والأمريكية. وهي جريمة مدروسة بعناية توقيتاً وهدفاً ما يعني أن جريمة اغتيال بيير الجميل إنما هي جريمة سياسية بكل أبعادها؛ على اعتبار أنها تهدف إلى تقليل الضغط الشعبي الذي تقوده المعارضة ضد الحكومة اللبنانية الفاقدة للشرعية ـ في تصور أرباب المعارضة ـ وإلى جر الشارع اللبناني إلى الفتنة والاقتتال، وإلى إثارة موجةِ عداء جارف ضد سورية المتهمة بالاغتيال، وإلى تعزيز الدور الأمريكي ـ الصهيوني في لبنان والمنطقة، ما يشي بأن القوات الموالية للحكومة هي التي تقف وراء الاغتيال المدعوم أمريكياً وصهيونياً. ومن هنا نرى أن هذه الجريمة تأتي في السياق نفسه الذي أتت فيه الجرائم التي

---

[1] انظر انكسارات الواقع وتداعيات العصر 7 ـ 10 و 43 ـ 54.

[2] انظر نشرة الصحف الناطقة بالعربية ـ وزارة الخارجية ـ دمشق ـ (2007/6/28م).

سبقتها ولا سيما جريمة اغتيال (جبران تويني) في (2005/11/12م) التي جاءت قبل يوم واحد من إعلان (رايس) لميلاد الشرق الأوسط الجديد. فقد جاءت الجريمة الجديدة حين عجزت إدارة بوش عن الوصول إلى غرضها في تطويع المعارضة اللبنانية. ومن ثم فقد أُريد ـ عمداً ـ أن تطمس أي ملامح مادية تكشف عن مرتكبي هذه الجريمة البشعة، ما أدّى ببعض الضالعين في مخططها إلى تحويل الأنظار عن أولئك الجناة وتوجيه الاتهام إلى سورية وحلفائها في لبنان. ومثل هذا يفعلونه ـ دائماً ـ بعد أن اغتالوا النائب والقاضي (وليد عيدو) وابنه بشارع المنارة ببيروت في (10/ 6/ 2007م) ومن ثم فإن مخططات الاغتيال ـ أياً كان نوعها وتأثير مآسيها ـ إنما تخدم مشاريع الهيمنة التي أعدتها الدوائر الصهيو/أمريكية للسيطرة على الوطن العربي؛ وجرّ حكوماته إلى عملية التسوية مع الكيان الصهيوني؛ في صميم مشروع الشرق الأوسط الجديد، كما سنوضح القول فيه بعد قليل.

وتستمر مقاومة مشاريع الهيمنة على الدول والشعوب طبقاً لميثاق الأمم المتحدة وقوانينها التي حرمت العدوان على السيادة الوطنية لأي دولة...

وهي المشاريع التي كشفت حقيقة الأحداث التي نسجت خيوطها الإدارات الأمريكية المتعاقبة؛ وأرادت من خلالها أن تجعل العالم كله في مواجهة حركات نضال التحرر الوطني والقومي ومقاومتها الشريفة للمحتل... ولذا لا نستغرب أن تخطط لحربها المعلنة على العرب والمسلمين باسم مكافحة الإرهاب.

وفي هذا المقام لم ننسَ لحظة واحدة الدعوات المتكررة للمؤتمرات الثقافية العربية التي وصلت إلى نتائج طيبة في البحث عن سياسة عربية ثقافية موحدة تجمع شتات أبناء الأمة من أجل مواجهة التحديات والأخطار التي تحيق بثقافة الأمة وهويتها مثل (مؤتمر عمان 1967م) و(طرابلس الغرب 1979م) و(بغداد 1981) و(الجزائر 1983) و(تونس 1985م). أما أثرها في الواقع السياسي، وفي كل ما يجري على الأرض فهو دون المأمول منه؛ بعكس ما نراه من نتائج الأبحاث الاستراتيجية للدوائر الصهيو/أمريكية.

ولعل مقومات التغيير التي كونت الخلفيات التاريخية السياسية في كل

قطر عربي كانت وراء عدم التجانس في معالجة عدد من القضايا الفكرية والثقافية والسياسية، و... وفي مقدمتها ما يتعلق بمفهومي السلام والاستسلام باعتبارهما أصبحا متداولين في عملية السلام المتعثرة يبن العرب والكيان الصهيوني منذ وقوع النكبة سنة (1948م). ولكي يتضح لنا ذلك كله لابد من كلمة تؤرخ لعملية السلام التي تعثرت في المنطقة لأن أوراق هذه العملية قد اختلطت في الأذهان عند العرب وعند رعاتها بظاهرة الاستسلام إما عمداً وفق ما أثبتته الأحداث وإما جهلاً بحقيقتها.

2 ـ تاريخ عملية السلام:

يزعم عدد من الحكام العرب والمثقفين والسياسيين أن الولايات المتحدة الأمريكية ما تزال راعية لعملية السلام الحقيقي وفق الخطة التي تضعها الإدارات الأمريكية... فإدارة بوش الابن ـ مثلاً ـ أعلنت عن إقامة التسوية السياسية في إطار الدولتين، ثم تابعت إدارة (أوباما) ذلك الجهد، بوصف أمريكا أكثر دول العالم تأثيراً في المنطقة؛ ولاسيما الكيان الصهيوني وبعض حكومات الخليج التي تمتثل لكل ما تصدره الإدارة الأمريكية. فهناك قسم من الحكام يرى فيها أنها ما زالت ترغب في ذلك وفق قانون العرض والطلب، ما يجعلهم يترقبون منها كل جديد أو تغيير؛ وهناك قسم آخر يرى أنها لا تريد إلا أن تشيع في المنطقة روح الاستسلام والذل والخنوع ودوام التخلف والتجزئة فهي تجيد سياسة التهدئة والخداع، وتعمل على صياغة الأفكار المبتذلة، والتأكيدات القابلة للتفسيرات العديدة والمصبوغة بصبغة المجاملة حتى اختلط مفهوم السلام بالاستسلام؛ بدليل تراجعها عن خارطة الطريق التي دعت إليها ودعمتها؛ وهاهو ذا موقفها يتطابق مع موقف الكيان الصهيوني في إبقاء المستوطنات الصهيونية في الضفة الغربية، التي يقطعها /500/ حاجز، فضلاً عن الثكنات العسكرية. ثم إن الإدارات الأمريكية المتعاقبة تدير شؤونها السياسية والثقافية والاقتصادية و.. في إطار مصالحها مع غيرها. وهي تلجأ إلى المهادنة والمراوغة تبعاً لما يفرضه الموقف المستجد مع هذه الدولة أو تلك وفي كل موقف كانت تسعى إلى إضعاف إرادة أي دولة، وتجعلها تستجيب للمنطق

الأمريكـي المتطـابق مـع المنطـق الصـهيوني. ولعـل هـذا المنطـق هـو الـذي جعـل الإدارة الأمريكيـة تسـعى إلى سياسـة الاحتـواء لـبعض الـدول العربيـة ولاسـيما مصر، فتقدم لها المسـاعدات المالية. وكـان جمـال عبـد النـاصر قـد رفض تلـك المساعدات وفق تلك السياسة، ما أدى إلى حدوث العدوان الثلاثـي المشـهور ضـد مصر عام (1956م).

ثم أعلنت الولايات المتحدة (نظرية الفراغ) التي أنتجت مبدأ (آيزنهـاور) عـام (1957م) وهـي تركـز علـى تقـديم المسـاعدات لـدول المنطقـة، وتبـيح لنفسـها التدخل العسكري المباشر في المنطقة لمواجهة الخطر الشيوعي، كما زعمت.

وأيّاً ما يكـن رأينـا في هـذا الشـأن فعلينـا أن نسـترجع تـاريخ عمليـة السـلام ومـا قدمتـه الإدارات الأمريكيـة لهـا، فمـا مـن أحـد ينسـى قـرار مجلـس الأمـن (242) تاريخ (1967/11/22م) الـذي ينص علـى الآتـي: " إقـرار مبـادئ سـلام عادل ودائم في الشـرق الأوسـط. إن مجلس الأمـن، إذ يعـرب عـن قلقـه المتواصل بشأن الوضع الخطر في الشرق الوسط، وإذ يؤكد عدم القبول بالاستيلاء علـى أراض بواسطة الحرب، والحاجة إلى العمل من أجل سـلام دائـم وعـادل تسـتطيع كـل دولـة في المنطقـة أن تعـيش فيـه بـأمن، وإذ يؤكـد أيضـاً أن جميـع الـدول الأعضـاء بقبولهـا ميثـاق الأمـم المتحـدة قـد التزمـت بالعمـل وفقـاً للمـادة 2 مـن الميثاق.

1 ـ يؤكـد أن تحقيـق مبـادئ الميثـاق يتطلـب إقامـة سـلام عـادل ودائـم في الشرق الأوسط ويستوجب تطبيق كلا المبدأين التاليين:

أ ـ سحب القوات المسلحة الإسرائيلية من أراض احتلتها[1] في النزاع الأخير.

ب ـ إنهاء جميع ادعاءات أو حالات الحرب واحترام واعتراف بسيادة ووحدة أراضي كـل دولـة في المنطقـة، واسـتقلالها السياسـي وحقهـا في العـيش بسلام ضمن حدود آمنة ومعترف بها وحرة من التهديد أو أعمال القوة.

2 ـ يؤكد أيضاً الحاجة إلى:

---

[1] النص الفرنسي يقول من الأراضي المحتلة des Territores Occpués.

أ ـ ضمان حرية الملاحة في الممرات المائية الدولية في المنطقة.

ب ـ تحقيق تسوية عادلة لمشكلة اللاجئين.

ج ـ ضمان المناعة الإقليمية والاستقلال السياسي لكل دولة في المنطقة عن طريق إجراءات بينها إقامة مناطق مجردة من السلاح.

3 ـ يطلب من الأمين العام تعيين ممثل خاص للذهاب إلى الشرق الأوسط كي يقيم ويجري اتصالات مع الدول المعنية بغية إيجاد اتفاق، ومساعدة الجهود لتحقيق تسوية سلمية ومقبولة وفقاً لنصوص ولمبادئ هذا القرار.

4 ـ يطلب من الأمين العام أن يرفع تقريراً إلى مجلس الأمن حول تقدم جهود الممثل الخاص في أقرب وقت ممكن.

تبنى المجلس هذا القرار، في جلسته رقم 1382، بإجماع الأصوات".

ولا يختلف عنه القرار رقم (338) لعام (1973م) وفيه نقرأ ما يأتي : " يدعو مجلس الأمن جميع الأطراف في القتال الدائر، إلى وقف كافة أنواع إطلاق النيران والانتهاء الفوري لكل نشاط عسكري في مدة لا تتجاوز 12 ساعة بعد لحظة إقرار المجلس لهذا القرار وذلك في المواقع التي يحتلونها الآن.

ويدعو مجلس الأمن كل الأطراف المعنية إلى البدء فوراً، بعد وقف إطلاق النار. في تنفيذ قرار مجلس الأمن رقم 242 (1967) بجميع أجزائه.

يقرر مجلس الأمن أن تبدأ المفاوضات فوراً، وفي وقت واحد مع وقف إطلاق النار، بين الأطراف المعنية تحت الإشراف الملائم، بهدف إقامة سلام عادل ودائم في الشرق الأوسط". ولكن الصهاينة لم ينفذوا منهما شيئاً، بل سارعوا إلى تأسيس جمعية خاصة باسم (من أجل السلام في الشرق الأوسط) عام (1968م) بغية تنفيذ رؤيتهم التي تحقق مصالحهم. ثم راحت الأحزاب الصهيونية تقدم مشروعاتها التي تبتلع الأرض المحتلة عام (1967م) وتزيد مساحتها، كما تؤكده وثيقة (حزب العمل) الصادرة عام (1970م) وتشدّد على إقامة اتحاد بين (دولة الكيان الصهيوني وفلسطين ولبنان والأردن) على غرار اتحاد (البينلوكس) الذي ضمّ (هولندا وبلجيكا ولوكسمبورغ)، مركزة على أهمية تحقيق السلام للشرق الأوسط.

ثم جاءت حرب السادس من تشرين الأول لعام (1973) لتنتشل النفس

العربية من آثار هزيمة حزيران، ولتؤكد أن الولايات المتحدة بإداراتها المتعددة ـ منذ إدارة جيمي كارتر إلى إدارة ريغان وجورج بوش الأب ثم إدارة بيل كلنتون وأخيراً جورج بوش الابن ـ قد حمَت الكيان الصهيوني وأنقذته من هزيمة محققة في حرب تشرين، ووقفت حارسة لهذا الكيان ضد انتفاضة الحجارة الأولى في (1987م) والثانية (2000م) ودعمته في غزو لبنان غير مرة آخرها العدوان الهمجي عليه في (12/ 7/ 2006م). وهي ما تزال تلعب على المصالح والامتيازات والاستحقاقات القادمة. لذلك وعَدت العرب بحل مشكلة الشعب الفلسطيني، وإقامة سلام عادل وشامل في المنطقة. ولمّا كانت غير صادقة في أي وعد قطعته على نفسها لأن هذه الوعود لا تمثل شيئاً في ميزان الحياد والنزاهة المبدئية الراسخة، ولا تقع في إطار الرغبة التلقائية للإنسان الحر على اعتبار أن أي عملية تسوية سياسية لا تطابق الأجندة الصهيونية غير مقبولة فإنها أغرت الرئيس المصري السابق أنور السادات بوعود شتى وشجعته على عقد اتفاقية (كامب ديفيد) سنة (1979م) مع الكيان الصهيوني برعاية الرئيس الأمريكي الأسبق (جيمي كارتر). فكان لها ما أرادت ولا سيما حين كسر المقاطعة العربية لهذا الكيان بزيارته المشؤومة إلى القدس التي ما تزال أسرارها غامضة حتى الساعة، على الرغم من النصائح التي وجهت له بعدم إنفاذها.

فالإدارة الأمريكية لم تهدف بهذه الاتفاقية إلى القضاء على منجزات حرب تشرين فقط وإنما كانت تسعى من خلالها إلى تصفية القضية الفلسطينية، وقتل عملية السلام الحقيقي فيها، وإدامة احتلال الكيان الصهيوني للأراضي العربية... وهذا كله ما دفع المفكر المرحوم إدوارد سعيد ـ الأمريكي الجنسية ـ إلى التصدي للإدارة الأمريكية باعتبارها إدارة منافقة مخادعة منحازة إلى القتلة، ومعادية للحق العربي، وللمعذبين في الأرض... ثم كانت تسعى إلى تفتيت أي نمط من أنماط الوحدة الوطنية والقومية وكانت تحمي الكيان الصهيوني المتمرد على القرارات الدولية مثل قرار مجلس الأمن رقم (446) تاريخ (22 /3/ 1979م) الذي نص على المطالبة بوقف بناء المستعمرات الاستيطانية، وعلى (إسرائيل) "أن تمتنع من اتخاذ أي عمل قد

يـؤدي إلى تغيير الوضـع القـانوني والطـابع الجغـرافي، أو أي عمـل قـد يـؤدي إلى التأثير الملموس في التركيبة السكانية للأراضي العربية المحتلة سنة (1967م) بمـا فيهـا القـدس، وأن تمتنـع بشـكل خـاص عـن نقـل مجموعـات مـن سـكانها المدنيين إلى الأراضي العربية".

وحين كـانت قـرارات الهيئـات الدوليـة تطالـب بـاحترام حـق الشـعب العربـي الفلسـطيني كـان الكيـان الصـهيوني يمعـن في عنصـريته وغطرسـته وتحديـه للمجتمـع الـدولي وتسـاعده مراكـز أبحـاث دوليـة وعربيـة علـى خدمـة أهدافـه الاستراتيجية بما فيها أشكال التطبيع التي يخطط لها[1].

وإذا كـان الشعب العربـي قـد تنبَّـه لمخـاطر اتفاقيـة كـامب ديفيـد فقاومهـا بسبل شتى؛ وأولـه الشـعب المصـري الشـقيق، فإنـه اسـتطاع التمييـز بـين مفـاهيم السلام ومفـاهيم الاستسـلام، فـرفض سياسـة الاستسـلام للأمـر الواقـع وللقـوة الأمريكيـة كمـا رفـض مفـاهيم التطبيـع الـتي تبنَّتهـا تلـك الاتفاقيـة وكـذلك تنبهت الشعوب الإسلامية للمخاطر الصهيونية، وفي طليعتهـا الشـعب الإيرانـي، الـذي حضـن الثـورة الإسـلامية الإيرانيـة يـوم (1979/2/11م) بقيـادة الإمـام الخمـيني (رحمـه الله)، ومـن ثـم طـردت السـفارة الصـهيونية وأحلّـت مكانهـا سفارة لفلسطين وتبنّت يوم الجمعة الأخيرة من رمضـان يومـاً عالميـاً للقـدس. ولم تكـن فاعليـة بعـض الشـعوب الإسـلامية بأقـل مـن فاعليـة الشـعب الإيرانـي في مواجهة الخطط الصهيونية ـ الأمريكية.

ولعـلّ هـذه التطـورات دفعـت بـالإدارتين الأمريكيـة والصـهيونية إلى تغـيير سياسـتهما واعتمادهـا سياسـة الحـرب الوقائيـة بشـن هجمـات عدوانيـة اسـتباقية، كما نراه حين اندفع الجيش الصهيوني إلى غزو لبنان سنة (1982م) على حين شجعت الإدارة الأمريكية ـ مـن قبـل ـ الـرئيس العراقـي السـابق صـدام حسـين علـى غـزو إيـران تحـت ذرائـع منـع تصـدير مفـاهيم الثـورة الإسـلامية إلى دول

[1] انظر الأبعاد الفكرية والعلمية 49 ـ 87.

الخليج. لذلك كله قدّمت لصدام كل ما يحتاجه من سلاح مدمّر وفتّاك؛ في الوقت الذي تجاهلت مظالمه في العراق. وجعلت دول الخليج تقف دعماً له سياسياً ومادياً؛ إذ خططت جيداً لكي تدفع تلك الدول فاتورة الحرب بين العراق وإيران.

وشغلت الحرب التي دامت (8) سنوات (1980 ـ 1988م) العالم كله حتى أبعدته عن القضية الفلسطينية؛ بل كاد ينسى عملية السلام برمتها. ولمّا أرادت الإدارة الأمريكية الإجهاز على السلاح الذي قدمته لصدام، وتنفيذ الأجندة الصهيونية بالسيطرة على المنطقة من خلال مشروع الشرق الأوسط الجديد الذي بدأت ملامحه تتضح اليوم للعالم كله شرعت تعزز في نفس صدام حسين فكرة غزو الكويت، بعد أن تضخّمت نفسه في ذاته ومثَّل السياسي المهني الذي جعل الثقافة السياسية حرفة تحقق غايات محددة. وأكل الطُعم فغزا الكويت سنة (1990م) وتدحرجت الكرة التي انتهت بدخول الجيش الأمريكي وحلفائه إلى الخليج العربي. ثم ألقي طُعْم آخر إلى الدول العربية التي شاركت في إخراج القوات العراقية من الكويت، إذ وُعِدَتْ بتحقيق سلام عادل وشامل في المنطقة؛ ما جعلها تشارك في إخراج الجيش العراقي من الكويت مثقلاً بالجراح والهزيمة سنة (1990م). ثم عُقد مؤتمر (مدريد) للسلام بين 10/30- 1/2 - 1991م) برعاية الاتحاد الأوربي وروسيا والولايات المتحدة والأمم المتحدة، وتفاءل العرب بهذا المؤتمر، ولكنهم تبينوا أن الإدارة الأمريكية كانت تلعب بعيداً عنهم، إذ كانت تراقب ـ بالخفاء ـ ما يجري في (أوسلو) من محادثات بين السلطة الفلسطينية والكيان الصهيوني، وهي التي تمخضت عن اتفاقيات (أوسلو) في (1993/9/13م) في الوقت الذي كانت قد شجّعت فيه الحكومة الأردنية على عقد اتفاقية وادي (عربة) بينها وبين الصهاينة في السنة التي تلتها (1994م).

ثم أيقن العالم أن عملية السلام دخلت في غيبوبة؛ ثم ماتت التسوية السياسية موتاً سريرياً وصارت تنقل من زمن إلى زمن ومن مؤتمر إلى مؤتمر، على حين كان بعض الحكام العرب متعلّقين بأمل غائب في مكان ما يسمى (واشنطن)، وبخاصة حين كان عدد منهم يذهب إلى أن أوراق الحل ما زالت

بيد الإدارة الأمريكية وبنسبة (99٪) كما صرّح به ذات يوم الرئيس المصري السابق أنور السادات؛ وإن لم تكن كذلك فهي أقرب إليها. فصدقية الموقف الأمريكي لم تتزعزع في نفوس بعض الحكام الذين جعلونا نبكي على أجنحة الغياب الذي حمل إلينا كل أشكال الهزيمة النفسية والفكرية والعسكرية والتقنية، إذ تبيَّن لنا أنه لم يبق بين أيدي العرب إلا لفافات بيضاء وقع عليها رؤساء للولايات المتحدة وبعض زعماء العرب، وزعماء الصهيونية في تل أبيب؛ بل إن هذه الأوراق نفسها أصبحت تتناقض مع التوجهات الجديدة للإدارة الأمريكية والصهيونية، وقد تناسوا جميعاً أنهم أنشبوا أظفارهم المتوحشة في جسد أبناء العروبة في فلسطين ولبنان والعراق وشوهوا ثقافة السلام لحساب ظواهر الاستسلام والقبول بالأمر الواقع... كانت تلك الأوراق مسوّدة بحبر التوقيع المذل، فزادت آلام الأمة، وألهبت سياط نتائج الاتفاقات المشؤومة أجساد أبناء الوطن، بينما اختنقت أصوات الموقعين عليها؛ وهي ترى آثار رائحة الاستسلام التي زكمت الأنوف من وراء الشاشات والفضائيات، وبخاصة حين كانت تظهر الباكيات المتسلبات العاريات أمام حقيقة التوحش الصهيوني الذي دمَّر الحياة في النفوس. وإذا كان فعل بعض الحكام كذلك فإنه لم يدمر ثقة بعض المثقفين الأحرار بوجود هامات وطنية حرّة حملت على عاتقها همَّ قضية الشعب العربي وفق ثقافة المقاومة الشريفة فواصلت الصراع العنيد في وجه المشاريع الأمريكية والصهيونية. وحينما صمد كثير من أصحاب هذه الهامات بوجه الكيان الصهيوني والدوائر الغربية؛ ودعموا تشبث الشعب العربي الفلسطيني بأرضه، وطفقوا يساندون جذور الانتفاضة الفلسطينية المتأججة فإنهم رفضوا كل أشكال التطبيع ثقافياً وسياسياً واقتصادياً و..... كان أمثال هذه الهامات من الساسة والمثقفين يمثلون ضمير الأمة ولم تتزعزع لديهم الثوابت الوطنية والقومية التي أكدت انتماءهم الشريف إلى الأرض والتاريخ والتراث، فحملوا أمانة الجهاد والنضال حتى تساوى لديهم عشق الحياة والوطن بعشق التضحية في سبيله، علماً بأن هذه الثوابت لم تتزعزع في نفوس كثير من أبناء الشعب العربي والإسلامي وناصرهم عدد غير قليل من شعوب العالم وأحراره وفي طليعته الشعب

الفنزويلي بقيادة هوغو تشافيز.

هكذا تسارعت الأحداث في المنطقة فجاء انتصار المقاومة الوطنية اللبنانية على الكيان الصهيوني مدوياً في (2000/5/25م)، بيد أن الإدارتين الأمريكية والصهيونية قد نسيتا ذلك كلّه وطفق كل منهما ـ وعلى طريقتها ـ تشوهان معالمه، ولاسيما حين وقعت أحداث (2001/9/11م) التي غيَّرت وجه العالم. وتعاطفت شعوب الأرض مع مأساة الشعب الأمريكي وأدانت الإرهاب الذي تعرضت له نيويورك، وغيرها، وأدان العرب قبل غيرهم ذلك الإرهاب، وظنّوا أن الإدارة الأمريكية ستستفيد من هذه التجربة لتحقيق العدالة لقضاياهم الكبرى، ولاسيما القضية الفلسطينية التي تدور حولها عملية السلام، غير أن العرب والمسلمين لم يدركوا أنهم سيكونون الهدف القادم للقوة الأمريكية الفائضة.

فكان احتلال أفغانستان في مطلع (2002م) ثم اندفعت تلك الإدارة وراء أسباب كاذبة إلى احتلال العراق في (2003/4/9م)[1]، وقد أرادت منه بقيادة جورج بوش الابن أن تجعله انطلاقة إلى تنفيذ مشروعها للشرق الأوسط الجديد في تجزئة الوطن العربي وسرقة خيراته، ومن ثمة يكون مكاناً آمناً للكيان الصهيوني بعد أن تستمر سياسة التطبيع العربي معه في كل الاتجاهات. لهذا استمرت الإدارة الأمريكية في تشكيل الحكومة العراقية المتوافقة مع أهدافها[2]، وأمعنت في إشعال حرب أهلية مناطقية عرقية ومذهبية، ولم تأبه لحمامات الدم التي امتلأت بها شوارع المدن العراقية[3]، ولم تتورع أيضاً لفقد ما يزيد على (3200) جندي من جنودها حتى (2007/3/1م)، ولم تُعِر بالاً للرأي العام الأمريكي الرافض لسياسة تلك الإدارة في استمرار احتلال العراق؛ ثم ضربت ما توصلت إليه لجنة بيكر ـ هاملتون بعرض الحائط حين تقدمت إليها بتقريرها حول العراق يوم (2006/12/6م)، على الرغم من أن هذه

---

(1) انظر انكسارات الواقع وتداعيات العصر 12 ـ 20.

(2) انظر انكسارات الواقع وتداعيات الحاضر 20 ـ 22.

(3) انظر المرجع السابق 32 ـ 53.

اللجنـة كانـت حريصـة علـى إنقـاذ هيبـة أمريكـا مـن اسـتمرار السـقوط في المستنقع العراقي، وساعية إلى الحفاظ على حياة الجنود الأمريكيين. ولعل مـن أهم مـا أوصت بـه تلك اللجنـة دعوة الإدارة الأمريكيـة إلى سـحب قواتهـا ، وأن تعلن تلك الإدارة بأنها لا تريد السيطرة على نفط العراق وغيره، وطلبت إليها فتح باب المفاوضات مع سورية، من أجل دفع عملية التسوية في هضبة الجولان قدماً إلى الأمام... بيد أن إدارة بوش مـا زالـت تسـد أذنيهـا عـن سمـاع أي نصيحة مهما كانت، ما جعلها مصممة على تبني مجموعة من الأكاذيب الزائفة[1] لتطبيق سياسة الفوضى الخلاّقة في العراق، متجاهلة مـا توصلت إليـه لجنة بيكر ـ هاملتون وما صرَّح به (ريتشارد بيرل) أحد المحافظين الجدد الذي خطط للحرب على العراق ولمشروع الشرق الأوسط الجديد، إذ قال: "لو طلب مني اليوم أن أذهب إلى العراق لكنت قد أجبت بكلمة لا، وطالبت بانتهاج استراتيجية أخرى"[2] . فهناك تصميم مسبق ومعلن من قبل تلك الإدارة لتنفيذ المشروع المقترح للمنطقة خدمة للأجندة الصهيونية ما أدى بها إلى رفض أي دعوة للسلام، والانسحاب من العراق في الوقت الذي لم تجبر الكيان الصهيوني على التقدم خطوة واحدة نحو السلام وهي التي تدعي أنها راعية له. ولهذا كله فإن عملية السلام تتراجع في فكر الإدارة الأمريكية في العراق قبل فلسطين، لأن هذه العملية لا تخدم الصهاينة؛ علماً بأن الصهاينة يرون أن الشرق الأوسط اليوم ليس هو الشرق الأوسط أيام مؤتمر مدريد؛ ما أدى بأحد الصهاينة إلى القول: "إن الحاجة الأمريكية للخلاص من عبء العراق ليست سبباً للانسحاب من المناطق التي احتلتها إسرائيل قبل (40) سنة، الجمهور الإسرائيلي لن يتنازل عن هضبة الجولان"[3]. فبعض الصهاينة وكل ما قام به قادة الكيان الصهيوني يؤكد أن كل من في الكيان الصهيوني يرفض السلام ويرى أنه جنون يطيح به، كما ورد على لسان البروفسور (يسرائيل

---

[1] انظر المرجع السابق 7 ـ 12 و 35.

[2] انظر مجلة جيش الشعب ـ العدد (1965)، ومجلة الأرض العدد (3) ـ آذار 2007 ـ ص 42 ـ 52.

[3] انظر مجلة الأرض ـ العدد (3) ـ آذار 2007 ـ ص 46 ـ 47.

أومان) الحائز على جائزة (نوبل) إذ قال: "اندفاعنا الجنوني إلى السلام انقلب لعنة علينا، فهو في الواقع يبعد السلام ويعرض وجودنا للخطر"[1].

هذا هو الموقف الصهيوني من عملية السلام، إنه موقف عدواني إلغائي، لا يملك أي ذرة من حسن النية والصدق، فهو قائم على التسويف والمماطلات مهما قَدَّم من الوعود الخلبية على حين أن العرب ما زالوا متمسكين بمبادرة السلام التي قدمها الملك السعودي (عبد اللّه) ـ وكان أميراً آنذاك ـ في إطار تقديم ضمانات أمريكية بالتوصل إلى سلام شامل وعادل مع الكيان الصهيوني، علماً بأن أمريكا لم توفر أي ضمانات لتحرير الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات حين حجزه الصهاينة في مقر رئاسته بأريحا بينما كانت القمة العربية منعقدة في بيروت (28/ 3/ 2002م)

ويبدو أن هذه الضمانات التي أعطيت للسعودية كانت مقابل دعم الحرب ضد العراق آنذاك. ومن ثم فنحن لا يعنينا أن بنودها كانت بإيحاء من الصحفي الأمريكي الصهيوني (توماس فريدمان) وإنما الذي يعنينا أنها كانت ذراً للرماد في العيون؛ علماً بأن شارون قد دفنها منذ أن ظهرت. وهذا لا يغمض عيوننا عما كانت تقوم به إدارة بوش الابن؛ إذ كانت تلعب على وسيلة أخرى أكثر خبثاً، فقد أيَّدت (خارطة الطريق)[2] التي دعمتها أوربا وروسيا والأمم المتحدة... وصادقت السلطة الفلسطينية عليها حين صدَّقت أن (خارطة الطريق) ستكون حلاً مقبولاً للقضية الفلسطينية من الأطراف كلها ولكنها سرعان ما فوجئت بالبديل عنها، إذ قدَّم (شارون) خطته الجديدة وساندتها إدارة بوش الابن بكل قوة، ثم ساندت خليفته (أولمرت) للقضاء نهائياً على كل أمل بالسلام. وهذا ما يؤكده الواقع الراهن إذ أصبحت هذه الخارطة تتناقض مع خطة بوش الابن للتسوية، فلم يعد مبدأ الأرض مقابل السلام موجوداً، بل صار الأصح منه السلام مقابل البقاء في الحكم، وربما سينتهي كما قال أحد

---

[1] مجلة الأرض ـ العدد 3 ـ (2007م) ص 33.

[2] انظر النص الكامل في (انتفاضة الأقصى ـ مقدمة النصر القادم) 207 ـ 211 وراجع ما تقدم 159 وانظر ما يأتي 259.

الباحثين: السلام مقابل سلامة الناس. فالإدارة الأمريكية ـ كما يبدو لنا ـ حريصة على تصفية القضية الفلسطينية، في الوقت الذي يعمل فيه الكيان الصهيوني على تمزيق أوصال الضفة الغربية بالجدار العازل، واستغلال الانقسام الحاصل بين الإخوة الفلسطينيين للقضاء نهائياً على مبدأ تقرير المصير.

ومازالت الإدارتان الأمريكية والصهيونية تعبثان بالقرارات الدولية بمثل ما تعبثان بجثمان عملية السلام التي أثقلت كاهل وزراء الخارجية العرب في كل مؤتمر عقدوه. ولعل مواقف الإدارة الأمريكية قد أثارت قلق الشعب العربي، ووصل هذا القلق إلى الأمين العام للجامعة، فأعلن في الشهر العاشر من عام (2006م) وفاة تلك العملية نهائياً. وقد تجلى للمراقب المحايد أن بعض الدول العربية المعتدلة لم يَرُق لها إعلان الأمين العام للجامعة، وأرادت حجب الشمس بغربال، وصمَّمت على تشكيل لجنة عربية للذهاب إلى الولايات المتحدة بعد أن نُقل جثمان عملية السلام إلى الأمم المتحدة... ولكن جهودها باءت بالإخفاق ولاسيما حين صُفعت وصُفع العرب صفعة مهينة للكرامة يوم (2006/11/11م) إذ رُفع حق النقض الأمريكي في وجه قرار عربي لإدانة المجازر الوحشية التي ارتكبها الصهاينة في بيت حانون في حق أسرة الطفلة **(هدى غالية)** التي أبيدت أسرتها كاملة، وكان أعظمها في (11/8) إذ سقط فيه (18) شهيداً من الأطفال والنساء والشيوخ أصغرهم طفلة لا يزيد عمرها على (18) شهراً... وهنا نتذكر تلك الرؤى التي قَدَّمها رئيس الوزراء الصهيوني (أولمرت) لإقامة الدولة العبرية عام (2010م)؛ إذ قال: "ستكون لنا عام (2010م) دولة إسرائيل أخرى، ولن نكون في أماكن لا فائدة لنا من البقاء فيها".

ولهذا بدأ العمل في هذا الاتجاه، فلا بد من حد نسبة الفلسطينيين داخل الأرض المحتلة عام (1948م)، وإقامة شرق أوسط جديد تكون فيه الدولة اللقيطة آمنة فيه وسيدة ومحركة له وقائدة. وحين صوّبت الإدارة الأمريكية صواريخها نحو العراق، وجَّهت الكيان الصهيوني لإرسال طائراته لتدمير لبنان بوصفه مفتاحاً مكملاً لتحقيق مشروع الشرق الأوسط الجديد. ثم أشعلت نار

الفتنة البغيضة بين الأخوة الفلسطينيين (فتح وحماس) فاقتتلوا قتالاً عنيفاً في غزة أشرسه في (10ـ2007/6/16م). وهو الذي أدى إلى خفض التسوية السياسية، وتمزيق السلطة الفلسطينية وقتل الوحدة الوطنية للشعب الفلسطيني. وكانت الإدارة الأمريكية والصهيونية تنفذ المخطط الجديد، على حين أن الموقف الدولي ظل موقف المتفرج، أما الموقف العربي ـ وفي غياب التضامن الفاعل ـ فقد كان صامتاً؛ بل هناك تواطؤ غير معلن على ما يجري في غزة من بعض الحكام العرب للوصول إلى حالة إنهاء الصراع مع الكيان الصهيوني، علماً بأن الأخوة الفلسطينيين مارسوا تنفيذ المخططات الصهيونية دون أن يدروا؛علماً بأننا لاننكر لحظة واحدة وجود بعض الأيدي الملطخة بعار الاقتتال في داخل الأمن الفلسطيني، ودون أن ننسى أن فكرة إيجاد السلطة الفلسطينية في الأصل كانت بغرض تدمير فكرة المقاومة، ما يعني أن أصحاب فكرة السلطة قد نجحوا في كل ما خططوا له؛ وهو الذي تنبه له (حزب الله) في لبنان ــ كما يظهر لنا ــ فابتعد عن الانغماس في السلطة انغماساً كلياً، ما جعله يحتفظ بصفة الحزب المقاوم، حتى الآن.

وبناء على ما تقدم: من هم أعداء الحقيقة؟ ومن هم أعداء السلام في العالم كله وليس في منطقتنا؟ وما الترتيبات التي تعدُّ لها (كونداليزا رايس) في جولاتها المتعددة إلى المنطقة؟ وما طبيعة المبادرات التي تقدمها؟ هل تعدُّ ـ حقاً ـ لسلام فاعل وحقيقي أم أن هناك حرباً جديدة تعدُّ لضرب سورية أو إيران ولابدّ من الاتجار بعملية السلام من جديد؟

وفي ضوء هذه الأسئلة نرى أنه ما من أحد يفتح عينيه يومياً على بعض القنوات الفضائية إلا سيستمع إلى رزمة من الأقوال التي تدين سورية وتعمل على محاسبتها بحجة عدم تعاونها من أجل تحقيق السلام في فلسطين، وبحجة أنها أرسلت مقاتلين إلى العراق لمقاومة الجيش الأمريكي؛ أو أنها قَدَّمت الأسلحة والمساعدة للمقاتلين فيه، أو أنها ما زالت تتدخل في الشأن اللبناني. فقد أرادت الإدارة الأمريكية الصهيونية عزل سورية عن محيطها العربي وجعلها ـ في أعين العالم ـ عدوة للحرية والديمقراطية والسلام المنشود في المنطقة لكي يسهل الانقضاض عليها، وإركاعها؛ وفرض تبعيتها لمشاريع التقسيم؛ بيد أن سورية

صمدت في وجه عشاق الحروب، وكشفت وسائلهم الإجرامية التي تتوافق مع خارطة الدماء ومشاريع الهيمنة والتقسيم التي أعدّت للوطن العربي، وأثبتت أن أمريكا وإسرائيل هما من ترفضان السلام العادل، على حين أن مصلحة سورية تكمن ـ فقط ـ في تحقيق السلام. ومن ثم فالسلام عند (بنيامين نتن ياهو ـ رئيس حزب الليكود، ورئيس وزراء الكيان الصهيوني) هو ضمان التفوق للصهاينة إذ يقول: "إن السلام بين إسرائيل وجاراتها هو سلام ردع، وإن احتمال تحقيقه يرتبط بصورة مباشرة على قدرة إسرائيل في الردع. فكلما بدت إسرائيل أقوى أبدى العرب موافقتهم على إبرام السلام معها" [1] ثم يقول "لا أمن باستثناء الأمن الذي يعتمد على ردع المعتدي، وهذا هو السلام الوحيد الممكن تحقيقه حالياً بين إسرائيل والعرب، سلام مسلح وحذر يوفر لإسرائيل درجة كافية من القوة القادرة على ردع الجانب العربي"[2].

ثم نتساءل ـ مرة أخرى ـ: من هم أعداء السلام؟ هل هم الذين يدينون تلك الجرائم ويسعون إلى كشف الأيدي الآثمة التي تلطخت بها أم صُنَّاع الشر الذين أغرقوا لبنان والعراق وفلسطين بحمامات الدم وبالجرائم الجماعية المخيفة؟ فالنصوص التوراتية تمتلئ بالروح العدوانية[3] التي تدفع أصحابها إلى القتل والخراب كما جاء في (سفر تثنية الاشتراع ـ الإصحاح 13 /آية 15 ـ 16) وفيهما ورد ما يأتي: (فاضرب أهل تلك المدينة بحدّ السيف وأسلبها بجميع ما فيها حتى بهائمها بحدّ السيف. وجميع سلبها اجمعها إلى وسط ساحتها، واحرق بالنار تلك المدينة). إذاً، وفي نص آخر من (سفر العدد ـ الآية 7 وما بعدها) نقرأ (فقاتلوا مَدْين كما أمر الرب موسى.. وسبى بنو إسرائيل نساء مدين وأطفالهم وجميع بهائمهم ومواشيهم وأثاثهم غنموها. وجميع مدنهم مع مساكنهم وقصورهم أحرقوها بالنار). مَنْ هم أعداء الحقيقة وأعداء السلام؟ هل هم أولئك الذين وقفوا مع ثقافة السلام الحقيقية ونشؤوا على قيمها

---

[1] مكان تحت الشمس ـ ترجمة محمد عودة الدويري ـ مراجعة وتصويب كلثوم السعدي ـ دار الجليل ـ عمان ـ 1995م ـ ص 288.

[2] المرجع السابق ص 291.

[3] انظر ـ مثلاً ـ العنصرية والإبادة الجماعية 11 ـ 20 و22 ـ 35 والأبعاد الفكرية والعلمية 14 ـ 22.

الروحية والأخلاقية والإنسانية وفق المبادئ الأصيلة وربوا أبناءهم عليها في حياتهم وأدبهم وعلومهم، أم أولئك الذين زرعوا الدمار والقتل في الوطن العربي وأصروا على التوسع في أراضيه لتجزئتها وسرقة خيراتها، وهاهم يسعون إلى الانتقام من صمود أبنائها في وجه حمامات الدم التي تمارس على أرضهم؟. من هم أعداء السلام؟ هل هم أولئك الذين يتبنون ثقافة المحبة والتسامح أو أولئك الذين يحملون عقلية عنصرية توراتية تقوم على قتل الآخر واقتلاعه من أرضه؟ فالثقافة الصهيونية ثقافة عنصرية استئصالية استعلائية وفق نظرية (شعب الله المختار)، ثقافة تفرض على أبنائها مفهوم (الغِيتو) الذي يحرم على اليهود الاندماج مع الآخرين وتؤكد نصوص العهد القديم هذا التوجه العنصري كما في (سفرتثنية الاشتراع ـ الإصحاح 7 / آية 6) ومنه (لأنك شعب مقدس للرب إلهك، وإياك اصطفى الرب إلهك أن تكون له أمة خاصة من جميع الأمم التي على الأرض) وهذا ما يؤكده (آرثر كيستلر) في حديثه عن يهود الخزر الذين يشكّلون القسم الأعظم من اليهود الذين هاجروا إلى فلسطين؛ إذ قال: "ولكن في الوقت نفسه نمت فيه ديانتهم المقصورة عليهم، والميل إلى الإنطواء على أنفسهم، وإلى العزلة عن غيرهم، وأن يتماسكوا معاً، وأن يقيموا مجتمعاتهم الخاصة بهم، وفيها أماكن عبادتهم ومدارسهم وأحيائهم السكنية وحاراتهم الخاصة بهم وحدهم (الغِيتو GHITTO) وقد فرضوها هم أصلاً على أنفسهم في أية مدينة أو بلد استوطنوا فيه" [1]. وهذا ـ أيضاً ما نجده في الأدبيات الصهيونية كما في قصيدة (الأريكة) للشاعر اليهودي (شاؤول تشرنخوفسكي) التي كتبها في (أوديسا) عام (1897م) ـ وهوالتاريخ الذي انعقد فيه المؤتمر الصهيوني الأول، ومنها: [2]

ـ يهودي أنت يا بني، في هذا سعادتك
وأيضاً نكبتك

---

[1] القبيلة الثالثة عشرة ويهود العالم ـ ترجمة أحمد نجيب هاشم الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ـ 1991م ـ ص 140.

[2] انظر ثقافة المقاومة ـ جامعة فيلادلفيا ـ كلية الآداب والفنون ـ ص 255 ـ 256.

فرع سلالة شعب عريق

تفوق عظمتك الشعوب

ما زلت صبياً.. سوف تكبر وتعرف

الأمجاد التي صنعها شعبك

سوف تكون رجلاً.. يد القسوة

ستحل بك.. ستصعقك يا صغيري

ستتيه في الأرض

لكن موطنك واحد.. ومعجزتك صهيون

وإن هويت للقاع.. وإن تأخر يوم الخلاص

لا تيأس يا أسير الأمل

ستشرق شمسنا

هنالك يعسكر العرب

على الأرض وفي الشارون.

ستكون لنا هذه الأرض.

فأي تربية عنصرية عدائية حاقدة أعظم من هذه التربية التي يفوح بها النص؛ فهي تربية إرهابية للقتل واستئصال الآخر. وكذلك فإن هذا الشاعر يقول في قصيدة له بعنوان (أهزوجة لي):[1]

فالأردن لك، ولبنان لك، والسهل والجبل

من نهر الفرات وحتى حماة والصحراء العربية

الحدود التي رسمتها يد الله، تراها عين السحاب

واحتلوا أرضاً بقوة الذراع ولتمسكوها.

ولعل هذه الأسئلة تنقلنا إلى تكثيف الحديث عن دلالة السلام والاستسلام بين ثقافة المقاومة وثقافة العولمة.

---

[1] انظر ثقافة المقاومة ـ جامعة فيلادلفيا ـ كلية الآداب والفنون ـ ص 255 ـ 256.

3ـ مفهوم السلام والاستسلام بين ثقافة المقاومة والعولمة

إننا نرى أن الحرب بكل أشكالها إنما هي تنفيذ للمفاهيم التي ينشأ عليها مجتمع ما ولاسيما المفاهيم السياسية والثقافية والإعلامية والاجتماعية والاقتصادية التي غدت ـ اليوم ـ تتحكم بمنطق الأشياء لتحقيق مصالح خاصة.

وحين نفتش عن أسباب كل ما يجري في المنطقة يثبت لكل ناظر أن العدوان الذي تتعرض له الأمة العربية والإسلامية من قبل الدوائر الغربية والأمريكية والصهيونية لا يتوقف عند المظهر الاقتصادي والعسكري وإنما يمتد إلى الثقافة والسياسة، والعادات، بل إلى الجانب الروحي نفسه. وما المواقف والتصريحات التي تنطلق من المسؤولين والمراكز البحثية والفكرية والسياسية في تلك الدوائر إلا تأكيد لعدم رغبتها في السلام، والعمل على الإعداد لعدوان جديد. فلو أمعنا التفكير في كل ما يصدر عن المسؤولين الصهاينة ساسة وقادة وعسكريين ومثقفين لوجدناه يصبُّ في خانة التهيئة لعدوان جديد على لبنان وسورية، وربما مصر. وهذا ما يتضح لنا من مقال الكاتب الصهيوني (إيتان هابر) في افتتاحية لصحيفة (يديعوت) تاريخ (2007/2/22م) ومنه: "يجب أن يكون الدرس الأول من الحرب الأخيرة ـ في الحقيقة ـ أنه لا يجوز لنا أن ندعهم يقوون ويطلقون النار علينا. ولكن على حسب هذا المبدأ يحسن بنا أن نبدأ بتوجيه النار ـ اليوم ـ إلى سورية ومصر اللتين تملآن مخازنهما بكميات ضخمة من السلاح".

فالدوائر الغربية تتحدث كثيراً عن السلام ولغة الحوار بين الدول والشعوب، ولكن الأحداث الواقعية أثبتت أنها استخدمت كل ما لديها من خبرة ومعارف وتقنيات متقدمة وأسلحة فتاكة، وعملاء خونة لمحاربتنا دينياً وثقافياً واقتصادياً وتقنياً وسياسياً واجتماعياً و... وللقضاء على كل ما نؤمن به من معطيات وطنية وقومية وإنسانية.... إنها تنفذ عملية تغيير مدروسة؛ إن لم نقل: إنها تتبنى عملية قتل منظمة وفق آليات ومناهج دقيقة لكي نحمل مفاهيم الإدارة الأمريكية ـ الصهيونية، ونصبح أدوات طيعة بيدها.

إن الخط البياني الدقيق لثقافتنا وموروثاتنا وعاداتنا و... يقدم لنا أننا أمة

تعشق السلام وتدعو إليه، وتكره الاستسلام لأنه يزيد في الهوان والضَّعف والعنف والقتل. ومن ثم فإن العدو الغاصب يستمرئ استسلام الآخر، لأنه لا ينتج إلا الظلم والقهر والاستعباد والسرقة والغطرسة؛ بل إنه يزداد شراسة وعدوانية، ويزداد المستسلم تبعية وفقراً وتجزئة. لذلك كله فإن ثقافة السلام في المفاهيم الروحية والدينية والسياسية والثقافية واللغوية والأدبية والأخلاقية عند العرب والمسلمين إنما تجسد مفاهيم المقاومة الحرة الشريفة في أشكالها المتقدمة، ابتداء بالتربية الروحية والأخلاقية وانتهاء بالتربية الاجتماعية والمعرفية والعلمية والعسكرية و... لهذا علينا أن نعد المواطن المخلص للمبادئ الفاضلة وللأرض التي ينتسب إليها ويعرف بها لحراستها من أي أذى دون أن يفكر بالاعتداء على غيره. ومن ثم فهناك علاقة وطيدة بين ثقافة السلام وثقافة المقاومة الوطنية والقومية بينما ينتفي هذا اللقاء بينها وبين الاستسلام؛ وإن كانت الدوائر الغربية والأمريكية والصهيونية تريد أن تطابق بينهما.

ومن يستقص دلالة كلمتي (السلام) و(الاستسلام) في ثقافتنا وعقيدتنا وأدبنا وحياتنا يدرك البَون الشاسع في خصائصهما، دون أن ننسى أن كلمة (السلام) من أسماء الله وتحيتنا للآخر أياً كان موقعه وشأنه وجنسه (السلام) وهذا شيء والاستسلام شيء آخر كما نوضحه فيما يأتي:

1 ـ ثقافة السلام تعزز الانتماء الأصيل وتنميه وتشكل في نفوس الأباة الأحرار حصانة دافعة للهوية الوطنية والقومية، والإخلاص لذلك في كل شأن من شؤون الحياة والثقافة والأدب والفن. فثقافة السلام ـ وفق هذا التصور ـ تدفع الموت عن الإنسان، بمثل ما تنتشل الوطن والأمة من الضياع، على اعتبار أنها جزء من ثقافة المقاومة في حال السلم؛ وهي تظهر على لسان المثقفين الوطنيين أينما كان موقعهم في المجال السياسي أم الاجتماعي والاقتصادي والثقافي والأدبي والفني. فتراهم يناضلون كل من موقعه ليبقى الوطن حُرَّاً وسيداً. وهذا يثبت أن خيارات الشعوب المكافحة والحريصة على كرامتها تختلف عن ضرورات الأنظمة السياسية. وقد أكد الشعب العربي الفلسطيني قدرته على مواجهة الحصار الأمريكي والأوربي والصهيوني، وظل مزروعاً في أرضه بالرغم من الجوع والقتل والتشريد، وأظهر للعالم كله أن الاستعمار

الصهيوني الاستيطاني العنصري يفوق في وحشيته وهمجيته أي محتل مجرم عرفته الدول والشعوب. وحين كان الصهاينة يمارسون التصفية العرقية للفلسطينيين ويتفننون في تشريدهم وتجويعهم كان هؤلاء الفلسطينيون يثبتون أن أرضهم ممتلئة بهم ويكذبون ما زعمته غولدامائير ذات يوم في تصريح لها لصحيفة (صانداي تايمز) في (15 /6/ 1969م) إذا قالت: "ليس هناك شعب فلسطيني.. ولم يكن الأمر أننا جئنا وأخرجناهم من الديار واغتصبنا أرضهم، فلا وجود لهم أصلاً".

ومن ثم فثقافة السلام الجديدة ـ وفق الخطاب الأمريكي ـ الصهيوني المستند إلى مفاهيم العولمة ـ هي ثقافة الرضا والقبول بالأمر الواقع. أي إنها تعزز روح الاستسلام، ما يوحي بإلغاء كل مفاهيم المقاومة أو تغييرها ضد أي محتل غاصب للأرض والعرض، وبمعنى آخر ؛ إن أي عمل مقاوم للخطاب الأمريكي إنما يقع تحت تصنيف الإرهاب، وعلى العرب إدانته. ولا شيء أدل على ذلك كله مما يجري في فلسطين والعراق، فمن يتعرض لطائرة صهيونية أو أمريكية، أو لجنودهما فإنما هو إرهابي، فالتحرر الوطني والقومي أصبح إرهاباً في منظور الخطاب الأمريكي، وهذا أسوأ ما وقع في تاريخ المفاهيم.

2 ـ ثقافة السلام تعزز التآخي الإنساني بين العربي والآخر، فالعربي يبادر أي إنسان له بكلمة السلام، ويعتمد معه مفهوم الحوار ولو كان معادياً له، فهو يتعامل معه على أساس الندية والمساواة وفق ما تبنته لغتنا لدلالة كلمة السلام.

و لو رجع أحدنا إلى تراثنا الأدبي واللغوي والديني لوجد أن كلمة (السلام) تدخل في جملة من المعاني المشتركة، منها الدخول في العهد، أي هي أمان الله في الأرض، والبراءة من النقص والعيب والآفات، فضلاً عن معنى الصلح بعد الحرب، وإشاعة المحبة في الناس.

ومن ثم فإن التحية بلفظ (السلام) تعني ذلك كله ـ على الأغلب ـ كقوله تعالى: ﴿فقل: سلام عليكم، كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾(الأنعام 54/6)

وقوله: ﴿سلام عليكم بما صبرتم﴾(الرعد 24/13)، وقال الرسول الكريم: [أفشوا السلام تسلموا] و[أفشو السلام تحابوا][1] ولا تقتصر التحية بالسلام على المؤمنين بل تشمل غيرهم لقوله تعالى: ﴿لا تقولوا لمن ألقى السلام: لست مؤمناً﴾(النساء 94/4)، وقوله: ﴿السلام على مَنْ اتبع الهدى﴾(طه 47/20). وتشمل تحية السلام مَنْ في القبور، كقول الشماخ في رثاء أمير المؤمنين عمر، منه:

عليك السلام من أمير وباركت يد الله في ذاك الأديم الممزَّقِ

وقد سميت الجنة (دار السلام) لخلوّها من الآفات والمكاره، وتحيتنا من الله السلام ﴿فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم، تحية من عند الله﴾ (النور 61/24).

ومن ثم فإن مصطلح (السلام) يماثل مصطلح (السّلْم) (بكسر السين وفتحها)؛ ومعناه (الصلح) وهو يذكر ويؤنث، وتسالم القوم: تصالحوا، والمسالمة: المصالحة وترك الحرب، أما الاستسلام فهو الانقياد؛ وفعله استسلم يستسلم واسم الفاعل مُسْتسلم.

وبذلك كله فإن الثقافة العربية القديمة والحديثة أكدت معنى الإخاء الإنساني، وهو ما تضمنته نصوص العقيدة الإسلامية كقوله تعالى: ﴿إنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾ (سبأ 24/34) أو قوله: ﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه﴾ (التوبة 6/9).

فالنص القرآني شديد الوضوح في هذا الشأن، بل إنه يطلب من العربي والمسلم أن يجعل عمل الآخر أفضل وصفاً من عملهما كقوله تعالى: ﴿لا تُسألون عما أجرمنا، ولا نسأل عما تعملون﴾ (سبأ 25/34) وقوله تعالى: ﴿وإن جنحوا للسَّلْم فاجنح لها﴾ (الأنفال 61/8). فالنصوص القرآنية تربي المسلم على السلام لا الاستسلام على اعتبار أن السلام يحقق الوجود الحر الكريم، ويرفض الإذعان والتبعية للآخر سواء كان من أبناء الوطن أم من الغرباء، بل

[1] (الجامع الصغير 159/1 رقم 1227 و1248).

إن القبول بالمحتل الغريب أمر مرفوض شكلاً ومضموناً، لأنه أقصى أنواع الاستسلام المذل ولابد من مقاومته بكل الأشكال وعلى كل مستوى.

والسنة النبوية تؤكد ذلك، كصك الحديبية وموقف الرسول والصحابة من كتابة ذلك الصلح حين لبى طلب سهيل بن عمرو، ومحا الكلمات التي تدل على أنه (رسول الله) من الصك. ثم إن تاريخ الفتوحات الإسلامية يثبت جنوح العرب إلى السلام، كما يستدل من حكم القاضي المسلم الذي حكم بإخراج جيش قتيبة بن مسلم[1] من مدينة سمرقند ـ والحادثة مشهورة ـ. أي إن كل ما لدى العرب يؤيد أن مفهوم ثقافة السلام يجسد الوعي التاريخي بحقيقة الكرامة الإنسانية ليبقيها حية في الذاكرة.

أما الاستسلام فما يجر أصحابه إلا إلى الذل والخيبة والتبعية والخضوع، والغربة الذاتية، والانتهاب النفسي والاجتماعي والفكري والعسكري ويسلّم للآخر بكل ما يريد. فهم لا يملكون غير التباكي والعويل تحت كنف السادة في النظام العالمي الجديد الذي أتقن حرفة القتل والسيطرة وسرقة خيرات الشعوب. وعليه فإن حالات الاستسلام لم تزرع في نفوس بعض العرب والمسلمين إلا ثقافة الخوف والمساومة والتطبيع، ولم تورثهم إلا البيوت المهدمة والبائسة والأرض المحروقة، وليست فلسطين والعراق وأفغانستان عنا ببعيد.

3 ـ ثقافة السَّلام عندنا تزيد قدرة المثقفين على بناء الذات القوية والمتسلحة بإرادة المعرفة والدقة والإتقان وتعلم المنهج الصحيح في المعارف والفنون والآداب والحياة. فهي تعزز الوعي الخلاّق لدى أبناء المجتمع لإنتاج الإبداع تلو الإبداع في مختلف الميادين وتخلق الثقة بالنفس وتحرص على الانتماء الصادق في ضوء التربية الإبداعية التي تبدأ بتكوين الذات الحرة الكريمة منهجاً وحياة، وفق إطار المواطنة المؤسسة قانوناً ودستوراً، وهو مبدأ يحقق المثاقفة المعرفية الرفيعة داخلياً ويهيئ لاحترام الآخر وتبادل الخبرات والتجارب معه على اعتبار أن ثقافة السلام ثقافة مقاومة للتخلف والفقر والجهل والتبعية

---

[1] راجع ما تقدم 99.

المطلقة لثقافة الآخر. فهي ثقافة تحمل من خصائص التميز والوجود ما يجعلها ثقافة حيَّة وملبية لطموح الإنسان في قيمه ومبادئه الإنسانية الكريمة المتساوقة مع أخلاقيات الشرائع السماوية وشرعة حقوق الإنسان التي أسستها القوانين الدولية، أما مفاهيم الاستسلام فتزيد الجهل والفقر والتبلد والتقليد والمحاكاة، فيتدنى الإنتاج، وتتخلف وسائله... لأنها تسلّم للآخر بأن أصحابها لا يملكون إلا ثقافة مأزومة ومهزومة عاجزة عن تلبية الحاجات ومتطلبات المعرفة والعلم...

4 ـ ثقافة السلام تقوم على احترام الآخر ثقافياً ووطنياً وإنسانياً، وتهيئ للتبادل المعرفي والعلمي بين أبنائها وبينه، ما يعني تعزيز الوحدة الوطنية والقومية وتعميقها ثقافياً واجتماعياً واقتصادياً وتقنياً دون أن تتخلى عن سماتها وخصائصها المعززة لمقاومة الاستلاب والإلغاء والإلحاق.. فالثقافة بهذا المعنى تأخذ من الثقافات الأخرى وتعطيها، تعير وتستعير وتصبح جزءاً لا يتجزأ من الكون الحضاري المعترف به؛ بوصفها ثقافة وطنية وإنسانية تكرم البشرية جمعاء وتقاوم الذل والخضوع. إنها ثقافة تعزز الحرية والكرامة لأنها تقاوم أي اعتداء على الذات الثقافية والوطنية، بل هي ثقافة احترام الوجود نفسه. أما ظواهر الاستسلام فليست ممثلة لأي ثقافة حرة ولن تستطيع أن تصمد أمام القوة الجبارة للآخر وثقافته، ما يثبت أن الوطن لن يكون بمعزل عن التجزئة والهزيمة. وليس ما يجري اليوم على الساحة العربية إلا المثال الصارخ والصادق على ما نقوله، وفي طليعته ما انبثق عن قمة (شرم الشيخ) التي عقدت يوم الاثنين (2007/6/25م) بين (مصر والأردن والسلطة الفلسطينية بقيادة محمود عباس، والكيان الصهيوني بقيادة أولمرت). وما إن انتهت حتى تراجع أولمرت عما وعدها به، فلم يطلق سراح الأسرى، وسارع في اليوم التالي إلى شن غارات على غزة، واستقبل الرباعية الدولية في القدس ليقضي نهائياً على مشروع الدولة الفلسطينية المؤقتة.

ومن هنا فإن روح الاستسلام أسقط الثقافة العربية في المحتوى الاستلابي الذي جعل أبناءها مجرد تابعين في النشاط الثقافي والسياسي، بل النتاج

الحضاري كله. ولا شيء أدل على ذلك كله من أن ظواهر الاستسلام هي التي جرّت العرب إلى سياسة التطبيع مع الكيان الصهيوني، والقبول باحتلال الأرض مقابل ما يسمى بالسلام المزعوم، حتى أذلت الإنسان العربي. ومن ثم تخلّى عن كل ما كان يؤمن به من مبادئ وشعارات وطنية، أقلها "قاطعوا البضائع الأمريكية". فقد صار أحدنا يتغنى بشراء هذه البضائع ويأنف من شراء البضائع الوطنية تحت حجج واهية، ما ألحق بالاقتصاد الوطني ضرراً كبيراً.. وهذا ما تسعى إليه ثقافة العولمة الأمريكية اليوم. فهي مستمرة في الاعتداء على ثقافات البشرية وفق سياسة الاستسلام، لا ثقافة السلام، لأن ثقافة السلام تملك كل عناصر القوة لمقاومة الذوبان في غيرها والاندماج بها، أو التبعية لها سياسياً واجتماعياً واقتصادياً و.... وقد مارست الثقافة العربية منذ القديم مقاومة كل صنوف الاعتداء والاستئصال ابتداء من الاستشراق الاستعماري وثقافة الاستعمار الأوربي وانتهاء بالعولمة التي تعني ثقافة الأمركة كما أكده (بريجنسكي في قوله: "يمارس النفوذ العالمي الأمريكي من خلال نظام عالمي مصمم أمريكياً وفق التجربة الأمريكية". وهذا كاف لتفسير مفهوم العولمة كما عرفه (رولاند وبرتون) بقوله: "تشكيل وبلورة العالم بوصفه موقفاً واحداً، وظهور حالة إنسانية".

وهنا يكمن الصدام الحضاري بين الثقافة العربية ـ الإسلامية كونها ثقافة سلام، وبين ثقافة العولمة التي تُعدُّ ثقافة استعمارية واستعبادية وقاتلة، ومفككة لثقافة الآخر وقاتلة لها وحاضنة لروح الاستسلام والإحباط والخوف والمساومة ونشر الفساد والأمراض الاجتماعية الهدامة.

فثقافة العولمة ـ وإن زعم أصحابها بأنها ثقافة علمية ليبرالية ـ إنما هي ثقافة عدوانية وحشية عنصرية استعلائية تمثل مفهوم العصر الأمريكي المستبد الذي يريد السيطرة على العالم وفق مفهوم القوة الكونية للقرية الواحدة.

في مثل هذا المناخ المواتي سعى أقطاب فلسفة ثقافة العولمة إلى فرض مفاهيمها سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وإعلامياً، وعسكرياً لتعزيز المفاهيم الثقافية والقيم الغربية في إطار ما يسمى اليوم بمشروع الشرق الأوسط الجديد

الذي رضي به عدد من الحكام العرب، في الوقت الذي بدؤوا يتنازلون فيه عن فلسطين وفق خطة اللجنة الرباعية، علماً أن هذا المشروع يتجاهل الوجود العربي شكلاً ومضموناً، لأنه يريد المنطقة برمتها ملحقة بالهيمنة الأمريكية ومشاريعها.

ثم إن الدوائر الغربية عامة والأمريكية خاصة تسعى إلى فرض نزوع الاستسلام وقيمه وفق ظاهرة الاستلاب الحاملة لطوابع الإصلاح والديمقراطية كما هي عليه في التصور الأمريكي. فالإدارة الأمريكية تجعل الآخر العربي يتبنى مفاهيم العولمة، طوعاً أو كرهاً، كأن ينفذها وفق سياسة قابلية الرضا بالأمر الواقع، وتعزيز مفاهيم الدولة القطرية وتجذيرها على حساب الدولة القومية. لهذا تقوم تلك الدوائر بتعزيز ثقافة العولمة بأساليب متعددة وعجيبة، حتى أضحى مفهومها معروفاً للقاصي والداني؛ ومنها:

1 ـ فرض الأجندة الأمريكية ـ الصهيونية وفق مفهوم الدمج والإلحاق والإلغاء علمياً وثقافياً، ونفسياً واجتماعياً و.. ما يعني رفض الدعوات العربية للسلام، والسعي إلى فرض فهم الغرب للسلام وتطبيقه على أبناء المنطقة في إطار فلسفته الخاصة. وقد سخَّر لذلك كله برامج سياسية وثقافية وإعلامية أعد لها كل الأدوات الكفيلة بنجاحها. فلم يبق شبر واحد على الأرض دون تغطية من وسائل الإعلام فضلاً عن الشابكة (الإنترنت) والفضائيات وجولات المسؤولين والباحثين وغيرها. فهناك ضَخٌّ إعلامي مستمر ومنظم لغسل الأدمغة العربية من مفاهيم ثقافة المقاومة بكل أركانها، وطنياً وقومياً وإنسانياً، حتى صدّق عدد غير قليل منا بأن العرب ـ أو بعضهم ـ قد أصبحوا إرهابيين وقتلة، وعليهم الوقوف مع نظام العولمة الجديد الذي تقوده إدارة بوش للتخلص من هؤلاء الإرهابيين، وإلا أصبح كثير من العرب أعداء للديمقراطية والحرية، فأي عالم ظالم نعيش فيه؟!!.

2 ـ القيام بحروب استباقية وتبني مفاهيم الفوضى الخلاقة لإسقاط ثقافة المقاومة بكل خصائصها الإنسانية، وإشاعة مفاهيم الاستسلام. فتلك الدوائر تستند إلى جعل الرافعة السياسية والعسكرية وسيلة للقضاء على ثقافة المقاومة التي أخذت تشيع في الوطن العربي. وقد استفادت هذه الدوائر من بعض تجار السياسة أو بعض الحكام العرب الذين يوصفون بأنهم معتدلون؛ في

الوقت الذي بدأنا نجد فيه تراجعاً لمفهوم المد القومي العروبي؛ إذ أخذ بعض أبناء العروبة يستهجن المفاهيم القومية.

3 ـ اللعب على المصالح الخاصة، واتباع الإغراء المناسب والترهيب المطلوب ــ كالبنك الدولي ــ ومنظمة التجارة العالمية (الكات). فالشركات الاحتكارية الكبرى والمالكة لرأس المال هي التي توظف إمكاناتها المالية الهائلة والمركزية لخدمة الدوائر الغربية عامة والأمريكية خاصة، وهي التي صممت على أن تجعل ثقافتها مسيطرة على غيرها وفق المبدأ الاقتصادي (وحّد تسُدّ)، بموازاة مبدأ (فرّق تسد)، ما يعني سيطرة مفاهيم ثقافة العولمة المساوية لمفهوم الأمركة.

فعملية الدعم الاقتصادي والعلمي والتقني والمالي قد تحقق إنجازات عِدَّة لتلك الدوائر لا تستطيع القوة أن تحققها، ما يعني أن الثقافة الجديدة التي ينبغي أن تتبناها الشعوب إنما هي ثقافة التنافس الصادق والإيجابي بين الفقير والغني، بين الضعيف والقوي، بين المتخلف والمتقدم، بين المسحوق والمظلوم والمتكبر الظالم و... وهل يتوافقان حقاً؟ ولهذا نتساءل: ما النتيجة التي آلت إليها ثقافة المقاومة التي وقفت سداً منيعاً في وجه ثقافة الأمركة؟ هذا ما يمكن أن يتضح لنا فيما يأتي:

4 ـ سقوط الأسطورة واحتضار الخرافة

لم يكن المترددون ـ يوماً ـ أصحاب مواقف قوية في أثناء الأزمات الكبرى التي تتعرض لها لأوطان، ولم تكن الأيدي المرتجفة ـ يوماً ـ قادرة على حمل البندقية وتصويبها بدقة إلى صدور الأعداء. وحينما يقال: إن المواقف العظيمة تصنع الرجال فإننا نؤمن أيضاً بأن الرجال العظماء يصنعون تاريخاً عظيماً في مواجهة المشروع الصهيوني ـ الأمريكي الساعي إلى تهويد فلسطين، والهيمنة على الأرض العربية المجاورة ولا سيما تلك الغنية بالمياه، كهضبة الجولان، وجنوب لبنان. فالمشروع الصهيوني حاول أن يؤكد وجوده في إطار مشروع الشرق الأوسط الجديد الذي تقوده الإدارة الأمريكية المحافظة بقيادة بوش الابن، في الوقت الذي يسعى إلى إدارة المنطقة وقيادتها وفق رغبات الحركة

الصهيونية، مستنداً إلى ما تأسس بعد هزيمة (5/ 6/ 1967م) حول جيشه بأنه الجيش الذي لا يقهر...

ولهذا حاول الإفادة من الوضع الدولي، والهزائم التي لحقت بالعرب، واستثمار سيطرة الولايات المتحدة على العالم بعد سقوط الاتحاد السوفييتي عام (1991م) لعقد اتفاقيات الاستسلام مثل (اتفاقية أوسلو ـ 1993م) وما لحقها من صكوك التسليم، وكذلك كانت اتفاقية (وادي عربة) لعام (1994م) وغيرها...

ثم أقدم الكيان الصهيوني من جديد على غزو لبنان إثر عملية (الوعد الصادق) التي نفذها (حزب الله) وأسر فيها جنديين صهيونيين من ساحة المعركة، فما ترك هذا الكيان نوعاً من الأسلحة الفتاكة، والمدمرة والمحرمة دولياً إلا ألقى بها على لبنان أرضاً وشعباً. لقد استخدم صواريخ (بوباي لايت، وهاف لايت) والقنابل العنقودية، والانزلاقية والفراغية، والوقودية و... وأي قنبلة من هذه كانت أعظم بكثير من تلك التي استخدمت في حرب الخليج (1991م) وفي غزو العراق (20/3/ 2003م)... دون أن ننسى قذائف المدفعية المنضّدة بالفوسفور الأبيض، علماً بأن طائرات العدو قد نفّذت (8700) طلعة جوية كما أعلنه (صوت إسرائيل) في (6/ 8/ 2006م). وبهذا أخفق سلاح الجو الصهيوني من تحقيق أهدافه، اللهم ما عدا تدمير البنى التحتية التي أراد من ورائها أن ينقلب الشعب على مقاومته، ولكنه خسئ وانكسر.

من هنا يصبح للموقف البطولي الشريف الذي اتخذه قائد المقاومة السيد حسن نصر الله؛ وللأبطال المجاهدين في لبنان قيمة خاصة متفردة ومطلقة ليس ـ فقط ـ في صهر الرجال الأشداء وتمييزهم من الضعفاء الجبناء، ولكن في إحياء روح الانتماء إلى الأرض والعقيدة بكل صدق وإخلاص، وفي إثبات أن هذا الانتماء لا يصان إلا ببذل النفوس رخيصة في سبيله، وإيجاد موقف موحد بين المقاومين من جهة وبينهم وبين حركات النضال الوطني والقومي والدولي كما تجلى في تنسيق الجهود بين المقاومة وسورية وإيران. فالوطن ليس كلمة تلاك في الأفواه، والعقيدة ليست طقوساً تمارس في المكان وإنما هما فعل إرادي مقاوم لكل أشكال الظلم والقهر والتخلف والتمزق والعدوان والضعف

والهوان.

ونحـن ـ اليـوم ـ لـن نتحـدث عـن الـدور الـوطني والقـومي لسـورية ولا عـن تضـحيات الضـاحية الجنوبيـة في بـيروت وصـمودها في وجـه خفـافيش الليـل، وطائرات القتل والدمار، ولن نتحدث عن البقاع الصامد الذي أعلن للعالم كله أن أرضه العطرة إنما أخذت حُمرتها من دم الشهداء القاني، ولـن نتحـدث عـن الصمود الخَـلاق لقـرى الجنـوب ومدنـه وهـي تتعـرض لتـدمير منهجـي ومجـازر وحشية جماعية لا نظير لها في التاريخ الإنساني من مدينة صور إلى بلدة قانا وعيترون وعيتا الشعب ومارون الـراس وصـريفة والطيبـة والخيـام وبنـت جبيـل ـ وعفـواً إذا ضـاق المجـال عـن ذكـر صـمود البلـدات كلـها مـن البقـاع إلى القـاع وطرابلس في الشرق والشمال؛ نقول: لن نتحدث عن ذلك كله وإنما سنثبت أن تجربـة المقاومـة الوطنيـة اللبنانيـة الـتي اسـتمرت /33/ يومـاً بـدءاً مـن السـاعة التاسعة والنصف صباح الأربعاء (2006/7/12م) قد أكدت لنا أنها مقاومة وطنية لكل فئات الشعب اللبناني، وإن كان حزب الله وحركة أمل يمثلان رأس حربـة لها، ما يعـني أن نضـال أيّ منهما لم يكـن لمذهب أو طائفـة وإنما كـان للـوطن والأمـة. هكـذا كـان منـذ عـام (1982م) حتـى (2000م)[1]، وهكـذا اسـتمر في مواجهـة العـدوان الوحشـي الأمريكـي الصـهيوني الأخـير في تموز(2006م). ولعل هذا يدعونا إلى تـذكر المجموعـات اللبنانيـة الـتي شـكلت نسيجاً وطنياً لبنانياً وعربياً منذ مطلع الثمانينيات من القرن العشـرين. فمـن منـا ينسى أحمد الرحيل الذي قاد طليعة مناضلة في (1982/6/7م) قرب صور بـين قرية (البازورية) وقرية (البرج الشمالي) ومخيم البرج الشـمالي الفلسـطيني. وقـد كمنت هذه الكوكبة المؤلفة من أربعة عشر مقاتلاً للواء الصهيوني المتقدم نحـو صـور فعالجتـه بقـذائف (الآر بـي جـي) وغيرهـا مـن القـذاف الصـاروخية فدمّرت (26) آلية وأسرت نحو (19) جندياً وضابطاً صهيونياً منهم قائد اللواء.

في تلـك المعركـة استشـهد أحمـد الرحيـل بعـد أن قـام بواجـب المقاومـة

---

[1] انظر أضواء على انتفاضة الأقصى؛ الفصل الخاص بـ (المقاومة اللبنانية أسطورة الصمود والتحرير 169 ـ 195.

والتصدي للغزاة. ومن منا ينسى أولئك الشباب من الحزب القومي الاجتماعي بقيادة (سمير حمدان) الذين تصدوا للعدوان الصهيوني في منطقة عرمون فكبدوا العدو خسائر فادحة؟ ومثل ذلك قاد الشهيد رشيد حمزة مجموعة من الشباب في (دير الراهبات) حين دمروا سيارة جيب صهيونية؟

فالدم العربي الفلسطيني امتزج بالدم الوطني اللبناني في العديد من المواقع في (عين عنوب) و(دير قوبل) و(وادي الزينة) و(الناقورة) و(جنوب صور).. وهو الدم الذي امتزج في حرب تموز ليعلن للدنيا كلها أن النضال الوطني لحزب الله وحركة أمل كان من أجل لبنان والأمة وهو الذي أكد وحدة المصير والموقف.

وبهذا كله أكد لنا حزب الله والمقاومة الوطنية اللبنانية أن القوة العسكرية الصهيونية ـ المدعومة بأعتى قوة على وجه الأرض في عصرنا الحديث، وأعظم الدول تقدماً في التقنيات المدنية والعسكرية، وفي الاتصالات والعلوم، والفضائيات، وأكثرها أتباعاً في الإعلام، إذا استثنينا الخونة والجواسيس ـ قد عجزت عن فك شفرة الخطط التي أعدها حزب الله واختراق بنيته؛ والانتصار عليه على الرغم من أنها خططت للبدء بعدوانها قبل أربعة أشهر؛ إذ اعترف رئيس وزراء الكيان الصهيوني ـ آنذاك ـ (إيهود أولمرت) بأن قرار الحرب على لبنان قد اتخذ في (آذار/2006)، أي قبل أسر الجنديين الصهيونيين على الحدود اللبنانية. ولم يكن هذا الاعتراف تصريحاً منه للصحافة ولكنه شهادة أمام لجنة بدأت تحقيقاتها في (18/ 9/ 2006م) حول حرب تموز، إذ ذهب إلى أن هناك خططاً مُعَدَّة لمواجهة حزب الله في جنوب لبنان. ثم أثبتت هذه اللجنة عجز الجيش الصهيوني عن النيل من المقاومة الوطنية اللبنانية، أو تشويه صورتها بأنها مقاومة شيعية؛ لطائفة محدودة من الشعب اللبناني؛ أو بأنها تحاول السيطرة على لبنان لتصبح لها الكلمة الأولى والأخيرة... فالكيان الصهيوني المدعوم بالإدارة الأمريكية المحافظة جهد في تخويف اللبنانيين من المقاومة الوطنية بقيادة حزب الله؛ علماً بأن هذا الحزب لم يوجه في يوم من الأيام بندقيته إلى الداخل اللبناني، ولا طمع في مكاسب سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية على حساب أحد من اللبنانيين منذ أن أطلق

مقاومتـه الأولى في عـام (1983م). كانـت مقاومتـه في سـبيل تحريـر لبنـان، والحفاظ على وحدته في إطار مفهوم العيش المشترك، فضلاً عن أن كثيراً من المقاومين اللبنانيين قد شاركوا في مقاومة العدوان الجديد، وهم ينتمون إلى مذاهب فكرية ودينية لا علاقة لها بحزب الله كما جرى في عام (1983م).

هكذا سقطت القوة الرابعة في العالم بكل وحشيتها وجبروتها وبكل عنصريتها الصهيونية. وليس هذا فحسب بل انفجر العديد من الفضائح المخزية لقادة الكيان وسياسييه ابتداء بالتحرّش الجنسي لرئيس الدولة ووزير العدل وانتهاء بالاتهامات العديدة لأولمرت وقادته العسكريين باعتبارهم مسؤولين عن سبب هزيمة الجيش وانكسار صورته في نفوس الصهاينة فضلاً عن أنه عجز عن النيل من حزب الله، ما أدى ـ أيضاً ـ إلى سقوط هيبة هذا الجيش في نفوس العرب.

إذاً، أخذ التململ يتردد في جنبات الدولة الصهيونية اللقيطة ـ فالجيش الصهيوني راح يلعق هزائمه المرة واحدة تلو الأخرى سياسياً وعسكرياً واجتماعياً؛ إذ خسر من جنوده ما يزيد على (100) قتيل فضلاً عن قتلى آخرين من المدنيين، مقابل (117) شهيداً من المقاومة الوطنية اللبنانية فازداد الاحتجاج الشعبي والعسكري وبرزت الأزمات العديدة على الرغم من زعم (أولمرت) بأنه أحرز نصراً استراتيجياً، وطفق القلق يراود الإدارة اليمينية المارقة بقيادة بوش الابن حول مصير ربيبتها (إسرائيل) بعد أن زودتها بكل آلات القتل والدمار والأسلحة المتطورة أرضاً وبحراً وجواً لقتل الحياة في لبنان وتدمير بنيته التحتية ولكن هذه الأسلحة في الجو والبر والبحر عجزت عن النيل من المقاومة، بل إن هذه المقاومة كانت تصطاد الدبابات الصهيونية في كمائن عدة، وأنزلت بها خسائر جسيمة كما في وادي (الحجير)، وصار الجنود ينتظرون الخروج من المأزق الذي أوقعهم به قادتهم... ومن ثم فإن هذه الأسلحة لم تصل بهم إلى أيّ من الأهداف التي شنت الحرب من أجلها فلا (الجنديان الصهيونيان) الأسيران رجعا بقوة الوحشية الصهيونية، ولا سلاح حزب الله دمّر، ولا تنظيمه قد تخلخل أو ضعف او انفض الناس من حوله في لبنان وخارجه، بل اجتمع العرب والأحرار حوله... وازدادت الثقة بالمقاومة الوطنية

اللبنانيـة وبقائـدها الـذي أحكـم مـع رفاقـه المناضـلين مـن كـل الفئـات قيـادة المعركـة يسـاندهم إعـلام المقاومة في خطة نفسية مدروسة لنقل الخـوف والرعـب إلى قلوب الصهاينة، ولا سيما حين كـان قائـد المقاومـة يظهـر المرة تلـو الأخـرى على التلفاز ويطلق عباراته الشهيرة على التوالي: (سنضرب ما بعد حيفا، ثم مـا بعد بعد حيفا)... وتطابق الفعل مع القول؛ وصدَّق المقاومون مقولات قائدهم، مـا أوقع الرعب في نفوس الصهاينة، وطفقوا يؤمنون بأن تصريحاته هـي الصـحيحة على حين أن تصريحات قادة العدو كانت كاذبة...

وفي ضوء سقوط الجيش الأسطورة وخرافة القوة التي لا تقهر فـإن نظريـة (الأمن) الـتي تبجـح بهـا الكيـان الصـهيوني قـد سـقطت؛ وكـذلك سـقطت كـل مفـاهيم (الحـرب الاسـتباقية) أمـام إرادة المقـاومين الأبطـال في جنـوب لبنـان، وبطولاتهم المعجزة التي اعتمدت أسلوب المفاجـأة والـردع بالمثل، واتخـاذ طريقـة الخطـوة خطـوة والمجموعـات القليلـة في القتـال، فضـلاً عـن اسـتثمار الأنفـاق والتمويه والاختفاء في الوقت المناسب أحسن استثمار.

ثـم تفتقـت عبقريـة الإدارة الأمريكيـة والرئاسـة الفرنسـية بقيـادة (جـاك شيراك)عن قرار مجلس الأمن الجائر (1701) الذي جَهِد العالم في تعديل بنوده بكـل مـا احتـوت عليـه مـن ظلـم لقهـر لبنـان ومقاومتـه الباسـلة إذ خططـت تلـك الإرادة إلى قلـب انتصـار المقاومـة الوطنيـة اللبنانيـة إلى خسـارة مسـتفيدة مـن سـيطرتها علـى مجلـس الأمـن، لتنفيـذ قـراره (1559) بشـأن نـزع سـلاح حزب الله...

ثـم ضُـرب الحصـار الصـهيوني علـى لبنـان علـى الـرغم مـن صـدور القـرار المـذكور ليؤكـد أن قـوى الظلـم في العـالم واحـدة، وهـي تتركـز في القـوة الأمريكية التي تعد أعتى قوة في العالم وبخاصة حين انفردت بـالقرار الـدولي، وطفق الأتبـاع في الخـارج والـداخل يصفقون لهـا... ولا سـيما حـين شـرعنت وقـف العدوان الصهيوني بالقرار (1701).

لهذا لم يعد هناك ما يقال عن استهزاء الإدارة الأمريكيـة بعمليـة السـلام، وتسـخير الأمـم المتحـدة لمصـالحها بعـد قـرار مجلـس الأمـن المشـار إليـه والمتعلق

بلبنان والقرار الآخر المتعلق بالسودان برقم (1706) بيد أنه يمكننا القول: لقد اتضحت للعالم أكاذيب الإدارة الأمريكية، فهي لم تؤمن بالسلام يوماً، وإنما كانت تسعى إلى جعل لبنان بوابة أخرى للسيطرة على الوطن العربي وفرض ما يمكن أن يطلق عليه ثقافة الاستسلام والخوف، وفرضها على العرب والمسلمين وأحرار العالم. ثم إن أقنعتها قد سقطت بمثل ما سقطت معها القوة الصهيونية بعد أن كانت أشبه بالأسطورة. وفي الوقت نفسه سقطت هيئة الأمم المتحدة الخُرافة لأنها غدت ألعوبة بيد دولة مارقة فاقدة لقيم العدالة ما جعلها دولة عدوانية عنصرية استعلائية لا تقيم لحقوق الإنسان وزناً ولحقوق الشعوب قيمة، ولاسيما الشعب العربي.

وقبل أن أنهي حديثي عن سقوط خرافة الجيش الذي لا يقهر فإني أذكر بسقوط خرافة أخرى تتعلق بقوة الاستخبارات الصهيونية. وقد تجلى إخفاق الاستخبارات الصهيونية في العديد من مواقف الحرب، منها أسر الجنديين الصهيونيين من موقع عسكري قرب مستوطنة (أَفيفيم) وقتل عدة جنود فيه، وانسحاب مقاتلي حزب الله بسلاسة وأمان، ومنها ـ أيضاً ـ إخفاق العدو بالحصول على معلومات دقيقة عن وجود الأمين العام لحزب الله، وهو ما نتج عنه إنزال وحدة من الكوماندز في البقاع فباءت بالخذلان. ومثلها كانت المعلومات حول وجوده في الضاحية الجنوبية، وفضلاً عن ذلك كله فإن الاستخبارات الصهيونية أخفقت باختراق حزب الله. فلم يَعُد للموساد هذه القدرة التي سوّقها العدو لجهازه، على اعتبار أنه عجز عن معرفة مكان الجندي الصهيوني (جلعاد شاليط) الذي أسرته المقاومة الفلسطينية بعد إصابة دبابته ومقتل قائدها في (2006/6/25م). ولا مثيل لهذا السقوط المخزي إلا عجز الإدارة الأمريكية عن العثور على قادة القاعدة أسامة بن لادن والمُلاَّ (عمر) في أفغانستان، ما جعلها تشتري الخونة، وهم من أرشدوها إلى مكان (أسامة) فقتلته... ثم إن تاريخ الحروب الأمريكية تؤكد أنها كانت تختار أهدافها الضعيفة لضربها كما رأينا في حرب فيتنام، وغرينادا ولبنان (1983م) والبوسنة والهرسك، وأفغانستان والعراق... وليس لدينا شك في أن طائراتها وصواريخها المتطورة تستطيع تدمير الحياة على الأرض من مكان

بعيد، لكن جنودها إذا وضعوا أقدامهم على الأرض العربية فإنها سرعان ما تغوص في القاع وينكشف ضعفهم، وتظهر خيبة إدارتهم. ولا شيء أدل على هذا ممّا يجري في العراق.

وبعدُ، فهل يعني كل ما أشرنا إليه أن الكيان الصهيوني الذي اعترف قادته راغمين بعدم قدرتهم على تحطيم قدرة حزب الله ونزع سلاحه سيصبح راغباً في السلام العادل والشامل؟! وهل استطاع وعي الدرس الأخير جيداً أم أنه ماضٍ في ضلاله وأكاذيبه؟ الجواب يؤكده مؤتمر (هرتسليا) السابع الذي عقد في الفترة ما بين (21 ـ 24/ 1/ 2007م) والذي ينظمه سنوياً (معهد السياسة والاستراتيجية) و(مدرسة لاودر للحكم والدبلوماسية والاستراتيجية). وتعددت فيه الآراء والأبحاث، ولعل من أهمها أن مبدأ ((الأرض مقابل السلام)) لم يعد يلبي هدف الصهاينة، ولا بد لهم من تقوية المصطلحات الصهيونية الوطنية، وتعزيز المناعة القومية للصهاينة، و((على إسرائيل أن تتمترس وراء مواقفها [السياسية] إلا إذا اختارت شنَّ الحرب، كما يستدل من توصيات بعض المتحدثين))[1]

أما (عمير بيرتس) وزير الدفاع الصهيوني في حرب تموز (2006م) فقد ذهب إلى أن تحقيق السلام يوجب على الكيان الصهيوني أن يضرب المقاومة الوطنية اللبنانية والعربية (ضربة قاسية) لم يعرفوا نظيراً لها.[2].

ولذا قَدَّم الموساد الصهيوني اقتراحات عديدة باغتيال السيد حسن نصر الله ورفاقه، أو نفيهم إلى طهران،[3] في الوقت الذي مازال يسعى إلى محاسبة سورية وعزلها ومعاقبتها لدعم المقاومة الوطنية اللبنانية. وعليه فإن المشروع الصهيوني العنصري يحاول أن يسترد قوّته الردعية ويعيد بناء قدراته البشرية والعسكرية... فقادته لم يؤمنوا يوماً بأن مشروعهم قد هُزم، بل هم يظنون أنه قادر على قلب الأوضاع ولا سيما إذا تحقق تحوّل نوعي في الإعداد الاستراتيجي

---

[1] مجلة الأرض ـ العدد 3 ـ 2007م ـ ص 38.

[2] انظر صحيفة (يد يعوت أحر ونوت ـ 14/ 7/ 2006م ـ مقال لأليكس فيشمان.

[3] انظر صحيفة الخليج (25/ 7/ 2006م).

من أجل معركة فاصلة مع سورية والمقاومة الوطنية اللبنانية بقيادة حزب الله في الوقت الذي تسعى إلى تمزيق مقاومة الشعب العربي في فلسطين والعراق وتأليب العالم عليها.

ومن ثم علينا تأسيس الإرادة الصلبة وتنمية الوعي بثقافة المقاومة ومفاهيمها وأساليبها وجعلها أصل بناء حياتنا وأوطاننا، مع الاندماج الحقيقي في النضال القومي والإنساني.

ولا بد لنا من الاستغلال الأمثل لمواردنا ووسائل التثقيف والإعلام في كل مجال؛ حتى يمكننا الصمود والنهوض الفكري والحياتي.

هكذا تبين لنا الفرق الكبير بين ما نحن عليه من تنابذ وفرقة في المواقف والآراء، وبين ما هو عليه عدونا المتربص بنا وبأرضنا الدوائر، ما يثبت أن أنماط المقاومة السلمية ليست السبيل الوحيد للمقاومة، فهناك أنماط مادية عسكرية ينبغي أن نوفرها لمجابهة العدو الصهيوني. وهي التي تحقق روح الاستنهاض للأمة؛ وتكسر شوكته التي طالما تفاخر بها.

5 ـ المقاومة استنهاض وانتصار:

ليس هناك شك في أن العدوان الوحشي الصهيوني الذي بدأ على لبنان /المقاومة منذ (12 /7/ 2006م) قد أدى إلى نتائج كبرى على الصُّعُد كلّها داخلية وخارجية، محلية وعربية، إقليمية ودولية.

وقبل أن نشير إلى أبرزها يمكننا ـ هنا ـ أن نثبت أن المقاومة الوطنية اللبنانية بقيادة حزب الله قد حققت مكونات المقاومة المشار إليها سابقاً، إذ أكدت من خلال مبدأ التربية المنهجية العلمية تلك الأركان في نفس كل مقاتل، وزودته بعقيدة وطنية قومية إنسانية تنبثق من عقيدة روحية سامية؛ ما حقق لها بصدقها وإخلاصها تنمية معرفية وبدنية، علمية وتقنية على الصعيد الفردي والجماعي وخلق لدى المقاومين كافة المبادرة الرائعة لمواجهة أي موقف معقد. وحينما ربطت بين الفعل الوطني المقاوم والفعل الشعبي فإنها حققت نوعاً من العلاقة الوطيدة بينه وبين الفعل القومي المقاوم والإنساني ما يثبت أن مواجهة العدوان الصهيوني ـ الأمريكي الهمجي إنما تنبجس من أصالة الهوية

والانتماء بأبعادها المتعددة وطنياً وقومياً وإنسانياً.

ولعل من أهم تلك النتائج التي اتضحت محلياً وعربياً وإقليمياً أن الصراع العربي الصهيوني صراع وجود لا نزاع حدود، على اعتبار أن المشروع الصهيوني مشروع سياسي عنصري استيطاني استئصالي وتدميري يخالف كل القيم النبيلة والشرائع الأخلاقية والمواثيق الدولية الإنسانية، فهو مشروع لا يقبل الآخر إلا إذا كان عبداً تابعاً وذليلاً في الوقت الذي يسعى إلى ابتلاع الأرض وتدنيس العرض ما يعني أن حزب الله ومَنْ يقف معه من تيارات المقاومة الوطنية مثّلوا القدرة على نشر الفكر المقاوم بين العرب ليصبح مشروعاً قومياً حضارياً بعيداً عن الطائفية أو المذهبية المتعصبة.

ثم تأكد لنا ولكل عاقل في العالم أن الحرية والكرامة نتيجة طبيعية للمقاومة الشريفة والإرادة الصلبة لكل شعب أياً كان عدده وعدته. فالقيمة الفُضلى التي أسسها أبطال المقاومة اللبنانية تتمثل في أن العدد القليل المؤمن بقضيته؛ الصادق في وعده وعهده، الخبير الواعي والعارف بقدرته وقدرة عدوه ومكامن ضعفه والمدرب جيداً يمكنه أن يجترح المعجزات، وأن يتصدى لآلة الموت. ومن ثم أعلن حزب الله للعالم كله أن الإنسان أقوى من الدبابة والجرافة، وأن العربي قادر على استيعاب أعقد التقنيات، والتعامل معها في أعقد الظروف. فالعدوان الصهيوني الحاقد أراد اجتثاث المقاومة الوطنية اللبنانية بدعم سافر من آلة الموت الأمريكية الجبارة والمتطورة وبمروق عدد من الدول الأجنبية وصمت عدد آخر وارتباك مواقف بعض الدول العربية. لهذا كان مسلسل الإبادة الجماعية للبشر، والحجر والشجر خلال (33) يوماً إرهاباً وحشياً لا مثيل له في التاريخ، كما ظهر للقاصي والداني؛ إنه مسلسل إجرامي مخيف، لكنه أثبت في الوقت نفسه أن الأحرار والشرفاء في لبنان قد التفوا حول المقاومة؛ ما أدهش العالم كله وأذهل الكيان الصهيوني الذي امتلأت نفوس قادته وشعبه بكراهية اللبنانيين، كما امتلأت بالحقد المدمر للبنان، فقد كان فوق التصور؛ إذ تجاوزت عمليات القتل والإبادة كل حدود العقل والمنطق؛ فقتلت آلته العمياء ما يزيد على (1182) من الأبرياء أطفالاً ونساء وشيوخاً، كان بينهم نسبة (40٪) من الأطفال، وجُرح ما يزيد على (4)

آلاف، وهجّر مئات الآلاف ودُمرت البنى التحتية برمتّها لكن الحياة تولد من قلب الدمار؛ وعلينا أن نجعل ذلك الدمار الوحشي مادة سياسية وقانونية وثقافية لإدانة الكيان، وأسياده بدل أن نتباكى على الخراب، صحيح أنه عدوان وحشي تدميري لكنه كان يسعى إلى فرض القوة الصهيونية وتصفية حزب اللّه من جهة؛ وإركاع العرب تحت أقدامها من جهة أخرى.

إذاً؛ انكشفت حقيقة القوة الهمجية الصهيونية، فالشعب العربي لم يعد يخاف هذه القوة، فقد صفعتها المقاومة اللبنانية صفعة قوية، في الوقت الذي أدرك أن الأنظمة العربية أخذت تخسر كل حظوة لها عند أمريكا بعد أن عجزت عن مواكبة التحولات الكبرى في هذه الحرب. ومن ثم سقط خيار السلام الاستراتيجي على اعتبار أن حجم تنازلات بعض الأنظمة العربية ارتفع إلى درجة غير منطقية..

وعلى الرغم من ذلك نرى أن تلك الصفعة لا تعني الانتصار الكامل على القوة الصهيونية، ولا تعني الهزيمة المطلقة للجيش الصهيوني ولا سيما حين أسرعت الإدارة الأمريكية بمساعدة أوربية عامة وفرنسية خاصة إلى انتشاله من حالة الهزيمة الشنعاء التي أصيب بها؛ إذ عملت أمريكا وفرنسا على إصدار مجلس الأمن للقرار (1701) في (12 /8/ 2006م) الذي انحاز إلى جانب الصهاينة كما قرأناه في مادتيه (14) و (15) إذ حمّل لبنان /المقاومة المسؤولية عن شن تلك الحرب. وكذلك تضمن عدداً من الأفخاخ بما فيها الحديث عن إيقاف العمليات العدائية بين الطرفين المتقاتلين فساوى بينهما مع أن القوة الصهيونية المالكة للتقنيات ولكل عناصر التوحش محتلة ومعتدية على سيادة دولة عضو في الأمم المتحدة. فالكيان الصهيوني لم يحقق أهدافه كلها، على الرغم من تفوقه العجيب في تدمير البنى التحتية للبنان وقتل الأبرياء والمدنيين، ما جعل الصحف الإسرائيلية تركز على مفهوم هزيمة الجيش الصهيوني باعتبار أن نتائج هذه المعركة لم تؤدّ إلى النجاح الكامل للأهداف التي تعهّد الكيان بإنجازها وبسرعة قصوى.

من هنا نرى أن العدوان لن يتوقف ولن ينتهي على الأمة، وهو يظهر بأشكال شتى كإثارة الفتنة القاتلة بين أبناء الأمة، كما حدث في مخيم (نهر البارد) حين لجأ العدو الأمريكي الصهيوني إلى تنفيذ ما يعرف بالخطة (ب).

ومن ثم تورط الجيش اللبناني في قتال شرس مع ما يسمى منظمة (فتح الإسلام) قتالٍ خسر فيه حتى تاريخ (2007/6/16م) ما يزيد على (80) قتيلاً، و (400) جريح؛ قتال دام ما يزيد على (27) يوماً ولم يعرف أحد بعد هذه المدة تاريخاً يتوقعه لنهاية هذا الاقتتال الدامي... على اعتبار أن الإدارة الأمريكية قررت ـ آنذاك ـ أن يكون لبنان بعد العراق بوابة يُعْبَر منها إلى ما يعرف بسياسة (الفوضى الخلاّقة) ونشرها في المنطقة. ولكن مسعى إدارة بوش الابن أخفق في لبنان ونجح في أماكن أخرى، وفق تجليات الأحداث التي جرت في السودان ـ مثلاً ..

ولعل القراءة الدقيقة في تقرير (سيمور هيرش) يكشف لنا عن فداحة صناعة الفتنة التي تنفذها تلك الإدارة بهدف تفتيت الدول العربية إلى مذهبيات وطوائف وعرقيات[1] . ولهذا نتوقع بأن الحروب القادمة ستكون صعبة وأشد ضراوة وقسوة على الأرض والإنسان وفق ما تشير إليه الأحداث[2]، علما بأن القوات الأمريكية والصهيونية أجرت مناورات مشتركة لمدة أربعة أيام اعتباراً من (2007/5/14م) في صحراء النقب المحتلة.

وإذا كنا نحتفل بنصر المقاومة الوطنية اللبنانية في حرب تموز (2006م) فلأننا لم نتعوّد مثل هذا النجاح من قبل ـ على حلاوة النصر الجزئي الذي ذقناه في حرب تشرين ومثله حلاوة خروج الجيش المحتل الصهيوني في (5/25/ 2000م) من جنوب لبنان ـ فللمرة الأولى تسقط المعادلة الصهيونية الحربية مع العرب. فقد ذاق الصهاينة طعم الموت المر نوعاً وعدداً في ساحة الحرب وفي داخل الكيان، كما شاهدنا بأم العين وللمرة الأولى ـ أيضاً ـ صورة احتراق دبابة (الميركافا) التي عُدّت عند الكيان الصهيوني بيت الأمن والأمان، وصورة غرق البارجتين (ساعر 5 /5 وساعر 5 /4) بصواريخ الأبطال الميامين، وطالما كان يفتخر بدباباته وبوارجه. أما مشاهدتنا للصواريخ التي ضربت

---

[1] انظر مجلة إلى الأمام ـ (العدد 2356 – نيسان /2007م) – ص 24 –25.

[2] حين كتب هذا الكلام لم يكن العدوان على غزة في (2008/12/27م) قد حدث، ولم يكن ما يسمى (الربيع العربي) قد كشف عن وجهه المدمر لبعض البلدان العربية (انظر سورية الاستهداف والمؤامرة 15 ـ 33).

العمق الصهيوني فهي الدليل الحقيقي على سقوط نظرية الأمن الإسرائيلي التي كان يعمل عليها خلال عقود طويلة؛ فصواريخ المقاومة الباسلة والتي بلغت (4000) صاروخ ودكّت تحصينات العدو ومواقعه تُعدُّ ردة فعل قوي على ما ارتكبته طائراته ودباباته وبوارجه من أعمال إجرامية طالت الأرض والإنسان والحياة. ولما ردَّ المقاومون بذلك أكدوا أن بإمكان العرب أن يصلوا إلى عمق العدو، وأن يرعبوه كما أرعب الأطفال والنساء والشيوخ حين رماهم بكل شره وحقده، فالرعب يقابل بالرعب، وإن لم تعادل قوة المقاومة قوة العدو المتغطرس. وفي هذا المقام لا ننسى أن نشير إلى أن إحدى طائرات المقاومة الإسلامية قد اخترقت النظام العسكري والتكنولوجي المعقد للكيان الصهيوني، ونقلت صوراً للعمليات التي يعدّها في منظومة (أبولو) ما جعله يجن جنونه، على حين تيقنا ـ نحن العرب ـ بأن اختراق تحصينات العدو أمر ممكن وليس مستحيلاً، كما كنا نتخيل ونتوهم.

فالدولة الصهيونية اللقيطة تعرضت وتتعرض لأزمات شتى على مختلف الصُّعد سياسياً وعسكرياً وأخلاقياً ومالياً، إذ كشفت حرب المقاومة اللبنانية مدى الضرر الذي يلحق بالعدو، بل أوضحت أنه يعيش في مستنقع متلاطم من الفضائح.

وكانت دولة الكيان الصهيوني قد حاولت تقليص التكاليف العسكرية لحساب إصلاح الرفاهية الاجتماعية، بعد أن كانت تمثل الدولة الجيش والجيش الدولة وترتكب أبشع الجرائم، ظناً منها أن مجازرها الوحشية الجماعية ستكسر إرادة الشعب العربي. ولهذا كان عدوانها الشامل على لبنان معتقدة بأنها تعوّض فيه عن هزيمتها في (25 /5/ 2000م). وكانت في ذلك كله تنفذ رغبة إدارة بوش الابن يوم (2006/7/12م) إذ شنّت عدواناً شرساً وهمجياً على لبنان قبل الوقت المضروب له على اعتبار ما كشف عنه (أولمرت) في (2007/2/1) أمام لجنة شكلها الكيان الصهيوني برئاسة (إلياهو فينوغراد) في (2006/9/18م). وقد أفاد بأن الحرب خطط لها في الدوائر الصهيونية منذ شهر كانون الثاني (2006م) واتخذ قرارها في آذار لعام (2006م) وتمت مراجعتها في نيسان وأيار؛ من أجل تطبيق القرار رقم

(1559) القاضي بنزع سلاح المقاومة اللبنانية. ثم جاء أسر الجنديين الصهيونيين في عملية (الوعد الصادق) سبباً مباشراً للعدوان الصهيوني ـ الأمريكي على لبنان. وطفق الجيش الصهيوني يدمر كل شيء تدميراً منهجياً وفق مبدأ الأرض المحروقة، ويرتكب المجازر الوحشية الجماعية دون رادع من ضمير أو أخلاق لزرع الخوف في نفوس الناس، وجعلهم ينقلبون على المقاومة، ويُغَشُّون عيون العالم عما يحدث في داخل الكيان الصهيوني نتيجة ضربات المقاومة الشديدة التي استمرت حتى الدقيقة الأخيرة؛ ضربات طالت العمق الصهيوني وتركت فيه أثراً عظيماً بمثل ما أثبتت جملة من الحقائق على الأرض عسكرياً وسياسياً واقتصادياً، وأظهرت للدنيا كلها أن القوة الصهيونية المتغطرسة لسنوات طويلة قابلة للاهتزاز والإصابة بزلزال كبير ما جعل لجنة فينوغراد توصي باستقالة أولمرت لهزيمته في تلك الحرب وترمي وزير دفاعه (عمير بيرتس) ورئيس أركان الجيش السابق (دان حالوتس) بشظاياها، وكان الغرض من إنشائها التستر على نتائج الحرب في الداخل الصهيوني، كما توصل إليه تقريرها الذي عرفته الأوساط السياسية يوم الخميس (2007/5/10م).

ويمكن أن نشير إلى عدد من الفضائح التي وقعت على مستوى الكيان الصهيوني:

1ـ رئيس الدولة (موشيه كاتساف) خضع للتحقيق بتهمة الفساد والتحرش الجنسي بالموظفات وإقامة علاقات جنسية مع اثنتين منهن بالإكراه. وهاهو ذا قد تعرض لضغط كبير فقدّم استقالته، ثم انتخب الكنيست يوم الأربعاء (2007/6/13م) شمعون بيريز رئيساً للكيان. لقد انتخبه مكافأة له على الجرائم التي ارتكبها بحق العرب في فلسطين ولبنان؛ فليس هناك إنسان ينسى ارتكابه للمجزرة الوحشية والهمجية في قرية (قانا) اللبنانية عام (1996م)، وذهب ضحيتها ما يزيد على (100) لبناني أكثرهم من النساء والأطفال.

2ـ رئيس الوزراء (إيهود أولمرت) وزوجته (عاليزا) تعرضا للتحقيق بتهمة تلقي رشوة نتيجة بيع عقار استفادا منه لشراء شقتهما الفاخرة.

3ـ وزير العدل (حاييم رامون) ـ وهو أحد أعضاء حزب كاديما الذي يرأسه أولمرت ـ قدّم استقالته نتيجة تأكد التحرش الجنسي بموظفة حكومية.

4ـ رئيس أركان جيش العدو (دان حالوتس) باع حقيبة أسهم في البورصة إبان نشوب الحرب لزيادة ثروته، ثم قدم استقالته أخيراً، كإحدى أهم نتائج تلك الحرب.

5ـ رئيس كتلة كاديما البرلمانية (أفيغدور إسحقي) متهم بالفساد المالي.

6ـ عزل قائد القوات الصهيونية في الشمال الجنرال (آدم) والمعركة دائرة، وهو ما لم يحصل في تاريخ المعارك.

7 ـ هناك لجان عديدة تقوم بدراسة أسباب هزيمة الجيش، وتدمير دبابة (الميركافا) وتقليص عدد الدبابات في المعارك وفق ما جرى في جنوب لبنان.

8ـ هاهوذا (عمير بيرتس) يخسر رئاسة حزب (العمل) يوم الأربعاء (2007/6/13م) ليحل (إيهود باراك) محله، ثم يحل محلّه أيضاً في وزارة الدفاع، على اعتبار أنه لم يكن مؤهلاً لرئاسة الحزب في الوقت الذي أخفق في حرب (تموز – 2006م) بوصفه وزيراً للدفاع.

9 ـ ويمكن أن نثبت تأثير هذه الحرب في نفوس بني إسرائيل كما عبرت عنه قصيدة (ميثاق النار) لحاييم نحمان بياليك من (سلسلة ألف كلمة وعشرة آلاف) تأليف (أهارون روزين ـ ص 38 ـ ترجمة فؤاد أبو زريق)، إذ كانوا يسترجعون في بدء حرب تموز على لبنان هذا المقطع من قصيدة (بياليك)[1]

---

[1] الأدب الصهيوني وتضليل الرأي العام 41 ـ 42.

على قمة نبو
أمام الشمس المقبلة
منظر رائع كوجه ملاك الحرب
يقف يهو شوّع بن نون يصيح
على رأس جيشه العظيم
صوته كالسهم يخرج مليئاً قوة، بأساً.
كلامه يتأجج كالشعلة، كالنار
والصحراء المخيفة، الصحراء الخاليه
تردد خلفه: "إسرائيل قم، رِثْ" (!!)

أما في نهاية تلك الحرب فقد أخذوا يرددون هذا المقطع من قصيدة (ميثاق النار) للشاعر نفسه:

"اهتاجت بحار اللهب طوال الليل، وامتدت ألسنة اللهب فوق جبل (موريا)، النجوم انبجست من السماء المشوية، هل داس الله كرسيه وفتت تاجه إلى شظايا، هل مزق الله الرداء الأرجواني وألقى مزقه للريح، وكان خوف الله على الجبال البعيدة إنه بجلاله هادئ ورهيب يجلس على كرسي من نار في قلب اللهب، لباسه ضرام أرجوان، ومسند قدميه جمر متأجج، أحاطت به النيران وهو هادئ ورهيب يجلس واضعاً ذراعيه على قلبه ... يوسع دائرة اللهب بنظرة عينيه ويؤجج الحريق بحركة جفنيه.

هللوا لله راكضين محترقين ـ هللوا لله رقص لهب ونار"[1].

وحين نتحدث عن الكيان الصهيوني بكل أبعاده فإننا لا نقلل من قدرته ومما يمتلكه من أسلحة متطورة كانت سبيله إلى قتلنا، ولا نقلل من حجم الدمار الذي لحق بلبنان أرضاً وشعباً ولكننا نقر في آن معاً بأن المقاومة الوطنية بقيادة حزب الله أسقطت هيبة الأسطورة الصهيونية، وأظهرت حقيقة

---

[1] المرجع السابق نفسه.

المشهد السياسي والعسكري من الداخل. فقد وقع خلاف حاد في حكومة أولمرت، وتصاعد هذا الخلاف بينه وبين وزير دفاعه (عمير بيرتس) ورئيس أركانه (دان حالوتس). وكل منهم يتهم غيره بأنه وراء هزيمة الجيش الصهيوني في لبنان على الرغم من صدور القرار الظالم لمجلس الأمن رقم (1701) الذي انتصر للصهيونية وابتز الدول الكبرى لحساب الدولة اللقيطة لتحقيق أغراض صهيونية أمريكية على حساب لبنان (الشعب والمقاومة والتراث الحضاري). وظل الخلاف محتدماً حتى سقط (حالوتس) وقدّم استقالته ثم سقط من بعدُ وزير الدفاع كما أشرنا سابقاً. ولا ننسى في هذا الشأن اتهام (نتن ياهو) رئيس حزب الليكود لأولمرت بأنه عاجز عن إدارة حكومة الكيان الصهيوني، وكان أداؤه ضعيفاً في الحرب الأخيرة ما يجعل حكومته تسير إلى الانهيار الحقيقي، ولا سيما أن هذه الحرب قد كلفت الكيان ما يزيد على ستة مليارات من الدولارات موزعة على العديد من القطاعات الاقتصادية، فقد أكدت الإحصائيات الصهيونية أن الخسائر اليومية للاقتصاد الصهيوني كانت تتراوح بين (90 مليون دولار) وبين (110 ملايين دولار)، فضلاً عن الخسائر في الصادرات الصهيونية عما كانت عليه في عام (2005م). وكما هي العادة فإن الإدارة الأمريكية والدوائر الغربية سارعت إلى إنقاذ الكيان الصهيوني من الانهيار، فقدمت أمريكا وحدها دعماً مباشراً لهذا الكيان مبلغ ملياري دولار زاعمة بأنه تعويض عن صموده في حربه ضد الإرهاب في لبنان. إن ما حدث على صعيد الكيان الصهيوني نتيجة البطولات الرائعة للمقاومة يُعد قضية حيوية تتعلق بكل جزئية من حياتنا الوطنية والقومية وتؤكد جدواها في واقع لا يعرف فيه العدو الأمريكي ـ الصهيوني إلا لغة القتل والدمار، واستئصال الآخر؛ كونه من الأغيار. وقد التقط أبناء الأمة العربية هذه الحقائق حين أدركوا التحولات الكبرى الناشئة عنها، فراحوا يعبرون عن طموحاتهم في السيادة والاستقلال والحرية والكرامة؛ وتيقنوا بأنه لا يجوز لهم أن يبقوا حُرّاساً للخوف والخيبات المتتالية، والسلبية القاتلة باجترار مشاهد المأساة والإحباط الذي يؤسسه إعلام العدو والفضائيات الدائرة في ركابه، وعليهم التخلص من أشكال التفكير البائس الذي يعقد أمله على

الحكام العرب.

ولهذا علينا أن نعدّ العدة لحرب قادمة وشرسة على الصعد كلها سياسية واقتصادية، نفسية وثقافية، علمية وتقنية، مدنية وعسكرية في الجو والبر والبحر؛ لأن الكيان الصهيوني ما قام إلا على القتل وشرب دماء الأبرياء من الأطفال والنساء والشيوخ واغتصاب الأرض والعرض وتدمير الحجر والشجر مستغلاً ضعفنا وتمزقنا. وهو ما يزال يتوعدنا بذلك ولا سيما أن أي ضعيف مثل (إيهود أولمرت) سيحاول الهروب إلى الأمام، وسيقدم على شن حرب جديدة ليستر إخفاقه السابق الذي أكده تقرير لجنة (فينوغراد)؛ وفيه اتهم (أولمرت) بالتقصير والعجز... وهذا كله لا يعمينا عن النشأة التاريخية للنفسية اليهودية الهمجية العدوانية منذ القديم. فالكيان الصهيوني كيان همجي دموي وعنصري متغطرس لا يرى في الأغيار إلا عبيداً له، أما أن يكونوا نداً له فهذا من المحال في مفاهيمه التاريخية والمعاصرة. ففي سفر يشوع ما يفيدنا صراحة بتاريخ زعمائهم البشع والعنصري؛ إذ جاء فيه: "ولمّا فرغ بنو إسرائيل من قتل جميع سكان العيّ في الصحراء وفي البرية حيث لحقوهم وسقطوا جميعهم بحد السيف عن آخرهم، رجع جميع إسرائيل إلى العيّ وضربوها بحدّ السيف. وكان جملة من قتل في ذلك اليوم من رجل وامرأة اثني عشر ألفاً جميع أهل العيّ، ولم يردَّ يشوع يده التي مدّها بالحربة حتى أبسل جميع سكان العيّ... وأحرق يشوع العيَّ وجعلها تل ردمٍ إلى الأبد ضراباً إلى هذا اليوم"[1].

هذا ما أسسه يشوع لأتباعه الذين جاؤوا بعده؛ وما زال هذا المنهج مستمراً إلى أن جاءت العصابات اليهودية العنصرية المسلحة إلى فلسطين وزرعت فيها القتل والتهجير للجنس العربي، وهي التي أسست جيش الدفاع الصهيوني بعد نشوء الكيان الآثم (1948). ونشير إلى بعض العصابات العسكرية التي تسللت إلى فلسطين منذ وقت مبكر (هاشومير: الحارس 1909م، وفرقة البغالة الصهيونية 1915م، والفيلق اليهودي 1915- 1916م، والهاغاناه

---

[1] سفر يشوع ـ الإصحاح الثامن ـ آية 24 وما بعدها. راجع ما تقدم 29 ـ 31.

1921م، والبيتار 1923م، والإرغون 1931م، وشتيرن 1937م، والجدناع 1939 واللواء اليهودي 1939- 1945م، والبالماخ 1941م[1].

وهذا يعني لنا أن نرص الصفوف لخلق اللحمة الوطنية الفاعلة، وأن نجهد لإسقاط كل الاتفاقيات والمعاهدات التي كبلت الأنظمة العربية بالكيان الصهيوني، وأن نعمل على إغلاق السفارات العربية لدى هذا الكيان الغاصب والعنصري، والالتزام الحقيقي والفاعل باتفاقية الدفاع العربي المشترك وإزالة هشاشة الموقف العربي وتخاذله وعجزه على اعتبار أن المقاومة الوطنية اللبنانية الباسلة قد حسنت صورة العرب لدى الآخر، فصاروا أكثر احتراماً في نظره، وتأكد عنده أنهم كبقية البشر يملكون من الشجاعة والعقل والعلم ما يملكه الآخر.

وبناء على ما سبق يمكننا تلخيص جدوى المقاومة بما انتهت إليه الحرب الأخيرة:

أولاً ـ يجب أن تصبح ثقافة المقاومة أصلاً للعلاقة الصحيحة بين أبناء الوطن والأمة لأنها السبيل الوحيد والصحيح لمواجهة العدوان كيفما كان شكله ولونه. وقد كفلته الشرائع والقوانين والأخلاق؛ ابتداء بتبني مقاطعة البضائع الصهيونية والأمريكية وقطع النفط عن الكيان وانتهاء بتأسيس الوعي الثقافي والسياسي والروحي الكامل للأمة التي تعرف ما لها وما عليها، وتدرك أن دولة الكيان إنما هي دولة عنصرية إرهابية تقوم على إلغاء الآخر تستمد قوتها من قبل القوة الأمريكية والدوائر الغربية الاستعمارية، وبعض الدول الأخرى التي رأت أن مصالحها تكمن في الصمت عن جرائم هذه الدولة المارقة. وإذا كانت دولة الإرهاب الصهيوني قد استفادت من الوضع العربي المتردي فإن بإمكان العرب هزيمتها إذا عرفوا كيف يوفرون الأسباب لذلك.

ومن ثم علينا الالتزام بخيار المقاومة فكراً وممارسة وتبني الوسائل والسبل الكفيلة بنجاحها رسمياً وشعبياً؛ وأبرزها تشكيل جبهة شعبية وطنية

---

[1] انظر الاستراتيجيات العسكرية للحروب العربية الإسرائيلية ـ د.هيثم الكيلاني ـ مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت ـ ط1 ـ 1991م ـ ص87.

وقوميـة مقاومـة ومتسـلحة بـالوعي والعلـم والتقنيـة والصـبر والعقيـدة والإرادة ومسـتندة إلى معرفـة الآخـر معرفـة تامـة، ودارسـة لزوايـا قوتـه وضـعفه. هـذا مـا علمتنـا إيـاه المقاومـة الوطنيـة؛ علمتنـا أن ننتصـر علـى نفوسـنا وضـعفنا وخوفنـا وجهلنا. وهذا ما ينبغي أن نفجره في ذاتنا ونحن نلجأ إلى خيار المقاومة والسلام.

ثانيـاً: دك آخـر المقـولات والتوصـيفات والنعـوت الـتي تصـف جـيش العـدو الصـهيوني بأنـه القـوة الـتي لا تقهـر، فقـد أثبتـت المقاومـة الوطنيـة اللبنانيـة في كـثير مـن المعـارك أنهـا كانـت سـيدة المعركـة، وسـيدة الصـمود وسـيدة الكرامـة، كمـا أثبتـت للعـالم كلـه أن معركـة الجنـوب اللبنـاني واحـدة مـن المعـارك الكـبرى الـتي تضـاف إلى معـارك المقـاومين في فيتنـام حـين انتصـر الفيتنـاميون علـى الأمريكـان، وفي روسـيا حـين انتصـر الـروس علـى نـابليون بونابرت، وفي فلسـطين حـين انتصـر مقـاومو الانتفاضـة الفلسـطينية علـى جـيش العدو الصهيوني ولا تزال معركتهم الوطنية مستمرة.

ثالثـاً: كشـفت أحـداث حـرب تمـوز في لبنـان أن المجتمـع الـدولي مجتمـع عـاجز، ومـتردد، وضـعيف، ومختـزل لعـدد محـدود مـن الـدول الكـبرى الـتي تتحكم بمقاليد الشعوب وتطلعاتها، وهـي دول محكومة بـالمقولات والتوجهـات الصهيونية. ويتبدى ذلك من خلال ما قامت بـه الولايـات المتحـدة الأمريكيـة مـن تجنيد لكل الهيئات والمنظمات الدولية، وخصوصـاً مجلس الأمـن الـدولي، مـن أجل استصدار القرار (1701) الذي وضع من أجل إنقاذ الكيان الصهيوني من هزيمته العسكرية المحققة، الأمر الذي جعل قادة الكيـان يتشـدقون بانتصـار سياسي بعدما أخفقوا في تحقيق أي انتصار على الأرض.

رابعـاً: أوضـحت نتـائج حـرب تمـوز أن الوضـع الرسمـي العربـي يعـاني مـن مشكلات بالغة الحدة والتعقيد، ولا سـيما حـين أذعـن للترهيـب والترغيـب مـن قبل الإدارة الأمريكية، على حين أن بعض الأنظمة العربية أبدى عجزه وضعفه في معركة مصيرية تعني الأمة العربية جمعاء. فالنظام العربي الرسمي لم يكـن بالحال المرضية إذ ظهر ـ غالباً ـ مفارقاً لآمـال شـعبه وطموحاتـه، ومتحالفـاً مـع السياسة الأمريكية.

خامسـاً: أوضـحت حـرب لبنـان أن الأمـة العربيـة أمـة حيـة بعـدما تفاعلـت

وتضـامنت مـع المقاومـة اللبنانيـة مـن المحـيط إلى الخلـيج. وهـو موقـف يؤكـد الفجوة الكبيرة المرعبة بين الأنظمـة الرسميـة العربيـة وشعبها. وهـذا مـا يتطلب مراجعة وطنية على كل المستويات والصعد لتعزيز الجبهات الشعبية الداخلية لمواجهـة كـل المشـاريع العدوانيـة الصـهيونية والأمريكيـة المـراد فرضـها علـى المنطقـة، كمـا يتطلـب مراجعـة قوميـة لتعزيـز الجبهـات القوميـة وفـق معاهـدة الدفاع العربي المشترك ومقاطعة البضائع الصهيونية والأميركية، وقطـع الـنفط عن الكيان الصهيوني وسحب ممثلي السفارات العربية من دولته المزعومة.

سادساً: أوضحت نتـائج الحـرب أيضـاً أن أي رهـان علـى القـوة الخارجيـة، ومنها الولايات المتحدة الأمريكيـة، هـو رهـان خاسـر وباطـل ذلـك لأن الولايـات المتحدة الأمريكية تعمل وفق مصالحها ووفق مصـالح ربيبتهـا (إسـرائيل). فهمـا تسـعيان معـاً لتشـكيل فـرق مـن العمـلاء الـذين يعملـون لصـالحهما في المنطقـة العربية وأنهما معاً غير معنيتين بأية توجهات وطنيـة أو قوميـة تخـالف الأهـداف الأمريكية والصهيونية.

سابعاً: أكدت الحرب الأخيرة أن الصراع مع الكيان الصهيوني هو صراع وجود لا صراع حدود، وأن التنـاحر مـا بـين المشـروعين العربـي والصـهيوني إنمـا هو تناحر ما بين الحق والباطل، والمظلوم والظالم، والضحية والجـلاد، والخـير والشر.. وأن الكيان الصهيوني لا يفهم إلا لغة المقاومة.

ثامنـاً: أسـقطت نتـائج الحـرب الأخـيرة كـل مقـولات السـلام، وخيـارات السلام لأن الكيان الصهيوني لا يريد السلام ولا يملك أي مشروع لإقامتـه، ولا يسـعى إليـه مـا دام يمتلـك القـوة الغاشمـة الـتي توفرهـا لـه الولايـات المتحـدة الأمريكيـة، وأن السـلام في عـرف الصـهاينة هـو احـتلال لـلأرض، ودوس لكرامات الشعوب، وسحق للإرادات، وتدمير للمقاومة الشعبية الوطنية.

تاسعاً: أسفرت المعركـة الوطنيـة في جنـوب لبنـان عـن العديـد مـن المشـاريع الاسـتعمارية العدوانيـة الـتي خططـت الإدارة الأميركيـة لتنفيـذها في المنطقـة بوساطة أداتها العدوانية (إسرائيل) ومنها العمل على إقامة شـرق أوسـط جديـد برعايـة أمريكيـة وعـزل سـورية وتصـفية دورهـا الـوطني والقـومي في المنطقـة العربية، وضرب إيران وإضعافها للحدّ مـن دورهـا الإقليمـي في المنطقـة، وخنـق

حركة المقاومة الوطنية، في فلسطين المحتلة وشل حركتها. وقد تجلى هذا في الفتنة القاتلة بين الأخوة الفلسطينيين، إذ نشب القتال بين منظمتي (حماس وفتح) كان آخره القتال المر الذي اشتد في غزة بين (10 –2007/6/16م) وأدى إلى سيطرة (حماس) على غزة، على حين سيطرت (فتح) على الضفة الغربية، وأخرجت (حماس) من مقراتها. هكذا تمزقت الدولة الفلسطينية قبل أن تولد، وتحول القتال المقدس إلى قتال مدنس ووسخ ترك أثره البشع في القضية الفلسطينية برمتها، وأوقع النفس العربية في إحباط لا يقل عن إحباط هزيمة حزيران، التي تمر ذكراها الأربعون، والقتال جار بين الأشقاء. لقد حققت أمريكا والدولة اللقيطة بأيدي أبناء القضية ما عجزت عنه في الواقع، فأحداث غزة كسرت نفسية الشعب الفلسطيني وهو الذي صَمَد أمام الآلة العسكرية الوحشية للكيان الصهيوني. وكذلك عملت الإدارة الأمريكية والصهاينة على تصفية المقاومة الوطنية في لبنان ولا سيما (حزب الله) وإلحاق لبنان بالمشروع الصهيوني بربطه باتفاق سياسي جديد شبيه باتفاق 17 أيار سيئ الذكر. ومن ثم ضغطت الإدارة الأمريكية الصهيونية على إصدار القرارات التي ساعدتها على تشويه المقاومة الوطنية اللبنانية بوصمها أنها مقاومة مذهبية شيعية، ثم وضعت (حزب الله) على قائمة الإرهاب، وراحت تثير الفتنة الداخلية في لبنان لإيجاد الأعداء الداخليين الذين يحرصون على نزع سلاح (حزب الله).. وما زالت سياسة الفتنة التي يقودها السفير الأمريكي في لبنان مستمرة من أجل الإيقاع بين اللبنانيين.

عاشراً: أكدت نتائج المعركة الوطنية في لبنان أهمية الوحدة الوطنية في لبنان أولاً و في الوطن العربي ثانياً، فقد كانت الوحدة الوطنية اللبنانية، والجبهة الشعبية العربية والإسلامية، وجبهة الأحرار في العالم السند الحقيقي للمقاومة الباسلة، الأمر الذي جيش لحضور شعبي وطني صادق في العديد من بلدان العالم في الشرق والغرب معاً، فقد كانت الشعوب هي المؤيد الأول للمقاومة الشريفة، وهي المقياس الحقيقي لشريعة المقاومة ووطنيتها.

حادي عشر: أكدت نتائج الحرب الأخيرة أن العدالة لا تحققها قرارات الأمم المتحدة التي تتحكم بصياغتها وإعدادها وإصدارها الإدارة الأمريكية

خدمة لربيبتها (إسرائيل) وأن ما يحقق العدالة هي الشعوب المطالبة بحقوقها المغتصبة، والمتمسكة بإرادتها الوطنية الرافضة لليأس والاستسلام والخضوع لمنطق القوة الأمريكي ـ الصهيوني في المنطقة. ويبدو أن هذا الاتجاه بدأ يظهر في العديد من دول العالم وبأشكال شتى في فنزويلا وكوريا وكوبا وإيران، بل في أوربا والصين وروسيا. فهناك إرهاصات تدل على التململ الكبير من الهيمنة الأمريكية على العالم، ولا سيما ما ظهر في مؤتمر الأمن المنعقد في (ميونيخ)، مطلع (شباط ـ 2007م). وفيه قال الرئيس الروسي فلاديمير بوتين: (الاستقطاب الأحادي الأمريكي غير مقبول، بل إنه صار مستحيلاً في عالم اليوم".

وبناء على ما تقدم كله نقول: علينا نحن الأدباء والكتاب والمثقفين أن نستلهم انتصار المقاومة في لبنان وفلسطين والعراق إرادة وصبراً، إيماناً وصدقاً، معرفة وخبرة لتشكيل حياتنا وإرادتنا الحرة وفق حراسة المروءة والدفاع عنها، وأن نخلق ثقافة إبداع متمسكة بإرادتها، ثقافة ترتقي إلى مستوى الحدث النوعي لبطولات المجاهدين الأحرار، والكشف عن المجازر الوحشية الجماعية لآلة البطش الصهيونية المدعومة بآلة القتل الفتاكة المصنوعة في أمريكا والمرسلة إلى قتل أطفالنا ونسائنا، ومحو هويتنا وثقافتنا إذ لا تتحقق الجدوى من أي مقاومة إن لم تُبْنَ على فكر واعٍ وخلاق، فكر نضالي وطني يلتزم بالإنسان الحر والكريم ويتفانى بالدفاع عن ثوابته الوطنية والقومية.

وإذا كان ختام هذا الفصل قد وضعنا في الآفاق المستقبلية لجدوى المقاومة فإن الفصل الخامس ينقلنا إلى آفاق ثقافة المقاومة وترسيخها في نفوس الناشئة مستفيدين من الآليات والوسائل الممكنة في التربية والثقافة والأدب والإعلام والفن...

الفصل الخامس

المقاومة والتنشئة الوطنية

ـ تقديم:

1 ـ التربية الوطنية المقاومة.

2 ـ أثر الأدب في التنشئة الوطنية.

3 ـ المقاومة والتنشئة الإعلامية.

4 ـ دور الفن في التنشئة الوطنية.

5 ـ المقاومة والتنشئة الدينية.

الفصل الخامس

المقاومة والتنشئة الوطنية

ـ تقديم:

ليس ثمة حضارة خلقية وأخرى متوحشة مرذولة، فالحضارة حضارة، وهي تتصف على مدى التاريخ الإنساني بعناصر البناء والتقدم والارتقاء للجنس البشري في الوقت الذي يتجلى فيها نزوع الخير والفضيلة... أما الثقافة المدنية مادية ومعنوية فإنها قد تتصف بالخير أو بالشر والتوحش تبعاً لاستخدامها البشري... ما يشي بأن نزوع الخير والشر إنما يكمن في الطبع البشري أو في الاكتساب النفسي والمعرفي الذي يصطبغ ـ أحياناً ـ بصبغة المصالح الزائفة والآنية من أجل شهوات نفسية وغرائز مادية. فإذا أسست الثقافة على اصطناع الخير وتقديمها للبشرية هدية كبرى استطاعت أن تصنع حضارة خلقية نبيلة تتعزز ارتقاء بالسلوك الإنساني الخير، وإذا أسست على مبدأ تغليب المصالح الذاتية والنفع الخاص للفرد أو الجماعة، أو الدولة أو الدول من دون أن تراعي القيم النبيلة ــ ومن دون أن تقيم وزناً إنسانياً للآخر ــ أو لمبادئ المصالح المشتركة ـ فإنها ستصبح ثقافة شريرة، ثقافة تعمل على إلغاء الآخر وجعله تابعاً للنفع الخاص... ما يعني أن صاحب النفع الخاص لا يرى إلا ذاته الاستعلائية، وكأنه خلق من طينة غير طينة البشر، ولاسيما إذا كان قد ملك قدرات خاصة. وهذا ما ينطبق على الدول حين تزعم أنها تملك ما لا يملكه غيرها من الدول، وبخاصة إذا كانت تحوز موارد متنوعة وشاملة سواء كانت هذه الموارد بشرية أم طبيعية واقتصادية وتقنية وإعلامية وعسكرية و... ولعل هذه الموارد والقدرات تخرجها عن الفطرة السليمة إلى طريق العنف والسير في الاعتداء والعبثية...

ولعل هذه التوطئة تدفعنا إلى القول: إن عبثية المصالح النفعية قد تجر أصحابها إلى ارتكاب المجازر الوحشية بحق الإنسانية، ويصبح من العسير على أي مؤسسة تُعنى بحقوق الإنسان وسعادته أن تدفع الأذى عن النفس الفردية والجمعية. ولعل هذا ما تحدث عنه ابن خلدون (808 هـ) عن وحشية الدول التي تهدم كل شكل من أشكال التقدم المدني أو الحضاري...

ولسنا نقول شيئاً جديداً حين نؤكد أن اضمحلال الوطن العربي وتفككه لم يكن حصيلة المرحلة الراهنة من التاريخ الحديث، فقد عاش مرحلة التخلف الطويل والعجز المريب؛ والجهل العجيب إبان الحكم العثماني الذي ران على الفكر والحياة ما يقارب (400) سنة حتى دخل الوطن العربي ـ خلالها ـ في حالة سكونية بعيدة عن حالة الوعي والتقدم.

وإذا كان الوطن العربي قد شهد في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين حالة من اليقظة والنهوض الوطني والقومي فإنه سرعان ما وقع في قبضة الاستعمار الأوربي... الذي انتدب نفسه للهيمنة عليه وما خرج من الأرض العربية حتى أنجز مشروع تقسيمها وفقاً لسايكس ــ بيكو(1916/5/15م)، فضلاً عن أنه زرع في قلبها الخنجر الصهيوني المتوحش إثر نكبة (1948م)... وظل الغرب الأوربي ثم الأمريكي حارساً للتقسيم والتفتيت وحامياً للدولة الصهيونية اللقيطة، بل عزز وجودها وقدراتها فأمدها بكل أنواع الأسلحة الفتاكة من طائرات وصواريخ وقنابل ودبابات و... ولعل هذا كله لا ينسينا أن مشروع تقسيم الوطن العربي مشروع ديني صهيوني كما يثبته قول دافيد بن غوريون: "إن إسرائيل الكبرى لن تقوم إلا على أنقاض أكثر من خمسين دولة عربية"[1].

ونرى أن ذلك كله فرض على الدولة الوطنية نمطاً من التربية التي تؤصل مفاهيم المواطنة، وترسيخ قيم التحرر الوطني وسيادة الوطن، مهما تكن قدرتها على إدارة مواردها التي ظلت مرتبطة بعجلة الغرب... ثم ظلت الحركة

---

[1] أمريكا العقلية المسلحة ص 226 – عبد الله محمد الناصر – رياض الريس للكتب والنشر – بيروت – 2007م.

الديمقراطية حركة خجولة أمام الطموح في التحرر الاجتماعي، علماً أنه تحرر اجتماعي تأثر هو الآخر بالنظريات الغربية وعادات أهلها وقيمها ومنهجها...[1] ما أدى في الحالين إلى تخلف المشروع القومي النهضوي، على الرغم من وجود الحركات الفكرية التنويرية على اعتبار أن المجتمع العربي أخذ يبتعد عن القيم الدينية الصحيحة، وأن بعض فئات منه تمسكت بتقاليد بالية، ومذاهب ضيقة، وطوائف مريضة، فضلاً عن قوى اجتماعية عدة لم تنخرط في عملية التحرر الاجتماعي ذاته؛ ومثّلت عائقاً جدياً في وجه التقدم والنهوض.

وعلى الرغم من الصعوبات الكبرى في عملية التنمية الشاملة كان الوطن العربي يتحرك، لإنجاز المشروع الوطني والقومي رابطاً إياه بمفهوم الهوية العربية الواحدة؛ ومفهوم التحرر من الاستعمار ومبدأ تحقيق العدالة الاجتماعية والاقتصادية. في الوقت الذي لم تأخذ مؤسسات المجتمع المدني مكانتها المرجوة في عملية التنمية المتوخاة منه[2]... فإذا كانت الديمقراطية مرتبطة بالتحرر الاجتماعي لإيجاد التطور المنشود فإن مؤسسات الدولة في أغلب البلاد العربية حملت على عاتقها مسؤولية تربية ثقافة المقاومة لصدّ العدوان الخارجي، وشاركتها في هذه المهمة الوطنية مؤسسات المجتمع المدني أو الأهلي وإن كانت تعمل بأسلوب ذاتي ومنفرد.

ولا غرو في أن الدولة حملت ـ منفردة ـ مهمة وطنية وقومية في مواجهة الاستعمار الخارجي، وبخاصة الاستعمار الغربي ثم الاستعمار الاستيطاني الصهيوني، الذي غدا أعظم أزمة يواجهها النظام الرسمي في كل دولة، إذا أهملنا أزمة الأحادية التي عانى منها هذا النظام في إلغاء التعددية السياسية ما أوقع الدولة الوطنية في الإحباط والارتباك أمام حل القضية الفلسطينية.

. وإذا كانت القضية الفلسطينية منذ نكبة (1948م) قد أضحت مركز المقاومة العربية، ومدار التكامل الأعظم على المستوى الوطني والقومي، ـ وكل موارد الأقطار مسخرة للمعركة والتحرر ـ فإن ما يؤسف له أننا أخذنا

---

(1) انظر كتابنا مشروع القومية العربية إلى أين 15 وما بعدها.
(2) انظر المجتمع المدني: مفهوماً وإشكالية ـ 266.

نـرى نوعـاً مـن التقـدم في البنـاء والنهـوض الاجتمـاعي بينمـا نشـهد خسـارة في الأرض. لذا طفقنا نعاني من كثرة الوجوه الممسوخة التي تنطق بلسـان الغـرب، أو أمريكـا وربما بلسان صـهيوني.... ثـم صـارت الخيانـة أو العمالـة وجهـة نظـر... علمـاً أن الكيـان الصـهيوني المتـوحش كـان يختـرع الحـروب أو الاشـتراك فيهـا ليمنـع المشـروع القـومي النهضـوي مـن التحقـق... ومـن أبـرز اعتـداءاتـه (العـدوان الثلاثي على مصر 1956م) ومساندة الانفصال الأسـود (1961/9/28م) الـذي اعترفت به أنظمة عربية عـدة بعـد أن مولتـه، ووقـوع نكسـة حزيـران (1967م) الذي سبب النكسة المشؤومة، وهـي خسـارة كـبرى ـ مـن دون شـك ـ ولا مثيـل لها في التاريخ العربـي إلا نكبـة (1948م)... وهـذا كلـه يضـعنا وجهـاً لوجـه مـع خيبات الأمة، والعمل على تجاوزها بإرادة صلبة وتربية وطنية مقاومة.

1 ـ التربية الوطنية المقاومة:

اتضح لنا مما تتقدم أن الإحباط والقلق، والخوف من المجهول صار ممثلاً لحياة كثير من أبنـاء الأمـة العربيـة والإسـلامية إذا لم نقـل: إن العجـز والضـعف وسـوء المعالجـة أضـحى أمثولـة يتنـدر بهـا كـثير مـن أبنـاء البشـرية. فـلا الدولـة القومية تحققت؛ ولا آليات الوحدة حققت أي شـكل من أشـكال التضـامن بـين الدول العربية... بل إن الدولـة القطريـة تعرضـت لإشـكالات شـتى وأزمـات عـدة هـددت سـيادتها ووحـدتها، ولم تصـمد قيـادات عـدد منهـا أمـام هجـوم مشـاريع الـدوائر الصـهيو/أمريكيـة وفي طليعتهـا (مشـروع الشـرق الأوسـط الجديـد) أو المشـروع الصـهيوني الاسـتيطاني العنصـري الـذي اعتُمـد في تحقيقـه علـى آليـات متنوعة. فالذراع الطويلة للجيش الصهيوني غدت مفخرة اعتـزاز لكـل صـهيوني يمارس من خلالها عنصريته وحقده الذي دفعه إلى جرائم غير محدودة النتـائج... ثم صارت الدولة الصهيونية اللقيطـة مـدعاة إعجـاب لـدى الغـرب، لأنهـا تصـدَّت لعشـرين دولـة عربيـة صـورتها آلـة التضـليل السياسـية والإعلاميـة للـدوائر الصهيو/غربية دولاً ظالمة قـاهرة لحقـوق الإنسـان؛ كمـا صـوَّرت جيوشـها بأنهـا جيوش متوحشة تريد إلقاء اليهود في البحـر. وهكـذا قلـب الصـهاينة وحلفـاؤهم الجلاد إلى ضحية، وقلبوا الضحيّة إلى جـلاد... ثـم وقعـت الـدول العربيـة فريسـة

سهلة للاعتداءات الصهيونية، ونشبت الأوهام في نفوس أبنائها وبخاصة بعد نكسة حزيران... ولم ينتشل النفس العربية من جراحاتها النازفة إلا ثقافة المقاومة التي تعززت في النفس العربية التي أنتجت فصائل مسلحة لتحرير الأرض المغتصبة... وراحت النفوس تتغذى بروح النهوض لاسترجاع الأرض السليبة؛ ووضعت البرامج التربوية التي تحقق تلك الغاية، من دون أن ننسى التربية العقائدية لبعض الجيوش العربية... ومن ثم اتخذت المقاومة أشكالاً شتى بالكلمة وبالسلاح كيفما كان الانتماء الفكري أو العقيدي، وسواء كانت مقاومة شعبية؛ أم اتخذت حرب استنزاف للدول، أو القيام بحرب منظمة لتحرير الأرض. وكانت المقاومة المسلحة قد أطلقت شرارتها الأولى في عام (1965م) سواء تمثلت بحرب العصابات، أم بحرب التحرير الشعبية، أم بحرب الاستنزاف على الجبهتين السورية والمصرية عام (1968 – 1969م)، أم بحرب (تشرين الأول/ أكتوبر 1973م). وإذا كانت اتفاقية (كامب ديفيد) التي وقعها الرئيس المصري أنور السادات مع الصهاينة عام (1979م) قد أجهضت المقاومة العربية المنظمة، وقتلت الحلم العربي بالتحرر القومي والتوحد، فإن المقاومة بالكلمة قد اتخذت أنماطاً متنوعة نشأت الأجيال عليها وتربت. وبناء عليه فقد ظهرت ثقافة جديدة تسمى ثقافة المقاومة في الفكر والسياسة والاجتماع والأدب والفن والدين؛ ثقافة تتبنى مفهوم المقاومة من أجل التحرر والحفاظ على الكرامة العربية، في الوقت الذي تحافظ فيه على الوجود الذي أخذ الكيان الصهيوني يهدده؛ وهو يقوم بالمجازر الدموية الجماعية في الأرض المحتلة؛ ويسجن الآلاف المؤلفة من المناضلين والأبرياء... ما يعني أن تربية المقاومة غدت واجباً وطنياً مشروعاً ولا مناص عنه من أجل الدفاع عن الذات والوطن والانتماء... ومن ثم تضافرت جهود المعلم والمربي والمثقف والأديب والفنان والفقيه والعالم لتحصين الروح الوطنية وتعزيز ثقافة المقاومة، والتسابق إلى الشهادة في سبيل الوطن بوصفها قيمة عليا تستوجبها الشرائع السماوية. ولذا ولد المقاوم العربي أرض جُبل دمه بترابها؛ وعاش في مجتمع قدَّس المحبة والتعاون والكرم والعطاء، والفداء؛ وأحب الفضيلة لذاتها، وكره الرذيلة لشرها ولما ترسيه في المجتمع من مآسٍ. وقد رأى كل حُرّ

شـريف أن أعظـم الرذائـل سـلباً لـكرامتـه تتجسـد في اغتصـاب عـدو مـا للبيـت والأرض؛ بما يورثها من هتك للشـرف والعـرض و... فالأفعـال الإجراميـة الشـريرة والمـدمرة أفعـال قبيحـة وعدوانيـة مـن دون جـدال، وهـي لا تحتـاج إلى موادعـة ومواربة، وإنما تحتاج إلى مواجهة وردع ومنع، ولا يجوز لأحد من أبناء الوطن أن يتخلف عن مقاومتها؛ أياً كان لونـه أو جنسـه أو عقيدتـه، أو مذهبـه أو طائفتـه في الوطن الواحد، صغيراً أم كبيراً... ولن يتحقق هذا كلـه إلا بوسـاطة التربيـة الوطنيـة المقاومـة؛ وجعلـها ثقافـة شـعبية... ولابـد مـن أن تصـبح حمايـة الـذات الوطنيـة واجبـاً مقدسـاً يفـرض علـى كـل مـواطن، مـا ينفـي عـن المقاومـة صـفة الارتبـاط بجهـة مـا؛ أو فئـة مـا... وهـذا يثبـت أن المقاومـة الوطنيـة ليسـت عصـبية هوجاء؛ ولا عنصرية شوهاء؛ ولا حماقة رعناء؛ إنها فعل إنسـاني نبيـل اسـتند إلى قيم المجتمع النبيلة، وشـرعة القـانون الإلهـي والـدولي... ولـذا ارتقـت المقـاومـة إلى مرتبة سامية ومقدسة؛ حين صارت قرينة للشهادة المقدسة في ظل قـانون الـدفاع عـن الـذات والـوطن... أي إن ظـاهـرة الارتبـاط بـين المقاومـة والتنشـئة الوطنيـة الطوعيـة والمكتسـبة تتمسـك بـإرادة الفـرد والجماعـة؛ وهـي إرادة تنمـي مفهـوم الانتماء الوطني والإخلاص له بمثل ما تقوي رابطـة العقـد الاجتمـاعي بـين أبنـاء الأمة... وهـكذا عاش المجتمع العربي في بعض الأقطار العربية والإسلامية حالـة من المقاومة الشاملة على كل مستوى، من الطفل إلى المـرأة إلى الشـيخ، كلـهم دخلـوا في أتـون مقاومـة المحتـل الصـهيوني الغاصـب لفلسـطين، وهـو نفسـه مـن اعتـدى علـى لبنـان غـير مـرة. ولمّـا أخـذت التنشـئة الوطنيـة تعـزز تبصـير المجتمـع العربـي بالعـدو الصـهيوني كانـت تفـتح عيـون أبنائـه علـى مشـاريع الـدوائر الصهيو/أمريكية، وبخاصة حين أكدت الأحداث أن أوربا وأمريكـا شـركـاء في العدوان على الأمـة كلها. فأمريكـا هـي الـتي دفعـت صـدام حسـين لإطـلاق شرارة الحرب العراقية الإيرانية سنة (1980م) ووفَّرت لها الأسباب التي جعلتها تـدوم ثمـاني سـنوات أكلـت الأخضـر واليـابس في دولـتين مسـلمتين وجـارتين، فضـلاً عـن أنهـا أجَّجـت التنـاقض بـين الـدول الإسـلامية والعربيـة.. ثـم لم يلبـث التمزق العربي أن ازداد اتسـاعاً في غزو صدام حسين للكويت سـنة (1989م)، وجعلت العـالم يتحالف بقيادة جيشها لإخراج الجيش العراقي مـن الـكويت، ثـم

عُقد مؤتمر مدريد عام (1991م) واعداً العرب بإعادة الأرض مقابل السلام، فلا رجعت الأرض ولا تحقق السلام.. وإنما وصل العرب إلى اتفاقية أوسلو في (1993/9/13م) ثم اتفاقية وادي عَرَبة في[1] عام (1994م) ـ أيضاً ـ وما تحقق الأمان النفسي ولا الأمن السياسي؛ بل ظهرت أشكال من ثقافة الهزيمة والاستسلام والتحول في الآراء والأفكار والمواقف[2]. وكل ذلك خلق أوضاعاً مزرية للمجتمع العربي ما دعاه إلى الاستنكار والاستهجان تارة، وإلى الانتفاض في المظاهرات تارة أخرى.

ولمّا أنجزت التربية الوطنية مهمتها في تنشئة أطفال الحجارة الذين انتفضوا على القهر والظلم عام (1987م) ـ على الرغم من بؤس الرجال الذين ضعفوا ـ كان هناك شعب مقاوم يشعل انتفاضته الثانية نتيجة تدنيس شارون للمسجد الأقصى في (2000/9/28م)[3] ولكنها أُجهضت بخارطة الطريق...[4].

ولما كان ذلك كذلك كان الشعب العربي في العراق يخلق مقاومته الجبارة لإخراج المحتل الأمريكي من أرضه[5]، وكذلك كانت الروح الوطنية للشعب اللبناني تصنع المعجزات في مقاومة المحتل الصهيوني الذي انتهج العدوان الفتاك شريعة له لإذلال الروح الوطنية المقاومة عند العرب.

وعليه أصبحت التربية الوطنية المقاومة تستجيب للوجدان العاطفي والثقافي والديني والخلقي... وترتبط عضوياً بالسيادة والكرامة والحرية والتطور الموضوعي وترى أن ثقافة المقاومة أساس التسلح بالوعي الكبير لخصائص الذات الوطنية والقومية؛ خشية الوقوع في مطب الإلغاء والإقصاء بعد أن سادت مقولات الأمركة والتبعية لمشروع الشرق الأوسط الجديد؛ علماً أن الفضائيات ووسائل الإعلام والتقنية الأجنبية والعربية راحت تتبارى في غسل أدمغة الأطفال

---

[1] راجع ما تقدم 194.
[2] راجع ما تقدم 187 وما بعدها.
[3] راجع ما تقدم 159 و 199.
[4] انظر الجيل الثالث – نهج المقاومة – محي الدين الموسى – كيوان للطباعة والنشر – 2006م – ص 181 – 204.
[5] انظر كتابنا قضايا في الفكر السياسي والقومي 127 ـ 185 وراجع ما تقدم 193 و 196 ـ 197.

العرب وناشئتهم من كل أثر للمقاومة أو الممانعة. ولعل هذا الوضع غير السوي قد خلق أنماطاً من المثقفين والسياسيين المسلوبين في إرادتهم وعقولهم، ولا سيما أولئك الذين يسوغون للاحتلال بحكم القبول بالواقع، لأننا عاجزون عن تغييره، فضلاً عن أن هناك أدباء وكتاباً ومثقفين وسياسيين عزلوا أنفسهم وصمتوا عن الكلام، أو اتخذوا لأنفسهم طريق المهنة التي انخرطوا فيها؛ وتجنبوا الخوض في الحديث عن مقاومة الاحتلال، أو التصدي لكشف عملائه، فكانوا أشبه بالموتى في عالم الأحياء...

فالتربية الوطنية الفطرية والمكتسبة كونت المواطن المنتمي الذي عشق الشهادة ومجدَّ البطولة والإرادة والقوة وكره الضعف والخيانة... واعتز بالأصالة والانتماء وتقرير المصير حاضراً ومستقبلاً.

فثقافة التربية الوطنية المقاومة الحقيقية انشغلت بالتكامل بين المحلي والقومي والإنساني وبين الثقافي والعلمي والموضوعي مستفيدة من العقيدة الدينية الدافعة؛ لتخلق الإنسان المتوازن المثقف المنفتح على الأفراد في الداخل والخارج من دون أن يصاب بالانحراف والتشوهات؛ ومدركاً بالدرجة الأولى لدلالة المصطلحات والتفريق بينها؛ وعارفاً بالمفاهيم والمناهج؛ ومقدراً للقيم الأصيلة التي نشأ عليها ما يشي بخلق الأجيال التي تتصف بالصدق والاستقامة والكرم والشجاعة وحب الوطن وصدق الانتماء والدفاع عنه والالتزام بالقانون واحترام حقوق الآخرين ... ثم إن تربية ثقافة المحبة والتشارك، وتنمية الثقة بالذات والمحافظة على التراث والكنوز الأثرية والأوابد التاريخية عزَّزت دوافع التضحية والفداء... ولولا ذلك كله لفقد المرء معنى الوجود البهي. فالتربية الوطنية المقاومة قادرة على إيجاد علاقة وثيقة بين ما هو وطني وقومي من جهة وما هو إنساني من جهة أخرى، وبين ما هو جوهري وما هو عَرَضي وزائف، و... إنها تعنى بعناصر الإقناع وعرض الحقائق وتأسيس الإدراك بالحق والباطل وحقوق الإنسان. ولعل هذا كله ما اشتغلت به المقاومة الوطنية اللبنانية بقيادة (حزب الله) وحرصت على تربيته في الناشئة فحققت انتصار (2000/5/25م) وانتصار تموز (2006م) بعد حرب ضروس دامت (33) يوماً، بدأت بعدوان وحشي صهيوني مدعوم بكل الدفع الأمريكي يوم (2006/7/12م).

ولذلك كله نهض عدد من المربين والمثقفين العرب بتربية الارتباط بين الأرض والإنسان والارتفاع بدرجة المواطنة التي ترتب على الفرد واجبات مقدَّسة، والتحرر من النزعات الشخصية والأنانية... فالمواطنة عقد واع ومسؤول بين المواطن ووطنه[1] والتزام عقدي وأبدي لا يجوز العبث به.

وظهرت الحاجة إلى التربية الوطنية والانتماء الصادق في مواجهة آثار الأمركة وآثار العدوان الصهيوني في تبدل القيم لدى أجيال الأمة نتيجة الجرائم والمجازر التي يرتكبها في أماكن شتى ونتيجة الهيمنة على القرار الدولي... ولهذا تبين لعدد كبير من العاملين في حقل التربية الوطنية والقومية أن المقاومة قد أخذت تتراجع وتضعف طبيعة ووسيلة ووظيفة أمام تقدم ثقافة الأمركة وقوتها التقنية وزركشاتها الخادعة، وأمام المدّ الصهيوني الذي تجاوز كل حدّ ولا سيما حين وُضِعَتْ أنظمة التعليم كلها في الوطن العربي في مواجهة مشكلات جديدة وجب حلها[2] . وفي هذا المقام تمسكوا بثقافة المقاومة في التنشئة الوطنية التي تبدأ من المهد في الأسرة والحي والمدرسة والمجتمع والجامعة والمؤسسات الرسمية الثقافية والعلمية والزراعية والصناعية و... وهي تنشئة تتكامل بين الإنسان والأرض والوطن (الدولة) والأمة (الدولة القومية) والعروبة (الهوية) وبين مختلف وجوه القول والعلوم والحياة والنظريات الفكرية والسياسية، لا يستثنى أحد من ذلك، كل في موقعه، وكل له نصيبه ـ فالمقاومة حركة عفوية غريزية في الطبيعة والواقع الاجتماعي للحفاظ على الذات من الاعتداء أو العبودية[3] .

وأيا ما يكن شأن الجهود التربوية التي يقوم بها بعض المعنيين الباحثين في هذا المجال فهي دون المرجو منها في عالم شديد التغير؛ فضلاً عن أنه لم يكن هناك متطلبات سياسية واقتصادية وتقنية تلبي حاجات المعلمين قبل المتعلمين إذ

---

[1] انظر قضايا في الفكر السياسي والقومي 27 ـ 41.

[2] انظر مثلاً كتاب (العرب وعصر المعلومات) ـ د. نبيل علي ـ سلسلة عالم المعرفة ـ العدد 84 ـ المجلس الوطني للثقافة ـ الكويت ـ 1994م؛ وكتاب (تأملات في مستقبل التعليم العالي) محمد نوفل ـ مركز ابن خلدون للدراسات الإنمائية ـ القاهرة ـ 1992م.

[3] راجع ما تقدم 29 وما بعدها.

لابد من تنمية ثقافية بالآخر، وإن كانت التربية الوطنية تعنى بغرس مجموعة من المعارف والقيم والمبادئ في نفوس الناشئة خاصة وكل مواطن عامة. فالتربية الوطنية تجسد الحس المشترك بالانتماء إلى الوطن واحترام أنظمته الثقافية والاجتماعية والدينية و... وتربط ذلك كله بمجموعة المعارف الكونية، ولا يوجد لدى كثير من العاملين في الحقل التربوي والثقافي والأدبي والفني والعلمي اتفاق ـ بل شبه اتفاق ـ في شأن القبول بالواقع الناتج عن الاحتلال الصهيوني أو الأمريكي للأرض العربية ونتائجه الكارثية على الوطن والأمة ، على اعتبار تبني عدد غير قليل منهم لكل مساقات الأمركة بحجة مجاراة العصر وإلا أصبحنا خارجه، وفي طليعة ذلك اعتماد لغة التفاوض والتطبيع مع العدو... فالمجتمع العربي لا يستطيع التخلص من حالة التخلف التي يعيش فيها ما دام منغلقاً على نفسه، إذ لابد من التمازج الثقافي الاقتصادي الاجتماعي بالعالم.... وستظل الحروب والمقاومة عائقاً من ذلك كله.

ومن يتأمل حال المجتمع العربي يجد أن هناك حالةً تقبل عجيبة لكثير من التحولات الفكرية والوطنية لعدد من المفاهيم التي تغاير منظومة القيم الموروثة؛ والعزوف عن مفاهيم ثقافة المقاومة وعاداتها وأنماطها الحياتية... ثم انتشرت الثقافة الاستهلاكية السريعة، وثقافة المقاهي، فضلاً عن شيوع نزوع التطبيع، والترويج لمّا سمي بثقافة السلام التي تعني الاستسلام وفق ما عرضناه في الفصل الرابع[1]، ما يعني أن النظام العربي يمشي بأقدامه إلى حيث هي رغبات الكيان الصهيوني التي ستقضي على خصوصية بنيته الذاتية، وتشويه مفهوم الانتماء وفق ما نشأ عليه وأخلص له....

فتربية ثقافة المقاومة مرتبطة بالتربية الوطنية الشاملة التي ترتب على كل فرد أن يكون واعياً بممارسة حقوقه وواجباته؛ وتنمية حس المبادرة الوطنية نحو وطنه عاطفياً وفكرياً ودينياً واجتماعياً واقتصادياًو... وهذا يفرض على المسؤولين إعادة الاعتبار إلى منظومة التربية الوطنية والقومية برمتها، وتقويم

[1] راجع ما تقدم 187 وما بعدها.

التجارب في ضوء مصلحة الوطن والأمة.

وإذا كان للتربية الوطنية المقاومة مثل هذه المكانة في تنشئة الروح النضالية؛ فإن للأدب أثراً واضحاً فيها؛ وهو حديثنا الآتي.

2 ـ أثر الأدب في التنشئة الوطنية المقاومة:

لم يختلف اثنان على أثر الأدب في التنشئة الوطنية، والقومية، إذ أصبح مسلماً لدى الصغار والكبار منذ القديم أن الأدب سخر لقضايا المجتمع والدفاع عنه. فهو ينتشل أبناءه من السجن داخل أوطانهم، فينفتحون على فضاء رحب، ويتجه بهم إلى ملكوت أرحب، وينمي فيهم روح التطلع والنهوض من الأشكال الفكرية المنحرفة أو الحركات السياسية المشكوك في انتمائها وهوياتها النضالية... فالأدب أياً كان جنسه شعراً أم قصة أم مسرحية أم رواية أم سيرة يبث في الناشئة والكبار على السواء لحظات من التنوير والتثوير لا يمكن لغيره أن يقوم بها. ويكفي أن تكون حركة الاستشراق الاستعماري قد حفلت بالتراث العربي لما له من قيمة كبرى، ولهذا طفقت تشوه كثيراً من معطياته الفكرية والدينية والخلقية [1]. فالكلمة الأدبية المقاومة تخذل عدواً جامحاً، وتقوي عزيمة مقاوم يتابع حركة نضاله الوطني والقومي من أجل التحرر والاستقلال وطلب العيش الكريم...

فالأدب يعد رسالة تربوية وفنية وثقافية فاعلة تنطلق من لحظة التوتر المدهشة... ولاسيما حين يرفّ على جناح الكلمة المحفزة، ويدفع عصافير الذهن إلى الارتياح عند سر الصدى الفكري الذي تنشده المقامات العليا لمقاومة أي تخاذل أو انحراف...

ثم إن الأدب في صيرورته الجمالية الخاصة لا يفترق عن قوانين التربية الوطنية التي تنمي علاقة المواطن بالوطن ورموزه ابتداء من التغنّي برمزية العَلَم والنشيد الوطني وانتهاء بتنمية قوانين المعرفة الشاملة والأنظمة والقوانين التي

---

[1] انظر ــ مثلاً ــ (الاستشراق: المعرفة – السلطة – الإنشاء) – إدوارد سعيد ترجمة كمال أبو ديب – مؤسسة الأبحاث العربية – بيروت – 1991م.

ترسي التفاعل والتكامل بين أفراد المجتمع؛ أي أنه يجمع بين الفن والفكر، كونه يستند إلى التراكم الثقافي الذي ينشأ في مجتمع ما، ويحاول أن يصوغه صياغة موازية يمتزج فيها الوجدان بالعقل، ما يعني لنا أن الأدب واحد من أهم المنجزات الفكرية والفنية التي تتقاطع رموزه وصوره مع روح الأمة وتعبر عن نهوضها وخصائصها، ولا سيما ما يتصل بقيمها الخلقية والنضالية، وبما تملكه من دلالات ومؤثرات في الوظائف والأهداف...

ولعل قراءة النماذج الأدبية لأي عصر من العصور التاريخية تبين أن تربية الناشئة تربية وطنية قومية تحتاج أيما احتياج إلى تلك النماذج بغية التخلص من عوامل التشكيك في هوية الانتماء، أو بغية التحرر من القلق والانصهار في ثقافة الآخر؛ وأدبه..

فالأدب ـ أي أدب ـ إنما يصاغ من الوظيفة والهدف اللذين بني عليهما، وهما مرتبطان بالوعي النقدي لعامل الانتماء والمرجعية الفكرية والخلقية التي أبدعها مجتمع ما.. ومن هنا يصبح النص في العمل الأدبي مادة تعليمية نضالية يفيد منها أبناء المجتمع بمثل ما يفيد منها الأديب اللاحق من السابق، والناقد اللاحق من سابقيه بغية الارتقاء في تربية الأجيال.

فالأدب في طبيعته ووظيفته الوطنية والقومية يُعدُّ ثقافة مشتركة لكل من يقبل عليه ويحفظه ويحاكيه. ولمّا كانت اللغة العربية وسيلة المعنى والصورة فإن معطيات التوحد في هوية اللغة أساس الالتقاء والتداول المعرفي والفني. وعليه فإن التنشئة الوطنية للتربية المقاومة تحتاج إلى تأسيس الوعي بالأدب العربي ولغته الواحدة، ورفض التبعية لأدب الآخر أو تفضيله... فالأدب أو اللغة أو النقد نتاج إبداعي يعبر - فيما يعبر عنه - عن حالات وطنية مبتكرة بامتياز، ما يجعلها تخلق مقاومة إيجابية بدلاً من أن يرتكس المرء إلى النزوع السلبي والانكفاء على الذات، والنكوص إلى الوراء... ولو ابتلي الإبداع ـ أياً كان نوعه - بمثل هذه الصفات لأوقع المجتمع بأزمات عده وعرّضته لأخطار شتى... ما يؤكد أن معركة ثقافة المقاومة ليس لها ساحة محددة، فهي تشمل المكان والزمان والثقافة والأدب والسياسة والفن... وهذا يفرض علينا الإشارة إلى ما قام به الأدب العربي القديم من تحفيز النفوس في ساحات المعارك، فكان الفارس ينشد الشعر قبل أن يخوض معركته، أو أن الأديب يحمس قومه على

التصدي للغزاة المحتلين كما ورد على لسان أبي أُذينة اللخمي يحرض فيها الأسود اللخمي على أعدائه ومنها[1]:

وأنصف الناس في كل المواطن من سقى المعادين بالكأس الذي شربا

وليس يظلمهم من راح يضربهم بحدّ سيف به من قبلهم ضربا

وفي هذا الصدد طالعتنا نصوص أدبية كثيرة تحث العرب والمسلمين على القتال ضد الفرنجة كما نجده عند ابن النبيه المصري يحرض الملك العزيز على القتال ومما قاله[2]:

يا حارس الدين لما نام حارسه وناظماً شمله من بعد تبديد

جهّز جيوشك إن الثغر قد عبثت به الفرنج فأضحى غير منضود

ولعل هذا كله يدفعنا إلى التذكير بما يحاك للتخلص من الأدب العربي ولغته الفصحى.. وقد سعى عدد من أعداء اللغة العربية وأدبها غير مرة إلى زرع التشكيك في قدرتهما على أداء رسالتهما في الحياة... ولكنهم أخفقوا، وكأن قول المتنبي قد صدق فيهم حين توجه إلى سيف الدولة قائلاً:[3]

وسوى الروم خلف ظهرك روم فعلى أي جانبيك تميل

فالشعر مثّل تراب الأرض الطاهر، وحمل سر الانتفاضة الطاهرة التي حاولت قلع الظلم والقهر من الأرض العربية قديماً وحديثاً، ونبه على رسم أبعاد المقاومة كما نجده في فلسطين، وعلى لسان محمود درويش في قصيدة (الأرض) ومنها:[4].

أنا الأرض

والأرض أنت

---

[1] انظر نهاية الأرب ـ للنويري ـ 320/15.

[2] ثقافة المقاومة في الآداب والفنون– 48 –تحرير ومراجعة د. صالح أبو إصبع وزميليه – جامعة فيلادلفيا – الأردن – 2006م.

[3] ديوان أبي الطيب المتنبي 157/3 – شرح العكبري – دار المعرفة – بيروت – د/ت.

[4] ديوان محمود درويش 316 ـ 317 والشعر ونهضة الشعور ـ ص 182 وانظر ما كتبناه في هذا الاتجاه عن محمود درويش في كتابنا (قضايا ومبدعون 191 ـ 200).

خديجةُ، لا تغلقي الباب
لا تدخلي في الغياب
سنطردهم من إناء الزهور وحبل الغسيل
سنطردهم من حجارة هذا الطريق الطويل
سنطردهم من هواء الجليل

فمحمود درويش لم يكن متأثراً بما هو طارئ على أرض فلسطين وفق المنحى الجمالي وإنما كان منحازاً إلى قضية أبناء شعبه الذين طردهم المحتل الصهيوني من أرضهم.. ما جعله يتحول إلى الأرض وما تنبته في محاورة وطنية لاهبة تنجب من خلال أزهار البنفسج ولادة الحرية والكرامة... وهو يعتقد أعظم الاعتقاد بالقدرات المخزونة لتلك الأرض الحبلى بالإبداع النضالي للطبيعة...

إن مثل هذه الولادة للتمسك بالأرض والدفاع عنها هي التي تربي النشء على أن مقاومة المحتل الغاصب ضرورة وجود، وضرورة مصير، وليست مجرد هواية يؤديها الأحرار والشرفاء في وقت الفراغ والراحة. إن الشعر المقاوم يهذب النفس وينير طريقها إلى المستقبل المنشود، ويكشف لها الخونة والمنافقين الذين يزعمون العمل على المقاومة والتحرير وهم أبعد الناس عن ذلك، كما هو حال كثير من دول العرب التي ادعت تحرير الشعوب، كما عَبّر عنه خير الدين الزركلي:[1]

جهروا بتحرير الشعوب وأثقلت ... متن الشعوب سلاسل وقيود

وكما صوره الجواهري ليثير الناشئة على الاستعمار، ويحفز النفس العربية على الخلاص من القيد؛ ومما قاله:[2]

سلام على مثقل بالحديد ... ويشمخ كالقائد الظافر

كأن القيود على معصميه ... مفاتيح مستقبل زاهر

---

[1] ديوان الزركلي 117 – مؤسسة الرسالة – بيروت – ط1- 1980م.
[2] ثقافة المقاومة في الآداب والفنون 53.

إن ينبوع الإبداع والإلهام لدى الأديب ليس حدثاً عابراً أو تعبيراً طارئاً عن حالة معينة وآنية، إنه وحي نضالي ينضج على جمر الرؤى، وحدة العواطف وهو يحاول ركوب الصورة المبدعة التي تتفيأ في ظلال البحث عن الحرية كما نراه في قصيدة سميح القاسم (ليلى العدنية) ومنها:[1].

إلى واحد من فدائيي الشمس في جنوبنا المقاتل...

واحد... من الرجال الذين أرادوا الحرية، فاخترقوا إليها الموت!!

إلى الجندي الذي صنع من عظام أطفاله القتلى سكاكين ثأر، ومناجل حصاد... ومن حجارة بيته المنسوف صنع تماثيل أطفال... إلى القوي مكاوي.. أخاً ومعلماً.

(1)

شاءها الله شهيَّة!!

شاءها الله... فكانت كبلادي العربية

....

(2)

كبرت ليلى على سحر الليالي البدوية

....

كبرت ليلى

وفي يوم من الأيام ناداها أبوها:

لبن الناقة في القصعة والتمر كثير

وأنا ماض إلى الشطآن، ماضٍ يا عجيبهْ

ثم شدَّ البندقيةَ

ومضى يدفع عن ليلى الذئاب الأجنبيه

راح مرزوق وخَلَّى في يد الرحمن بيته

---

[1] الشعر ونهضة الشعور 202 وما بعدها.

راح... فالشطآن غصت بذئاب وعقاربْ
من مغيرين أجانبْ
...
ومضى يوم ... ويومان... وما عاد المحاربْ
كانت الشطآن ملأى بذئاب وعقاربْ
....

(3)

وقضت ليلى إلى الحي... وصاحت:
يا لثأر الفارس المذبوح بالأيدي الغريبه
يا لثارات العروبهْ
يا لثارات العروبهْ

فالقصيدة طويلة تتألف من أحد عشر مقطعاً اخترنا منها أجزاء من مقاطع تتحدث عن حكاية احتلال فلسطين المحتلة واغتصاب الأرض والعرض؛ وقتل أصحابها الحقيقيين... فالشاعر لم يكن يبغي استعراض مهارته الشعرية، وإنما كان يستوفي قصة الظلم والقهر الذي مارسه الاستعمار البريطاني ثم الصهيوني على أبناء فلسطين المحتلة... كان يوظف الحدث الفكري والتاريخي والاجتماعي والسياسي والإنساني في موقف وطني نضالي يربي التمرد في النفس الإنسانية؛ في الوقت الذي يصور الآلام النفسية القاتلة التي حاقت بأبناء فلسطين... فالقصيدة تعبر عن عالم ممزق بالهم والألم ولا خلاص منه إلا بطرد كابوس الاحتلال...

ذلك هو جزء من دور الأدب في تربية الناشئة على النضال التحرري في كل أرض محتلة ما يعني أن المنهاج التربوي والعلمي يعدُّ ذا أهمية كبرى في تعزيز قيم الانتماء والمقاومة. فالتربية المقاومة التي يؤسسها الأدب في أي مؤسسة تربوية وعلمية ـ إذا جرت مجرى الحياة الكريمة والفطرة السليمة، والتزمت بالقيم والمبادئ الوطنية والإنسانية ـ يمكنه أن يفتح فضاء حراً ومفتوحاً أمام الفكر الوطني الحر والسليم، وأن يكسب الإنسان قدرة على الفعل والتأثير

والتغيير، فالمقاومة في الأدب أعظم تأثيراً في نفس المتلقي من أي شكل فني ونقدي آخر، ما يفرض علينا أن نحفّظ الناشئة القصائد التي تعلي مرتبة الانتماء إلى الهوية والأرض[1]، والقيم الخلقية التي ترسي الفعل الخيّر في النفوس، فلا يجوز للوطن أن يظل جريحاً، ولا يجوز للكلمة أن تختنق في الحلق، فسر الوطن في النفس كسر الروح في الجسد كما عبر عنه عبد الرحيم محمود، ومنه:[2]

تلك أوطاني وهذا رسمها   في سويداء فؤاد محتضر

فكرة قد خالطت كل الفكر   صورة مازجت كل الصور

هي في دنياي سر مثلما   قد غدا الله سراً في السور

ونرى أن من أهم وسائل تربية ثقافة المقاومة ما يقوم به الكتّاب والأدباء والرسامون والفنانون الذين يملكون ناصية الإبداع، وتشكيل الوجدان الجمعي حين تجيء أعمالهم نابضة بالوجدان الوطني والقومي العالي؛ وهم يرسمون ملامح الرجولة والمروءة، ليحققوا معاني السمو في الانتماء. ولهذا فقد تداخلت صورة الوطن بوهج الشجاعة والعطاء والنداء حين طفقوا يبثون روح الوعي بحقيقة ما يجري من أحداث تحيط بهم وبأوطانهم على جذوة الزمن المتقد بالحكمة، لينتشلوا النفوس من مصائبها التي ألمت بها على مذبح الزمن الغربي ـ الأمريكي ـ الصهيوني. ولا شيء أدلّ عليه مما عبر عنه الشاعر سليمان العيسى في قوله الذي يتغنى فيه بمجد انتصار تشرين:[3]

أطفال تشرين يا وعداً أخبئه   للمعجزات لعرس العرس للقبل

يا قطرة الشرف الباقي بجبهتنا   لن تركعي أنت يا أنشودة الأمل

فالأبطال في تشرين قدموا وجهاً جديداً للزمن العربي الرديء الذي رانَ

---

[1] رصدنا عدداً غير قليل من القصائد الشعرية في كتابينا (ملامح في الأدب المقاوم 104 ـ 150 وتجليات النكبة والمقاومة في الفكر والأدب 95 ـ 111).

[2] ثقافة المقاومة في الآداب والفنون 54.

[3] الأعمال الشعرية.

على كاهل الأمة العربية ست سنوات عجاف من هزيمة حزيران، وكان (موشي دايان) قد راهن على استمرار حالة الإحباط واليأس في الأمة مُدَّة خمسين عاماً أخرى إذ قال: "لن يستفيق العرب من الهزيمة قبل خمسين عاماً"، لكنه خسئ وخاب أمله وأمل كل من راهن على ضعف الأمة وعجزها فقد أعطى نصر تشرين/ أكتوبر التاريخ العربي وجهه المشرق، كما عبر عنه نزار قباني[1] في قصيدته (ترصيع على سيف دمشقي) حين خاطب حبيبته دمشق قائلاً: [2]

جاء تشرين إن وجهك أحلى بكثير... ما سره تشرين

كتب الله أن تكوني دمشقاً بك يبدا وينتهي التكوين

هزم الروم بعد سبع عجاف وتعافى وجداننا المطعون

وطني يا قصيدة النار والورد تغنت بما صنعت العصور

فتضحيات الأبطال هي التي رفعت القتامة السوداء عن وجه الأمة العربية التي تعرضت للقتل والإهانة والتهجير، والتمزيق... وهي التي ستخلق في الأجيال المبادرة إلى إعادة اللحمة إلى التضامن العربي الذي كان السبب الأهم وراء نصر تشرين.

لذا؛ فالشاعر على الدوام يجب أن يكون شاهد عصره في يقظة وجدانه المعبر عن ضمير أمته والحارس لها... فالأدب والفن يفعلان بالنفس مالا يفعله أي سلاحٍ آخر في معركة الحياة والبقاء، في الوقت الذي يعمق صلة الأحفاد بالأجداد، حينما يتصل النصر بالنصر من حطين إلى تشرين.

فالقراءة النصية الفكرية لمثل تلك الأشعار تشكل الهاجس الأكبر في تربية الأجيال على عقيدة حب الوطن والأمة والدفاع عنهما تجاه الغزاة والطامعين بهما.

---

[1] يعد نزار قباني واحداً من الشعراء الذين عالجوا القضايا الوطنية والقومية في شعره، انظر كتابنا (حراس الكلمة والموقف 150 – 170) وانظر فيه ما قلناه عن شفيق جبري 107 – 130.

[2] الأعمال الشعرية الكاملة.

ثم ينبغي ألا يغيب عن بالنا تبصير أطفالنا بأدب الآخر الصهيوني المعتدي وكل من يسانده كذباً وزوراً وبهتاناً، علماً أن الأدباء الصهاينة لم يجهدوا أنفسهم في تلفيق "الصفات القبيحة التي ألصقوها بشخصية العربي انطلاقاً من كرههم العنصري له..."[1] فالصهاينة يصرون على تربية ناشئتهم في إطار تأكيد الهجرة إلى فلسطين، بوصفها أرض الميعاد، ولهذا يقول (ناتان ألترمان)[2]

ارفعوا صهيون معجزة وراية
علماً فوق معسكر يهودا
وأنت، راكباً كنت أم راجلاً
تعال، من فضلك، وانضم للجماعة
معاً سنمضي، معاً من فضلك
دعنا إلى أرض الميعاد نعود
إلى أرض الحبيبة؛
مهد ميلادنا...
من منفاكم عودوا... عودوا،
للأرض، أرض الآباء

هكذا تكمن أهمية التربية المقاومة، في إنتاج ثقافة المقاومة لكل ما تنتجه آلة الفتك المهيمنة من آثار سلبية تنقض أصول النظم الاجتماعية للشعوب وتهدمها على رؤوس أبنائها... فالصهيونية بل الامبريالية الأمريكية المتوحشة الساعية إلى السيطرة على العالم وثرواته غدت انتهاكاً للحقوق الإنسانية واعتداء صريحاً على تربيته الأخلاقية، ما يجعل مقاومة أشكالها الغازية دفاعاً شرعياً مشروعاً عن الذات والثقافة والوجود. فالمقاومة ـ بهذا المحتوى ـ ضرورة وجودية لمفهوم حق الحياة ـ و هو حق اعترفت به القوانين الدولية وميثاق الأمم المتحدة كالمادة (51) التي شرّعت المقاومة بكل أشكالها على اعتبار

---

[1] ظاهرة الأدب الصهيوني – 194 – محمد توفيق الصواف – سلسلة كتاب الجيب الشهري – 9- اتحاد الكتاب العرب – دمشق- 2007م وانظر الاستشراق 304 – 308.
[2] ظاهرة الأدب الصهيوني – 129.

أنها ممارسة أخلاقية لاستلهام روح القيم والمبادئ، والانتماء والحفاظ على الهوية وخصائصها لئلا تذوب في الآخر القوي المستعمر الذي يريدها أن تصبح مستنسخة لثقافته ومبادئه إذا لم نقل: إنه يريدها تابعة له. فثقافة المقاومة التي تنهض بتربية الأجيال تعني الارتفاع في الانتماء والأداء، والإخلاص في العمل، والقدرة على العطاء ما يؤكد ربط التربية والتعليم بالمجتمع وبالتنمية المستمرة التي تحقق الجدوى والوطنية السياسية والثقافية والأخلاقية، أي إن ثقافة المقاومة ثقافة انتماء تصهر النفوس في الوطن والأمة وتعلي من مكانة الهوية الجمعية التي نشأنا عليها؛ ولا تسمح للأنانية الفردية أن تغزو المجتمعات، فكفانا ما قام به إبليس مع أبينا آدم، وإلا فإن العولمة ستمارس ما كان قد مارسه إبليس مع أول الخليقة ومن ثم مع أبنائه. فالفردية القطبية الأحادية للعولمة لا تنتج إلا ضعفاً وتقهقراً عند الشعوب والأمم باعتبار ما تؤول إليه من تبعية. وعليه فإن ثقافة المقاومة تحدث لنفسها أنماطها ومسوغاتها في تربية الأجيال من أجل الحفاظ على الوجود الحر الكريم في وطن سيد غير مغلوب على أمره والتخلص من الأنظمة التربوية العاجزة والمتخلفة.

ومن ثم فمثل تلك الأشعار ترفع درجة الوعي بالآخر المعتدي الذي لا يستطيع أن يختبئ وراء ما يملكه من تقنيات وفضائيات تسعى إلى غسل عقول الناس وتدمير ما نشأت عليه. وتصبح مكانة الشاعر في تربية النفس المقاومة مماثلة لمكانة أي معلّم أو مربٍّ أو مثقف أو كاتب أو سياسي ملتزم بثقافة المقاومة وثقافة الانتماء، على اعتبار أن هذه الثقافة تعلي كرامة الإنسان ولا تنال من قيمته. فثقافة المقاومة ثقافة تفضي إلى حال روحية، ورؤية موضوعية منتمية إلى الكون الإنساني الحضاري الذي يحقق سعادة الإنسان ويرتقي بها، ما يجعلها تنمي العلاقات بين الناس.

ويظل للإعلام المقاوم منزلته العظيمة في التنشئة الوطنية لما آلت إليه التقنيات الإعلامية وأدواتها من تطور عظيم؛ ولاسيما حين جعلت الكون قرية واحدة.

3ـ المقاومة والتنشئة الإعلامية: [1]

حين نختار الكلام على التربية المقاومة في الثقافة والفكر والتربية والأدب، ثم نقدم للعالم كله رؤيتنا لبناء الإعلام العربي المقاوم وتطوير برامجه وبنيته في اتجاهات تخدم قضايا الأمة وتعالج شؤونها ينبغي ألا يغيب عن بالنا أن ذلك يحتاج إلى إمكانات ومواهب وثقافة وطنية عالية وأدبيات ومنهج علمي مدروس لتعميق الوعي بالحق والهوية التي عززت على الدوام مفهوم الروح الإنسانية للانتماء الوطني والقومي. وثمة علاقة قوية ــ اليوم ــ بين التربية المقاومة وبين الإعلام الشامل الذي نجح ـ في أحيان كثيرة ـ في صناعة العقول والنفوس واللعب فيها كيفما يشاء. فكثير منا ـ مثلاً ـ يتحدث عن الإعلام المضلل أو التضليل الإعلامي بحياد مطلق، بما فيه الإعلام الشامل والوطني؛ وننسى أن مثل هذا الاتجاه في التحليل والتعليل قد لا يؤدي الغرض المناط به... ونرى أن اللجوء إلى التضليل الإعلامي سلاح فتاك ذو حدين إذا لم يحسن القائمون عليه استعماله بأسلوب منهجي مدروس[2]؛ وبيان وظائفه الوطنية والقومية الواضحة...

ومن ثم فالإعلام الوطني المقاوم لابد من أن يعنى على الدوام بمسألة الحقيقة الناصعة، وأن يكون ماهراً في استعمال المصطلحات والمفاهيم في المواقع المناسبة لها، فما أساء إلى القضايا الوطنية مثل ما أساء سوء استخدام المفاهيم؛ حتى غدت أداة جديدة لتشتيت الأفكار، إذا لم نقل: استشراء فوضى الرؤى، وما يتبعها من تحليلات وتفسيرات تحرف العقول عن جادة الحق. ولعل هذا ما تقع الأمم فيه إبان الأزمات... فإذا كان الإعلام الوطني ـ خاصة ـ مرآة المجتمع فإن الإعلام الوطني المقاوم صورة منطبقة على قضاياه وعلى الحقيقة في وقت واحد... فالحقيقة مهما كانت قاتلة؛ ومهما خالفت رغبات كثير من أبناء الأمة ومشاعرهم لابد من أن تظل نُصْب عيون القائمين

---

[1] انظر مجلة الفكر السياسي – اتحاد الكتاب العرب – العدد – 30 – 2007م – بحث الإعلام المقاوم – لعبد الله القصير.

[2] تعد المؤسسات الإعلامية الكبرى في العالم برامج خاصة توظفها لأهداف شتى، وليس هذا مكان التفصيل فيها؛ وتكفي الإشارة إلى ذلك...

على الإعلام الوطني المقاوم؛ لأن انكشاف الحقيقة في نهاية المطاف سيؤدي إلى مواقف غير محمودة العواقب على من زاغ بصره عنها وستزيد شحنة الاختلافات السابقة لها. ولا ننسى أن نثبت بأن ثورة الإعلام والمعلومات تعدُّ ـ اليوم ـ أهم ثورة معرفية في حياة البشرية، إذ أخذت المؤسسات الكبرى للإعلام تتنافس في الهيمنة على العقل البشري، في عالم غدا أشبه ـ (نتيجة الفضائيات الكثيرة) ـ بقرية صغيرة. ثم إن هناك فضائيات عدة تقوم بعمليات استعراضية لعدد من البرامج التي تغسل عقول الناشئة؛ أو أنها تأخذهم إلى مواقع قصيّة عن قضايا الوطن والأمة؛ وتدفعهم إلى تبني أفكار زائفة أو سطحية... وإذا كان الإعلام الوطني المقاوم مطالباً بتطوير تقنياته وأدواته؛ والانفتاح على الإعلام الإنساني فعليه ألا يسقط في عمليات الاستعراض، ولاسيما تلك التي تتناول القضايا الوطنية والقومية... ومما يؤسف له أن بعض الإعلام الوطني كان محمولاً على هذا الأسلوب ما جعل تأثيره لا يتجاوز الوقت الذي خصص له، ومن ثم أدّى إلى انفضاض الناس عنه. وقد يذكّرنا هذا الأسلوب بأن الدول العظمى، والشركات القوية أقامت محطات فضائية، وقنوات بث في كل مكان[1] لتمارس كل أشكال الإعلام المضلّل والمسخر لمصالحها على حساب الآخر... وإذا صار نظام الاتصالات متشابك الأبعاد والمراجع الفكرية والسياسية و... فإن هدفه لم يعد يقتصر على الإمتاع وتقديم المعارف لذاتها، وتوعية الإنسان بالوسط المحيط... وإذا كان له أهداف نفعية تبعاً لمصالح الأفراد والدول وإذا كانت هذه الأهداف ضارة بالآخر فإن الإعلام الذي يستند إلى الحق والخير والجمال ستكون له جاذبيته الخاصة وديمومة البقاء.

ولعل هذا يؤكد أن الإعلام يقوم بدور عظيم في توعية الأجيال وتنمية معارفها وترسيخ قيمها الإيجابية في الحرب والسلم... ولعل هذا يوقفنا عند اتباع سياسة حرب الأعصاب والحرب النفسية، لكسب أي معركة في كل زمان ومكان؛ وفي كل الحالات... ولذا قد ينتصر العدو بحرب باردة قذرة فيها من

[1] انظر ــ مثلاً ــ في مفهوم العولمة ــ 33 ــ وآراء حول المحافظة على الهوية الثقافية العربية في ظل العولمة ــ مجلة شؤون عربية العدد 105 ــ بيروت.

الأكاذيب والأضاليل ما لايحصى... وفق مبدأ ميكيافيلي (الغاية تبرر الوسيلة).

وهذا ما يفعله الإعلام المعادي للكيان الصهيوني على الدوام في توجيه سمومه إلينا مستفيداً من الماكينة الفضائية العالمية التي وضعتها الإدارات الأمريكية المتعاقبة في خدمة الكيان الصهيوني... فضلاً عن الإعلام العربي التابع، أو اللامبالي... فهذا الإعلام قد مارس غسل أدمغة الناشئة من كل تربية وطنية، وبث فيها الأفكار السامة حول مفاهيم الحوار والتطبيع...

ولذا بات الإعلام بكل صنوفه مادة الإعداد الأولى للناشئة في عالم أخذ الإعلام فيه يحتل مكانة كبرى في كل شأن من شؤون الحياة. ولمّا أخذ الإعلام يحتل مكانة ملحوظة في الأبحاث والدراسات نشأت مؤسسات إعلامية كبرى متخصصة في مجالات الإعلام. وقد جذبت إليها أبرز المفكرين والمحللين والشخصيات البارزة في صناعة الأبحاث المطلوبة؛ وهي توازي في تأثيرها ما تنطوي عليه الأخبار والإعلانات و... فالإعلام لم يعد حقلاً محايداً أو خاصاً ببعض الحقول الفنية، وإنما غدا حقلاً معرفياً وتربوياً واجتماعياً و... أي إنه أضحى مشكّلاً لمعارف المتلقي ومشاعره وآرائه وطموحاته و... ولذلك كله فالإعلام بدأ يختزل الحياة في اتجاهات يصنعها وفق ذوق أصحابه ومعاييرهم واتجاهاتهم، وأخذ يغير أنماط التفكير والعادات والقيم و... ولاسيما حين خَصَّ شريحة الناشئة بوقت طويل، وصفحات كثيرة من وسائله... لقد بات قادراً على تشكيل المتلقي وتوجيهه الوجهة التي يرغب فيها، وبخاصة حين يكثف كل إمكاناته لغرض من الأغراض.... ولا يختلف في الأمر التلفاز عن الإذاعة والصحف والشابكة (الانترنيت) والحاسوب (الكومبيوتر) و... ولكل مجاله ووسائله ووظائفه؛ ويظل للفضائيات المتلفزة أعظم الخطر في هذا الأمر[1]

وعلى الإعلام المقاوم أن يعنى بالرسالة التي يقدمها للناشئة على اعتبار القضية الوطنية والقومية التي يربيهم عليها... وكل قضية يتبناها الإعلام المقاوم لا تنفصل عن طريقة التنفيذ وقدرتها على الإقناع والتأثير في إطار

---

[1] انظر ـ مثلاً ـ سوسيولوجيا الاتصال الجماهيري ـ 254.

استراتيجية شاملة تنبثق من الانتماء والعقيدة والصدق والصبر ... ومن ثم تعميق الخبرة بالإعلام المعادي؛ ومواكبة كل حدث يقع في أي مكان من ساحة المعركة في حال الحرب أو السلم...

فالإعلام المقاوم الذي يستند إلى رؤية إيمانية وطنية نضالية يحتاج إلى الارتفاع عن الخطاب الإعلامي المباشر، وإن استخدم اللغة المكثفة والموجهة في بعض الأحيان...

ومن ثم فإن التنشئة الوطنية للإعلام المقاوم تُعنى بالمتلقي أياً كان سنه أو جنسه، وتستهدف وجدانه وعقله من أجل أن يكون في صميم معادلة مقاومة القهر والاستبداد والإحباط والفساد، والاحتلال والاغتصاب، ومقاومة انتهاك السيادة والشرف؛ ومواجهة ثقافة الهزيمة والعمالة والاستسلام والمساومة؛ وتغيير سياسة الإعلام المعادي بموضوعية وعلم وكشف زيفها وافتراءاتها و... وليست سياسة رد فعل عفوي.

إن فلسفة الإعلام المقاوم الدقيقة والمنهجية والعادلة هي التي تخلق بنية وطنية متماسكة تطرد الخوف والقلق، وتنجح في نقل القلق والخوف والاضطراب إلى صفوف العدو... ولعل هذا كله لا ينسينا أن المقاومة والتنشئة الإعلامية الوطنية ترتبط طرداً مع نسبة المشاهدة للتلفاز والقنوات الفضائية والحاسوب والشابكة، أو قراءة الصحف والدوريات والنشرات المتنوعة، وهي نسبة تتأثر بترتيب القضايا التي تعنى بها الناشئة، ونوعها وأولوياتها؛ ومدى قدرتها على الجذب والتأثير...

ويظل للفن بكل أنواعه وأشكاله علاقة وطيدة بالإعلام أو بالثقافة والتربية الوطنية المقاومة؛ ولاسيما في العمل الدرامي والغناء بوصفهما يرتبطان بالمجتمع قديماً وحديثاً... وكذا هي بقية ضروب الفن من دون أن نهمل الإشارة إلى الصورة البصرية للوحة الفنية رسماً ونحتاً... وللأغنية المقاومة التي تترك آثارها البعيدة في النفس.

4 ـ أثر الفن في التنشئة الوطنية المقاومة:

في البداية اسمحو لي أن أتساءل: من قال: إن النحلة الرشيقة تتعب من الطيران، أو تمل من لثم الزهور، أو ترفض أن تهدي جناها إلى صاحباتها؟ من قال: إن القصائد تئن من الحلم الجميل والرؤى المجنحة على أعتاب الخيال؟

ثم من قال: إن الطفولة تشتكي من دفء المحبة وزاد المعرفة المجبولة بالرضا والقبول وحسن الأداء والعطاء، إذ جبلت النفوس على حب من يحسن إليها؟

ومن زعم أن الأدب أو الفن بكل أنماطه لا يمكنه أن يهذب النفس البشرية، أو يرتقي بها إلى ما فيه صلاح الإنسان والوطن والأمة والإنسانية؟! وإذا كانت المقاومة حالة إنسانية، فإن الفن ـ أيضاً ـ حالة إنسانية تقرر موضوعاتها ووظائفها في إطار هوية خاصة تبرز مقاومة الأشكال الهابطة والمرذولة... من جهة؛ وتسهم مع غيرها في حبّ الوطن وقادته الذين ضحوا في سبيله من جهة أخرى.

ولعل تاريخ الفن أياً كان شكله إيقاعاً ونغماً وغناء ورسماً ونحتاً يثبت أن الشعوب استغلت ما تبتكره من إبداعات فنية[1]، لتمجيد الكرامة، والتغني بمعاني الحرية والسيادة... وحين تعززت مثل هذه الصور المقاومة الأخاذة كانت فنون عدة تعرّض بالظلم والقهر، وتندد باغتصاب الحق، والأرض، وكل ما ينال من الحقوق الإنسانية. فاللحظة الفنية المشرقة تنقل النفس من حالة التوحّد، والانفراد، والانغلاق إلى حالة السمو في البحث عن الحرية والثورة على الفساد، والاستبداد... ويستوي في هذا الشرق مع الغرب؛ فأوربا ـ مثلاً ـ اعتمدت الفن المقاوم بكل أشكاله لتنشئة أبنائها، وتعويدهم على رؤية الموضوع السياسي الملتزم في الفن ولا يسعنا إلا أن نعيد إلى الذهن تجليات المقاومة في لوحات رائد الرومانسية (أوجين دولاكروا ـ 1798 ـ 1863م)، وهي اللوحات التي أحدثت وعياً رفيعاً بالموضوع النضالي الوطني الفرنسي ضد الاحتلال الإنكليزي، وشكلت انطلاقة كبرى للأفكار والقيم المستمدة من الثقافة الأدبية ولاسيما لوحته (الحرية تقود الشعوب) التي أبدعها سنة

---

[1] انظر: ثقافة المقاومة في الآداب والفنون ـ الباب الثاني: المقاومة في الفنون التشكيلية والغنائية ـ 299 ـ 395.

(1820م) والمستوحاة من شعر (بارون). وقد عبّرت عن أسطورة (جان دارك) في ملحمة المقاومة الفرنسية...

ثم إن التنشئة الوطنية تبدأ منذ لحظة الولادة، فيرضع الطفل نسمات حب الأسرة والمجتمع والوطن مع كل قطرة من لبن أمه وهي تهدهده بأغاني البطولة والتحميس للدفاع عنه بمثل ما تغذيه بحب الناس... ثم يأتي الفن والأدب في رياض الأطفال والمدارس والجامعات ليبث عطر الفداء للوطن والأهل استجابة للتربية الفطرية والمكتسبة الممزوجة بعشق التراب والقيم... فإذا كان الجنين يسمع ويختزن حركات أمه وهو في بطنها فإن الطفل الذي أخذ يحبو ويناغي قادر على استقبال عناصر التربية الوطنية بما فيها من التنشئة الأدبية والفنية، ولذلك قيل: العلم في الصغر كالنقش على الحجر.

فالطفل يمكنه أن يختزن الطبيعة والحياة في الأتراح والأفراح، ويستجيب للإيقاع والصوت والصورة والحركة يمكنه أن يرسم أو يقلد أي نموذج يشاهده أو يسمعه ما يجعله أكثر التصاقاً بالحياة، وأعظم تعلقاً بالوسط الذي ينشأ فيه... ولاسيما أن الطبيعة تعد الأم ا لأولى للإنسان، وكذا يكون الواقع الذي يعيش فيه الإنسان، ويتأثر به... وهو ما عرف باسم (الواقعية الاشتراكية). ويقع ذلك قريباً من (الرومانسية النضالية)، ما يدعونا إلى أن نفكر ملياً بكيفية الإفادة من الفن بكل أجناسه في تنشئة الطفل تنشئة وطنية قومية ترتبط بالوطن (مكان الولادة والنشأة)، وترفض الذل والخنوع والعبودية والقهر والعجز، وتعزز في نفسه الإرادة والحرية والثقة بالنفس؛ وتعمق في داخله حب التعاون والمشاركة؛ وتثيرها على التطلع والمبادرة. وقد أتيح للفنان المقاوم منذ القديم أن يسهم بتشكيل مادة جمالية ذات بعد نضالي مقاوم كما رأيناه في الرسومات التي عثر عليها في الكهوف، أو كما ظهرت الرسومات والمنحوتات التي تحدثت عن الأبطال أمثال صلاح الدين ويوسف العظمة...

ولا يقل عنه قيمة أثر الغناء والموسيقا الملتزمة بالإيقاع القوي الذي يلبي التطلعات النضالية بمثل ما يترك أثره في تهدئة انفعال النفس، وبث روح المشاركة والسكينة... فكل نمط من الفن يربي الذائقة النفسية والفكرية، بمثل ما يعزز حب الخير وكره الشر؛ ويرسخ قيم الانتماء والنضال والالتزام

بالقضايا الإنسانية الكبرى بعكس الفنون الهابطة كتلك الأغاني الهابطة التي تهوي بالمستوى الخلقي والوطني للطفل. وإذا كان منهج البحث يدعونا إلى التكثيف الشديد في الإشارة إلى تاريخ الفن المقاوم بكل صنوفه. فمن منا يغمض عينيه عن الغناء المقاوم لسيد درويش والشيخ إمام وجوليا بطرس وماري خليفة، وفرقة العاشقين وسيد مكاوي، وعبد الوهاب وأم كلثوم؛ وكلهم أدخلوا الحماسة الوطنية في نفوس الملايين الذين استمتعوا بما صدحت به حناجرهم... فالسيدة أم كلثوم في كل ما غنته من قصائد وطنية أسست العلاقة بين الناشئة والوطن مثل قصيدة (أحمد رامي) ومنها:

مصر التي في خاطري وفي فمي   أحبُّها من كل روحي ودمي

وقد غنّت القصائد الوطنية لغير ما شاعر مثل قصيدة (أريد بندقية) للشاعر (نزار قباني). فالقصائد المغنّاة التي عرفت قديماً وحديثاً تترك تأثيراتها الكبرى في المتلقي وهي تأثيرات تختلف في درجاتها فيما لو كانت غير ذلك. فإذا كانت هذه القصائد المغنَّاة تعالج القضايا الوطنية وتتغنى بالقيم البطولية؛ والحفاظ على الوطن؛ وتمجيد أرضه فإن التأثير يصبح مركباً ومضاعفاً... فالأناشيد الوطنية والقومية التي تطلقها حناجر المطربين؛ وتزينها أنغام الملحنين تجعل كثيراً من الخَلْق يتسمّرون أمام كلماتها وإيقاعاتها، وقد دغدغت مشاعرهم وطافت في ذواكرهم لتعزز فيها قيماً جديدة خلقية ووطنية وفكرية؛ في الوقت الذي ترقى بالذوق العام...

ولعل هذا وأمثاله يثبت للقاصي والداني أن الفن أسلوب عظيم التأثير في تربية الناشئة للدفاع عن الذات والهوية، وطنياً وقومياً وإنسانياً، بوصفه نشاطاً إنسانياً ذا صفات خاصة. فالغناء المقاوم الفردي والجماعي، الشعبي والفصيح، قديماً وحديثاً وَحَّد المشاعر الوطنية والقومية على الساحة العربية، وصاغ مفاهيم الرفض والتمرد والثورة، وفتح نوافذ على الأمل والمستقبل... ومن ثم من منا ينسى أثر الأغنية الفلسطينية المقاومة ـ ولاسيما الشعبية ـ في زرع مفاهيم المقاومة في الوجدان الشعبي، وتعزيز معاني النضال كونها قيماً سياسية؟!! وهو ما تشتغل عليه المقاومة الوطنية الإسلامية في لبنان.

وما يقال في الغناء والموسيقا يقال في الرسم والنحت؛ فالتنشئة الوطنية تفيد

من هذين الفنين في تشكيل لغة مشتركة بين الأطفال تتناول رسم الرموز الوطنية والقومية، وتقدم لهم النماذج البطولية في إطار جذاب ومثير... فمن منا ينسى أول نحات عربي يسمى (محمود مختار)؟ إنه أول من مزج بين حركة النضال المصري ضد المحتل البريطاني وبين النحت في تمثاله الشهير (نهضة مصر). ولعل لوحة حطين للفنان (توفيق طارق 1875 ـ 1940م) أول لوحة في سورية تعبر عن مرحلة النضال الوطني العربي في عهد صلاح الدين...

ولست بصدد تعقب الأسماء الشهيرة في الرسم والنحت والغناء ولكنني أريد أن أقول: لعل التربية المقاومة تندرج في مظاهر الفن كله وهي تحتاج إلى تنمية مستمرة تبدأ بمرحلة الطفولة وتتعزز في مرحلة المراهقة التي تحتاج إلى ضبط عواطفها وتوجيهها لكي تجتمع مفاهيم المقاومة في اللاشعور في الوقت الذي تربي التعاطف مع الجماهير المناضلة والصابرة؛ وتعمق النداء الداخلي لمواصلة مقاومة الاحتلال... وإذا كانت بعض الأغاني أو الرسومات تعبر عن أشكال نضالية آنية فإنها تصبح الأنموذج البطولي الذي يختزن مضمون التصميم والإرادة للتخلص من المحتل والغاصب؛ لتنتصر إرادة الحياة والحرية. فأي فكرة وطنية تلح على المرء ولا تعاود التربية الإلحاح عليها فإنها سوف تغيب أو تتراجع أو تضمحل، ما يعني دوام تكرار الحديث عن الفن المقاوم ووضعه تحت البصر والبصيرة والسمع والفؤاد... إن التربية المقاومة بكل أشكالها تولد صغيرة ثم تنمو وتنضج في إطارها الوطني مع كل مرحلة عمرية، ما يعني أن الفن مسؤولية وطنية وقومية شديدة التأثير والخطورة. ويتطلب وعياً سياسياً عالياً؛ فإذا وسِّد الأمر إلى غير أهله كان وبالاً على التربية الوطنية، علماً أن القرن الحادي والعشرين قد حمل إلينا تجارب فنية إشكالية تستسلم لخيبات الأمل والهزيمة.

وهذا ينقلنا إلى المقاومة والتنشئة الدينية بما للدين من أثر عميق في المجتمع منذ أن يكون الإنسان طفلاً يرضع حليب أمه... ولعلها اليوم من أخطر ما يتعرض له الوطن العربي في زحمة التيارات الدينية السياسية التي تطورت أفكارها ومناهجها ووسائلها...

5ـ المقاومة والتنشئة الدينية:

من حَقّ الشرفاء والأحرار في العالم أن يفخروا بما أنجزته أمتنا؛ في تاريخها الطويل حين حملت رسالة المحبة والهداية إلى أصقاع الدنيا، على حين لم يحمل لنا الآخر الغربي / غالباً/ ـ إلا الحرب والوعيد بالقتل والتدمير، والويل والثبور، وعظيم الأمور...وإن حمل لنا مدنية مادية متطورة جعلت الإنسان يلهث وراءها؛ دون أن يتعب... فإذا كانت التربية تعني العلم الذي يبني سلوك الإنسان ومعارفه فإن التراث الديني ـ لدينا ـ يتمتع بكثير من القيم والمبادئ والمعارف التي ترتقي بالإنسان على الصعيدين الروحي والمادي.فالتراث يقدّم لنا وللبشرية خدمات شتى على كثير من الصعد بما فيها التقنيات والعلوم والفضائيات والإعلام... وأياً ما تكن حقيقة البنية الثقافية والفكرية والاجتماعية والسياسية للأمة العربية والإسلامية فإن التراث الديني المقاوم يحقق التوازن بين ما هو مدني وما هو روحي على نحو ما، وبخاصة حين يحافظ على الهوية، ويعزز الانتماء، ويدعو إلى صيغ التسامح والتعايش المشترك مع الأمم الأخرى... ولذا فإن نماذج التفكير تتطور في حضن الأسرة التي ميزت بنية المجتمع العربي والإسلامي، وقامت بوظائف بيولوجية وسلوكية ونفسية واجتماعية ومعرفية...

فالأسرة تشكل ذهنية الفرد ومواقفه الأولى من خلال تربية دينية خلقية تغذي الروح والعقل بحب الوطن وحمايته... ثم تتابع ذلك المدرسة والحي والمسجد والكنيسة والمؤسسات الثقافية والعلمية والسياسية والاجتماعية والدينية والإعلامية... فالمؤسسات الاجتماعية والتربوية والثقافية و... تعزز الاتجاهات القيمية التي تحرس المجتمع والأمة، وتحقق التكامل بين مكوناتهما، في إطار استراتيجية الدولة الوطنية التي يرسيها المعنيون بالقرار المركزي سياسياً وتربوياً وأخلاقياً وفكرياً وعاطفياً و... وهو التكامل نفسه الذي يحصل بين الأقطار العربية – على نحو ما – بين المسؤولين عن القرارات التي يتخذونها من دون أن يطغى اتجاه على آخر أياً كان انتماء صاحبه.

وتبقى العلاقة بين الحضور الخلاّق للفكر والثقافة والتربية الدينية من جهة، وبين المواطن إذا تعرض الوطن أو الأمة للاعتداء الخارجي من جهة

أخـرى، علاقـة خاصـة ومتميـزة تهـدف إلى مواجهـة الخطـر ومقاومتـه بكـل الوسائل والسبل. وهي مقاومة يتربى عليها المواطن للحفاظ على وجوده وحريته وكرامته؛ فالجسم يقاوم الأمراض ذاتياً وطبيعياً، ولا سيما أن التنشئة الدينية تتعرض اليوم لتزييف عظيم على مستويات عدة، وصُعُد كثيرة، حين دخلت في انزياحات شتى من أبرزها ما يتعلق بالتمذهب والطائفية، والإسلام السياسي والتطرف...

ومن هنا فالمقاومة الوطنية والقومية في ديار العرب والإسلام تسعى جادة إلى إنتاج ثقافة جديدة تجاه كل ما يخطط للمنطقة من قهر وظلم وقتل وتدمير واحتلال ونشر التطرف؛ وظواهر التكفير.. ما يفرض على التربية الوطنية الدينية أن تقوم بمهمة جليلة في تربية الإنسان العربي وقيادته إلى شكل راقٍ من الانتماء الأصيل للوطن والأمة، والتضحية في سبيل قضاياهما، دون أن تتخلى عن النزوع الخلقي والإنساني... لا بد من أن تكون تربية تطهر النفس من القهر والظلم، وتستجيب لكل فعل جميل وخَلّاق، وتبتعد عن كل سلوك قبيح ومؤذٍ... تربية تستند إلى الأخذ والعطاء، والتفاعل والتجديد، اللهم إذا استثنينا أصحاب العقول المريضة التي شوهت بسلوكها القيم الأصيلة للمبادئ والمثل العليا التي اشتملت عليها العقيدة الدينية. ولعل ما قامت به المقاومة الوطنية الإسلامية في لبنان أو ما تقوم به المقاومة الوطنية الفلسطينية يؤكد مفهوم المقاومة العقائدية التي ترتبط بالقيم الوطنية والإنسانية؛ ولاسيما حين كشفت عن جرائم الجيش الصهيوني ومجازره الوحشية، ودحض آراء قادته... فقد أثبتت المقاومة الوطنية الفلسطينية واللبنانية البنية الهمجية لتكوُّن الدولة الصهيونية اللقيطة ـ الساعية إلى تكوين دولة يهودية عنصرية استئصالية متعصبة ـ تبنت فلسفة الحركة الصهيونية؛ وعلى رأسها فكرة الإرهاب الدولي، ومارسته عقيدة توراتية وسياسية منذ مطلع القرن العشرين، وقبل نكبة فلسطين (1948م) وبعدها... وإذا كانت الدولة الصهيونية أنشئت بقرار أممي من الأمم المتحدة واعترفت بها دول عدة فإن الصهاينة مارسوا ـ دائماً ـ التطرف الديني بمثل ما أتقنوا صناعة الموت والقتل واختراع الحروب والتدمير، والتهجير، وكانوا يشرّعون ذلك تحت مظلة التعاليم اليهودية علماً أن الكيان الصهيوني قائم على يهودية الدولة المحاربة... وهذا ما اعترف به (دافيد بن

غوريون) حين سئل: إلى متى ستبقى (إسرائيل) قائمة على الحروب والقتل؟ فأجاب: حتى تخسر أول حرب تقوم بها ... ونحن لسنا معنيين بما انتهى إليه مؤتمر (أنابوليس) في (27/ تشرين الثاني/ 2007م) حين طرح فيه (إيهود أولمرت) تبني يهودية الدولة وفق ما دعا إليه مؤسس الدولة الصهيونية (تيودور هرتزل)، فانتقلت صياغة الفكر الصهيوني من مبدأ إخفاء مفهوم (يهودية الدولة إلى العلن؛ ما يشي بأن الأمر لم يعد مقتصراً على التطبيع أو الاعتراف بالكيان الصهيوني، وإنما نحن معنيون بما بات يُملى على العرب من الاعتراف بيهودية الدولة وعدم استنكار أي منهج تربوي للعدو أو الاعتراض على ممارسة التعليم الديني في التنشئة الصهيونية، على حين يُمنع على العرب أو المسلمين التمسك بعقائدهم أو الدفاع عن قضاياهم باسم الإسلام... ومن فعل ذلك اتهم بالإرهاب... وفي هذا الإطار ينبغي ألا يغيب عن بالنا الإشارة إلى وجود أحزاب دينية متطرفة في الكيان الصهيوني؛ ولها تأثير كبير مثل (المفدال: الحزب الديني القومي) وقد شارك في تأسيس هذا الكيان عام (1948م)، وهو مؤلف من عدة أحزاب[1]، وحركة (أغودات يسرائيل) وهي حركة سياسية دينية أسسها مجموعة من الأرثوذكس الجدد في فرانكفورت، ثم انتقلت[2] إلى فلسطين المحتلة إثر النكبة، وشاركت في حكومات عدة للكيان الصهيوني، وحزب (هتحيا) الذي يعد شديد التطرف، ويضم قوى علمية ودينية متطرفة[3]..

وهناك أحزاب دينية أخرى منتشرة داخل الأرض المحتلة وأشهرها حركة (شاس)، وكلها تؤكد قيام الكيان الصهيوني على أساس ديني وممارسة التنشئة العنصرية الدينية على المنهج الديني المتطرف[4]، على حين يحارب الغرب وأمريكا العرب والمسلمين بسبب المفاهيم الدينية التي نشؤوا عليها، إذ طفقوا يجبرونهم على تغيير مبادئهم ومناهجهم التربوية التي تبث مفاهيم الدفاع

---

[1] انظر الأحزاب الإسرائيلية – مصالح وعقائد 53 –63 – تأليف أحمد خدام السروجي – دمشق – ط1 – 2007م.
[2] انظر المرجع السابق 63 – 68.
[3] انظر المرجع السابق 69 – 72.
[4] انظر المرجع السابق 72 –91 وظاهرة الأدب الصهيوني 53 – 54 - محمد توفيق الصواف – اتحاد الكتاب العرب- سلسلة الكتاب الشهري – رقم 9 – 2007م.

عن الوطن على حين لا يجرؤ أحد أن يخاطب الصهاينة محتجاً على ما يفعلونه في تنشئة أطفالهم، علماً أنهم يربونهم على العنصرية وكراهية العرب وقتلهم. ولا شيء أدل على هذا مما كتبه (أفنير كرميلي) لأطفال الصهاينة: " العرب متخلفون ورعاع... العرب إرهابيون قتلة، يخطفون الأطفال، يغتصبون النساء، يتربصون بنا من كل جانب"[1].

ولعل المتابع للمناهج المدرسية للتربية الدينية بوصفها تربية وطنية وخلقية في تعليم الناشئة في البلاد العربية والإسلامية يدرك مدى العناية بالتسامح الديني والإنساني، والانفتاح على الآخر... على عكس التربية الصهيونية التي لا ترتبط بأي نمط ودي، بل تقوي سلوك العدوان والعنف لدى ناشئة الصهاينة ضد العرب. فإذا كان الأطفال رمز الطهر والنقاء فمن منا لا يذكر كيف حول الصهاينة أطفالهم إلى قطط متوحشة حين أرسلوا صواريخ الموت والدمار في حرب تموز (2006م) وكتبوا عليها باللغة الإنكليزية (هدية لأطفال لبنان: Agift to Lebanon children).

وهذا يعني أن الكيان الصهيوني يقف موقفاً عدائياً شديداً ضد المقاومة الوطنية العربية والإسلامية المؤسسة على العقيدة الدينية، لأنه مدرك أنها ستكون وبالاً عليه وعلى من يدعمه، ويقوم بدور أكثر خطورة وعنصرية حين يمعن هذا الكيان المجرم وحلفاؤه في إلباس المقاومة الإسلامية ثوب الطائفية أو المذهبية، لإصابة هدفين معاً: إثارة الفتنة من جهة والتمهيد للاعتراف بيهودية الدولة مستقبلاً من جهة أخرى.

ولذلك كله نريد للمقاومة أن تبنى على العقيدة الدينية السامية في التنشئة الوطنية المستندة إلى النضال الوطني ضد الاستعمار، فثقافتنا الدينية ثقافة وطنية نبيلة ضد العدوان، والاحتلال والقهر والتدمير و...؛ ثقافة ترتقي بالمقاتل إلى حالة المثال الأرحب في التضحية في سبيل الوطن وتحرير الوطن والإنسان لقوله تعالى: " وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب

---

[1] انظر المرجع السابق –180.

المعتدين" (سورة البقرة 190/2) أما ثقافة الكيان الصهيوني وأمريكا ـ تاريخياً ودينياً ـ فهي ثقافة استئصال واعتداء واحتلال وقتل وتدمير وتهجير مهما ألبساها ثياباً براقة، كالدعوة إلى الحرية والديمقراطية، أو الدعوة إلى شرق أوسط جديد تنتفي فيه العداوة والحروب ـ كما زعم قادتهما ـ ولعل ما جرى ويجري في العراق يؤكد إحياء النزعات الطائفية والمذهبية والعرقية والعشائرية وراح يشجعهم على سفك الدماء بينهم بعد أن أوقعهم في الفتنة الدموية، حتى سهل على المحتل الأمريكي وصم أولئك المقاومين بالإرهاب الأعمى وإدانتهم بنشر المذهبية والطائفية والعرقية...

وما نراه في هذا الإطار وفق ما يتضح لنا من بنية المقاومة الوطنية في فلسطين ولبنان والعراق والصومال أنها مقاومة شعبية ودينية في وقت واحد بكل مستوياتها وأشكالها من أجل مقاومة المخططات الأمريكية والصهيونية... وهذا ما يفرض علينا إعادة إحياء مشروع المقاومة الوطنية القومية وجعل العقيدة الدينية أساس التحرر النهائي من آثار المد الصهيوني والغربي... فالعقيدة الدينية تتسق في ذاتها مع قيم المجتمع الأخلاقية والمبادئ الإنسانية الشريفة ومع سعي الإنسان الوطني إلى إقامة الحياة المطمئنة المملوءة بالحيوية والعطاء، والمستندة إلى التوازن والتفاعل مع الآخر... وإن وجد في المؤسسات الدينية بعض المتطرفين الذين يزرعون الانغلاق في الدروب والنفوس، لأنهم يعانون جموداً في التفكير وضيقاً في الرؤية الدينية لجهلهم بطبيعة الإسلام المبني على القيم الأصيلة في ترسيخ مبادئ إعلان حقوق الإنسان[1]، وتذكيتها في عقول الناس ناشئة وكباراً...

ومن هنا نحن نتوجه إلى علماء الدين الأفذاذ والفقهاء العارفين كي يُواجهوا كل متصد للتعليم الديني أو الخطابة الدينية من دون أن يكون مؤهلاً... أي إن ممارسة الشعائر الدينية شيء وفقهها شيء آخر. لذلك قال

[1] انظر الحقوق والحريات العامة 9/1 – 11- وزارة الثقافة السورية – دمشق – 2005م.

الشيخ محمد الغزالي: " إن دين الله لا يقدر على حمله ولا حمايته الفاشلون في مجالات الحضارة الإنسانية الذكية، الثرثارون في عالم الغيب، الخرسى في عالم الشهادة..." والجاهل بالدنيا والحضارة جاهل بكثير من معطياتها، مثل الجاهل في تربية ثقافة المقاومة، ما يؤدي إلى الإضرار بها وبأصحابها.

وفي ضوء ذلك كله نرى أن التدين بالعقيدة ـ أياً كان المذهب الذي يطبق فيه هذه العقيدة أو تلك ـ فضيلة وسعادة، أما التعصب للرأي والمذهب، والطائفة فهو الشر والرذيلة والإثم، بل إنه وثنية من نمط جديد... فالدين يطهر الأخلاق، ويهذب السلوك ويرتقي به ليفنى الفرد في الجماعة فإذا تحوّل هذا الدين إلى أداة تعصب وكراهية وقتل وتدمير للحياة أصبح شراً لا بد من مواجهته ومقاومته...

ويكفي أن ندلل على فقه المقاومة الدينية في لبنان وفلسطين ما ربته في مناضليها من توازن بين العقيدة وبين التضحية والفداء في سبيل الله والوطن. ويؤيد هذا كله أسماء الشهداء الذين ضحوا بأنفسهم من أجل كرامة الإنسان ـ " ولقد كرمنا بني آدم" (سورة الإسراء 70/17) في أرضه ووطنه في الوقت الذي يبتغون من شهادتهم وجه الله لقوله تعالى: " ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون"(آل عمران 169/3)، إنهم يدفعون أذى شذاذ الآفاق الذين جاؤوا من وراء البحار ليحتلوا ديار العرب والإسلام...

ولهذا كله فهناك عملية تشويه عظيمة تلحق ثقافة المقاومة، ولاسيما ثقافة التربية الدينية للعربي والمسلم اللذين يتعرضان لضغوطات سياسية ونفسية وفكرية وتربوية بغية تغيير المفاهيم التي تربيا عليها منذ وجود الثقافة العربية الإسلامية والتي ركزت على مقاومة العنف والقتل والفساد والسوء والانحراف... من دون أن يغيب عن بالنا أن سمة الفكر الديني الإسلامي هي قبول الآخر واحترامه أياً كانت عقيدته ـ "وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين" (سورة سبأ 24/34) بعكس ما نراه عند الآخر الغربي الأمريكي الصهيوني الذي يصر على السيطرة وتبديل مفاهيم العرب والمسلمين لحسابه، وعلينا ألا نغفل عن ذلك والعالم يتطور من حال إلى حال....

ومن يرجع إلى أحداث الحادي عشر من أيلول (2001م) يدرك أن بوش

الابن لم يخجل أو يتردد في أن يعلن صراحة بأنه يقود حرباً مقدسة صليبية؛ ويرى أنها حرب ينوب فيها عن الإله؛ إنها حرب الملائكة ضد الشياطين؛ وحرب الدول المتحضرة في مواجهة الدول الشريرة، وحرب الديمقراطية ضد الإرهاب...[1]

تلك مقولات دينية كثيرة حملتها حرب بوش على الإنسانية، فبوش قسم العالم إلى معسكرين؛ معسكر للخير والملائكة والأخيار ووضع نفسه وإدارته ودولته ومن ينضم إليه في هذا المعسكر، ومعسكر آخر للشر والشياطين، ثم أعلن من ليس معنا فهو ضدنا.

ولو افترضنا صحة ما ذهب إليه فإن المرء ليتساءل عنه وعن معسكره من الملائكة والأخيار: لماذا شنوا حربهم الظالمة على العراق؛ وارتكبوا فيه جرائمهم البشعة، فضلاً عن أنهم قتلوا مليون طفل عراقي في حصار جائر على العراق؛ منع عنه الدواء والغذاء، وقد شاركته الأمم المتحدة ـ على نحو ما؟ وهذا يؤكد تعطشهم لسفك دم العربي والمسلم. فهم لم يكتفوا ـ قبل ذلك ـ بحربهم الفتاكة التي شنوها على أفغانستان ودمروا الحياة، والأوابد التاريخية، وسرقوا ثروات البلاد والعباد وإنما قاموا بجرائم متتابعة في العراق وليبيا والسودان.. إنها الجريمة الوحشية التي تنفذ باسم الحرية وإشاعة الديمقراطية... إنها الإله الجديد الذي اتخذوه ذريعة لغزو الدول وسرقة مواردها. وكان اليهود قد اتخذوا منهج الإرهاب والتدمير أسلوب حياة لهم وسوغوه بأنه مستمد من إرادة الإله... فهل الإله ــ إن لم يكن يهودياً أو أمريكياً ـ يرغب في ذلك؟

ثم أي حرية هذه التي يتحدث عنها الأمريكي؟!؛ أهي تلك التي تساند قتل الأبرياء في العراق وأفغانستان والصومال ولبنان أم تلك المساندة للدولة الصهيونية الوالغة في دم الشعب الفلسطيني، وتهجيره، واقتلاعه من أرضه

---

[1] انظر الديمقراطية والإسلام 165 – 179 – سليم قندلفت – أرواد للطباعة والنشر – طرطوس – سورية – 1996م، وراجع كتابنا مشروع القومية العربية إلى أين 156 – 168 و 182 – 210 – دار الفرقد – دمشق – 2006م وأمريكا (العقلية المسلحة) – 18 – 20، والجيل الثالث: نهج المقاومة – 213 – 215..

وجلب المستوطنين الصهاينة إليها؟!

إن ما يدعو إلى الاستهجان والاستغراب أن الإدارة الأمريكية لا تزال تستعمل ـ أيضاً ـ حق الفيتو ضد إدانة الدولة الصهيونية اللقيطة التي تمارس أبشع أنواع الإرهاب الدولي بحق الشعب الفلسطيني الأعزل الذي لا يملك إلا إيمانه بوجوده ودفاعه عن حق الحياة... ولكنا يذكر المجازر المنظمة لهذه الدولة المسخ منذ مذبحة دير ياسين وكفر قاسم إلى جنين ومذابح غزة. وعلى الرغم من ذلك سارع كثير من الأنظمة العربية إلى تبني مفاهيم بوش في حربه المقدسة وفي إطار ما زعمه عن تبني الديمقراطية والحرية والعدالة والمساواة، فطفقت تحذف من برامجها التعليمية والدينية والتربوية والخلقية كل ما يمت إلى مفهوم الجهاد بصلة، وكأنها أقرت بما يصفها به بوش من أن الثقافة العربية الإسلامية لا تربي العربي والمسلم إلا على الإرهاب...

إن حكاية بعض الأنظمة مع عقيدتنا الدينية السمحة أغرب من الخيال؛ إذ لا يجوز لنا أن ننشئ أطفالنا على حب الوطن والأمة وتراثهما وعقيدتهما... وبث روح الحماسة والتضحية في نفوسهم للدفاع عن ذلك، بل للدفاع عن الوجود الإنساني الحر... علماً أن عقيدتنا وتراثنا وثقافتنا لا تُعلِّم هؤلاء الناشئة تغذية العداوة للآخر كما يفعل الآخر الصهيوني، إنها تربّي فيهم مفهوم الحب الإنساني، وتدعوهم إلى التماس طريق الهداية للضال بالدعوة الحسنة وفقاً للحديث الشريف: ((لئن يهد الله بك رجلاً خير من الدنيا وما فيها)) وفي رواية أخرى ((خير من حمر النعم)). فالجهاد الذي فُرض في عقيدتنا جهاد من أجل حماية الكرامة[1]. وتراثنا كله قائم على الحب للآخر، والتماس طريق المعرفة والحوار في حل المشكلات التي تنشأ بيننا وبينه، وإذا كان لا بد من القتال فهو في حالة واحدة للدفاع عن النفس والوجود.

وإذا كان الكيان الصهيوني مدعوماً بالإدارة الأمريكية المتصهينة والغرب المعادي للإسلام، كما ظهر أخيراً في الدانمرك بحجة ممارسة (حرية التعبير) إذ أعلنت الصحف الدانمركية يوم (2008/2/12م) تضامناً كاملاً مع صحيفة (يولاندس بوستن) والرسامين الذين رسموا رسومات حاقدة تنال من

---

[1] راجع ما تقدم 41 وما بعدها

الرسول الكريم، ونشرت جميعها تلك الرسوم إمعاناً من أصحابها ـ كما زعموا ـ في الدفاع عن (حرية التعبير) و(الديمقراطية)[1]... نقول: إذا كان ذلك كذلك فإن الغرب المتصهين قد اعتمد مبدأ القتل المتعمد للإسلام والمسلمين وفي صميم ممارسة الإرهاب الفكري والإعلامي نفسه. إذاً؛ أغلب ما تمارسه الإدارات الأمريكية المتعاقبة والصهيونية المارقة بحق الإسلام والمسلمين إرهاب موصوف مسبقاً، وفضلاً عن ذلك فكل إنسان يتعرض للسامية ويفند أكاذيبها وافتراءات الصهاينة في طبيعتها سيواجه بشدة وحزم وربما يباح دمه...

وفي ضوء ذلك كله فإن الوطن العربي يعيش حالة خطرة في مواجهة التربية الدينية المنحرفة للغرب وللكيان الصهيوني، ولاسيما حين فرض كل منهما على المسؤولين التربويين العرب تغيير المناهج الدينية والثقافية التي تربي الناشئة على قتال المحتل ومقاومته...

ومهما قيل في شأن المقاومة والتربية الدينية فإن هذه التربية ضرورة لخلق الإيمان بالوطن والتضحية في سبيله عن دراية وعلم ومعرفة السلاح ومعرفة العدو. ومن ثم علينا أن نعرف ماذا نملك؟ وما الذي يملكه العدو؟ وما الذي يخططه؟ ومتى سيبدأ الحرب؟ و... ولعل ما قدمته المقاومة الوطنية الإسلامية يعزز ذلك كله كما يعزز مبدأ تغذية الصبر والصمود عن طريق التثبت بمفاهيم العقيدة مثل (الإيمان بالقدر الإلهي) لقوله تعالى: " إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين"(سورة الأنفال 65/8) وقوله تعالى: " إن ينصركم الله فلا غالب لكم"(سورة آل عمران 160/3).

ـ أما اللطف الإلهي بأسر الجنديين فقد تجلى بقوله تعالى: " وما تشاؤون إلا أن يشاء الله"(سورة الإنسان 30/76) وقوله : " وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم..." (سورة الأنفال 7/8).

ـ وأما انكشاف الجيش الصهيوني أمام أبطال وهبوا أرواحهم لله فإنه تأكد حين نصرهم الله وشفى قلوبهم مصداقاً لقوله تعالى " "فإما تثقفنهم في الحرب فشرّد بهم من خلفهم لعلهم يذَّكّرون... ولا تحسبن الذين كفروا سبقوا

---

[1] انظر كتابنا (مشروع القومية العربية إلى أين 182 ـ 210 و227 ـ 231).

إنهم لا يعجزون" (سورة الأنفال 57/8 و 59) وقوله تعالى: " ولا تِهنُوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليماً حكيماً" (سورة النساء 104/4).

ونرى أن تقرير فينوغراد أقر بهزيمة الجيش الصهيوني؛ وفق ما ثار حوله من انتقادات شديدة في الداخل الصهيوني... ما يعني أن الفكر الصهيوني اليهودي قد بدأ يتدهور، ومن ثم بدأت نظرية يهودية الدولة التي أطلقها (تيودور هرتزل) تتكشف عن نزوع عرقي ديني معادٍ للبشرية، ولمّا كانت كذلك كان لا بد لها من الهزيمة...

فالتربية الإسلامية المقاومة لم تكن في يوم ما اعتداء على الآخر الصهيوني ولا عصبية منها ضد أي أحد، وإنما هي وسيلة للتحرر من قهره وظلمه؛ وللحفاظ على المروءة العربية التي أهينت تحت صَلَف الغطرسة الصهيونية المتوحشة في نكبة (1948م) وهزيمة (1967م)[1]... ومن ثم حين نعيد استثمار التربية الدينية الوطنية وإعداد المقاتلين المؤمنين ـ في ضوء خطة تربوية ثقافية واضحة الأهداف والمناهج ـ إنما نؤسس تربية نضالية سياسية تؤكد مكانة الذات الوطنية الإنسانية وتثبت جوهر الهوية العربية الأخلاقي، وتضع الجماهير العربية في الموقع المطلوب وتعزز جملة من الأنماط السلوكية التي تدفع المرء إلى الابتعاد عن العنف للعنف وإيذاء البشر، وعن العدوان الذي ينال من الإنسان، لأنه محرم شرعاً؛ ومرذول خلقاً... ولا يؤدي بالناس إلا إلى الشقاء... والتعاسة... ما يعني أن جوهر التربية الدينية الإسلامية ينضوي على قبول الآخر، والتفاعل معه، والتسامح عما اقترفه من ذنوب وآثام بحق المسلم لقوله تعالى: "... ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم فاعفُ عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين" (سورة المائدة 13/5).

وهو ـ بهذا المحتوى ـ تحدّ صارخ لكل الأنظمة العربية الحاكمة التي أجهضت بخلافاتها كل أمل بالوحدة العربية والتقدم والازدهار، فكانت أشد إيذاء للحلم العربي من المستعمرين الطامعين بها... علينا أن نعيد إلى الأمة

---

[1] راجع ما تقدم 219 وما بعدها.

العربيـة وجههـا المشـرق الـذي ظهـر في تشـرين (1973) وانتفاضـة (1987م) و(2000م) وانتصار أيار (2000/5/25م) وتمـوز (2006م) وأن نبصّـر أبناءهـا بـدور بعـض الحكـام في تفكيـك اللحمـة الوطنيـة والقوميـة، وبـدور الكيـان الصـهيوني في النظـام الكـوني الجديد وفـق مـا هـو معـروف عـن نظـام (الشـرق الأوسـط الجديـد)، مـا يفـرض علينـا أن نـتخلص مـن الإعـلام المـأزوم والمهـزوم والعاجز عن رؤية حقيقة القيم الدينية... وأن نوجد إعلاماً متطوراً يتصف بكـل التقنيات الحديثة والأساليب المتقدمة والكفاءات العالية، وأن نمضي في تطوير تربية الناشئة وفق الالتزام بالقضايا الوطنية والقومية التي تؤكـد الـذات دون أن تنفـي الآخـر؛ في آن معـاً وأن نسـتلهم مخاطبـة الـذوق والوجـدان والعقـل بأسـلوب حضاري راقٍ.

فالثقافـة الوطنيـة والتربيـة الدينيـة المقاومـة يقويـان الميـل في الـنفس العربيـة لدراسة الواقـع العربي والعالمي؛ لاستيعاب الـدروس الكـثيرة منـه؛ ولا سـيما تلـك التربيـة الـتي تقـاوم كـل أشـكال اليـأس والإحبـاط، والتمزيـق والتضـليل الـتي مورست من أجل تشويه مفهوم الانتماء وجوهره الحقيقي وهدف الدين الصحيح ومبادئـه الخلقيـة... فجدليـة التربيـة المقاومـة تعـني حتميـة التفاعـل بـين الإنسـان ووطنه وأمته وتنمية الارتباط بهما، ومن ثم تعزيز قدرته على التعامل مع الوسط الكـوني الـذي يعيش فيـه بمـا ترسـخه التربيـة مـن حقـوق الإنسـان الـتي تواضـع عليها المجتمع الإنساني.. لهذا يصبح الـدفاع عـن الـوطن دفاعـاً إنسـانياً مشـروعاً يقوي التلاحم بين الإنسان والآخر على أساس الاحترام والمسـاواة والتكـامل، لا على أساس التغليب أو التغييب، والإلغاء أو الإقصاء.

وعليه فإن فكـرة اللاانتمـاء إلى وطـن مـا؛ وأمـة مـا، وثقافـة مـا، هـي الـتي ستفجر الصراعات القاتلة؛ لأنها تريد أن تلغي خاصية التنوع والاختلاف، وهـي صفة أصيلة جُبل الناس عليها...

وليس لدينا شك في أن هذا التنوع والاختلاف هو الذي يميز ذاتية فردية من ذاتية فردية أخرى بسمات ما في كينونتها وسيرورتها وثقافتها... على حين تريد

الأمركة في إطار نظام العولمة الجديد[1] أن تفرض أحاديتها على خلق الله جميعاً أفراداً وجماعات؛ ما يؤكد أن الأمركة مصابة بمرض الانفصام؛ فهي من جهة تحاول أن تبرز الحرية الشخصية للإنسان ومن جهة أخرى تريد أن تلغي شخصية الأمم والأوطان والشعوب...

إن دعوى فصل الذات الفردية عن الانتماء إلى وطن وهوية وأمة في مفهوم الأمركة تحت دعاوى الحرية الشخصية إنما هو افتراء وكذب وتدجيل، ولاسيما أن مبدأ الديمقراطية في القرار الأمريكي ينصهر في إطار المركزية النهائية لقيادة العالم ما يعني صناعة أعتى أنماط الاستبداد والقهر والديكتاتورية... ومن ثم فأي إنسان غير منتم لا يمكنه أن يحدد ما يريد بشكل متوازن وجيد، لأنه تابع بالضرورة لأفكار شتى مشتتة، وليست له أهداف ثابتة ومحددة.

وبناءً على ما تقدم فإن مسؤولية المؤسسات التربوية والعلمية والثقافية والاجتماعية والدينية والإعلامية لاتقل تأثيراً عن مسؤولية المؤسسات السياسية القيادية في إعداد أجيال مؤمنة بهويتها وتراثها؛ واعيةٍ لكل ما يحيط بها، عاملة على رفع كفاءتها وقدراتها في كل شؤونها الحضارية والعلمية... فأي تطوير إداري أو علمي أو تقني أو ... لمعهد من معاهدنا، أو مؤسسة من مؤسساتنا ينبغي أن ينص على رؤية وطنية ـ قومية واضحة ودقيقة، وعلمية تنسجم مع مفهوم المقاومة وتربية النشئ تربية دينية في إطار من التوازن والتفاعل والتكامل، وألا تكون تلك الرؤية ملحقة أو تابعة أو مستنسخة، أو متخلفة، أو عاجزة، أو منحرفة أو قاصرة... فالتربية المقاومة هي التي تخلق الإنسان السوي القادر على الاستجابة الفطرية والعقلية لمتطلبات التنمية في أي شأن من شؤون الحياة، ومن ثم فإنها تربية لا تقتصر على الجانب التخصصي لأي نظام تربوي وثقافي ... وإنما تدخل في صميم احتياجات الوطن والأمة وتطويرها في خدمة الأهداف الكبرى لتحقيق الكرامة الإنسانية... وكذلك

---

[1] انظر: كتاب العولمة بين الاختبار والاختيار – مركز الدراسات الاستراتيجية – دمشق 2005م – ص 23 –35.

هـي تربيـة لا تقتصـر علـى مجـرد مقاومـة المعتـدي الخـارجي بـالقوة المادية وإنمـا تسـتند إلى بـرامج ومنـاهج وأسـاليب تقـاوم كـل انحـراف أو فسـاد ... ينشـأ في داخل الوطن على الصعيد الفردي والجماعي... فالتنشئة الوطنيـة المقاومـة تخلق في الأجيال الكفاءة والقدرة والحرية، والتناسـب والانسـجام بـين مـا هـو داخلـي وما هو خـارجي وفـق القـيم الأصيلة والإنسـانية... وهـي في ذلـك كلـه تسـعى إلى رفعـة الـوطن والأمـة وصيانة وحـدتهما وسـيادتهما علـى اعتبـار أن التكامـل بـين الذات الفردية والذات الجمعيـة قـد أضـحى ضـرورة وجـود، وأن أي اعتـداء علـى أحدهما اعتداء على الآخـر، وكـذلك فـإن الانتقـاص مـن أحـدهما هـو انتقـاص من الآخر.

هـكذا كـان هذا الفصـل خاتمـة موضـوعية للفصـول الـتي تقدمتـه بوصـفه يجسد ذروة مفهوم المقاومة في آفاقها الوطنية المتجددة، فالتربية المقاومة للناشئة والأجيـال بكـل شـرائحها ردٌّ طبيعـي علـى نـزوع الشـر الـذي عشـش في رؤوس الطـامعين بـاحتلال أوطاننـا وسـرقة خيراتهـا والإجهـاض علـى ثقافتهـا وتراثهـا وقيمها و...

وهذا كله ينقلنا إلى الخاتمة التي ضمت أبرز نتائج البحث...

الخاتمة

تعد الثقافة ـ قديماً وحديثاً ـ الوجه الأنصع للحضارة، ومن ثم فهي بمعناها الوجودي والأنثروبولوجي تتصدر حياة الأمم الحية، وتشغل بال كل فرد فيها... لأنها تمتلك في بنيتها رؤية صنع الأحداث الجسام، وتوجيه المتغيرات الأساسية في حياة الناس على مختلف الصُعُد لبناء المستقبل الفاعل.

ولعلّ من أعظم التحولات الفكرية الوطنية والاجتماعية والإنسانية ما يتجلى بفكرة التحرر من الاستعمار، أو الدعوة إلى التحرر من التخلف والجهل والتبعية.... وهو ما أطلق عليه في تاريخنا الفكري والسياسي والأدبي والاجتماعي فكرة الجهاد بالنفس والمال... فما آل إليه التفكير العربي يبعث على الخوف... ليس ـ فقط ـ على اعتبار أننا أخذنا نحاكم تاريخنا النضالي القريب والبعيد، وفق الرؤى الإيديولوجية الجديدة، بل على اعتبار أننا أخذنا نؤمن بمفاهيم الآخر المناقض لنا في فلسفته، وتفسيراته لكل ما ورثناه من قيم ومبادئ، لأنه الأقوى عسكرياً وسياسياً واقتصادياً وإعلامياً وتقنياً وعلمياً و.....

ومن هنا نرى أن فكرة الجهاد المقابلة للكفاح التحرري حملت كل تشوهات الفكر الغربي وثقافته وسلوكه فصارت تلتصق بمفهوم قتل الأبرياء، وإرهابهم، وترويع الآمنين المطمئنين... وكل من يدعو إليها فهو إرهابي لا يملك من الحضارة والأخلاق والإنسانية شيئاً... وما دام الإسلام يتبنى فكرة الجهاد في تعاليمه وعقيدته فهو قرين للإرهاب أو الرعب أو الهول (Terrorism) ومن ثم صار المسلم أو العربي إرهابياً ناشراً للرعب (Terrorists).

ومهما قيل في هذا الشأن فإن العرب لا يختلفون عن بقية المجموعات البشرية في نهج سبيل المقاومة وبيان ماهيتها وجدواها في تخليص الذات الفردية والجماعية والأوطان من القهر والسيطرة والاحتلال واستغلال الموارد البشرية لحساب الأقوى؛ علماً بأن المقاومة منذ قديم الزمان قد أخذت أنواعاً شملت

كل جوانب الحياة مادية وروحية؛ ثقافية وسياسية، اقتصادية وتقنية، علمية وإعلامية و.. فردية وجماعية، داخلية وخارجية، كونها دفاعاً عن الذات والوجود وهو ما نراه مثلاً في مقاومة الاحتلال الصهيوني في فلسطين، والأمريكي في العراق... ومن هنا ندرك أن المقاومة مقدسة عند الأمم المختلفة وفق ما وقع على أوربا من ظلم العدوان النازي وتدمير أجزاء كثيرة منها، ما فرض عليها مقاومته، مما جعل مصطلح المقاومة يدخل في المعاجم الفرنسية إبان الحرب العالمية الثانية بوصفه مواجهة الاجتياح الألماني بقيادة هتلر والنازية، ثم غدت مقاومة سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية. فالمقاومة عند الشعوب مشروع تحرري وطني مارسته بأشكال شتى، وكذا كانت عند الفيتناميين وغيرهم.

وهذا كله أكد لنا أن المشروع الأمريكي الصهيوني إنما هو مشروع احتلال وهيمنة ولا بد من مقاومته بكل الأساليب.

وفي ضوء ذلك حاولنا أن نقف عند المقاومة الوطنية اللبنانية ثم عند انتفاضة الأقصى التي جرت أقلام كثيرة بالحديث عنها واختلفت حول جدواها وأشكالها، ونتائجها ... وبخاصة بعد أن تخلصت إسرائيل – بالسم – من ياسر عرفات.

ونرى أنه ما من باحث في أي موضوع قد قال الكلمة الأخيرة، ولهذا فإن ما قدمه الآخرون في الحديث عن المقاومة الوطنية اللبنانية وعن الانتفاضة أصبح جزءاً لا يتجزأ من مادة كل بحث. ومن ثم فقد أفاد بحثنا منها لكنه يطمح إلى أن يضيف كلمة أخرى في شأنها وإذا كانت هذا الرؤية تمثل مشروعية البحث العلمي فإن أي بحث يعالج القضايا الوطنية والقومية الكبرى يصبح ذا نكهة خاصة لأنها تمثل روح التعبير عن الوجود والانتماء ...

وقد استطاعت المقاومة الوطنية في فلسطين والعراق ولبنان أن تعمق هوية الإنسان العربي طفلاً أم شيخاً وأدرك أن المقاومة الشعبية النضالية وحدها من تحقق له تطلعاته ولذلك لا بد من التضحية. ومن ثم دخلت المرأة في عمق الصراع العربي الإسرائيلي، وطورت المقاومة أنظمتها وخططها، وأخذت ترسم آفاقها المستقبلية بخلق الوعي والخبرة والحنكة في التعامل مع الكيان

الصهيوني والدول الداعمة له، ومن ثم تنمية آليات الحفاظ على الوجود والأرض بتربية وطنية ترتبط بالعمق العربي والإسلامي والإنساني، وتعرية طروحات الصهيونية حول أرض الميعاد والأرض الخالية، وخرافة شعب الله المختار، وفضح كذبة هيكل سليمان بعد أن أثبتت المكتشفات الأثرية اختلاقها.

ومن ثم انتهى كل من المقاومة الوطنية اللبنانية والعراقية، والانتفاضة إلى تحقيق وعي وخبرة وثقافة أصّلت لثقافة المقاومة الحرة كما أصَّلت للثقافة العربية الإسلامية المتسامحة التي أكدت أنها ثقافة سلام ولم تكن يوماً ما ثقافة استسلام وخوف ... وأكدت في الوقت نفسه تضافر القوة المادية والخبرة العسكرية مع مفهوم الإسهام الحقيقي في تبني آليات إعلامية وتقنية فضائية لإيضاح حقيقة الكيان الصهيوني، مما أدى إلى كسب الرأي الدولي والوقوف من الآخر داخلياً وخارجياً موقف الواعي المنفتح على أفكاره دون اتهام أو محاباة.....

وهذا لا يعني أن الثقافة الوطنية أو القومية صارت قابلة للتسليع في سوق التداول والتفاوض، أي إن ثقافة السلام لا تماثل ظاهرة الاستسلام، وهي ليست كذلك. فثقافة السلام تعد منهجاً فعالاً لمواجهة ما يتعرض له الإنسان ولهذا فإن ثقافة السلام تعد جزءاً أصيلاً في تشكيل الوعي الثقافي للفكر السياسي وتمكين ثقافة المقاومة والتحرر، فردياً وجماعياً، وطنياً وقومياً وإنسانياً، أياً كان الشكل الذي تتخذه أو الحقل الذي تتفاعل فيه، وعلى مُختلف الصعد السياسية والثقافية والاقتصادية والإعلامية، والأدبية، و ....

هكذا يتضح لدينا أن ثقافة السلام ثقافة مقاومة تتشبث بالأرض والحق ولم يكن أي عمل بطولي جهادي خيالاً أو تخيّلاً وهمياً فقد شهدناه حركات نضال على مستويات عدة، ابتداءً بالمفكرين والساسة الأبطال في ساحات فلسطين ولبنان والعراق والسودان والصومال وانتهاء بالأقلام الأدبية التي عبَّرت عن ذلك في القصة والرواية والأشعار والمسرحيات... أو في تلك اللوحات الفنية التي ظهرت بالألوان والإيقاعات الموسيقية التي تمجد البطولة وصمود الأحرار، على حين كانت سياسة الاستسلام تقوّي ازدواجية الولاء للوطن ولغيره،

فيتمـزق الانتمـاء ويسـهل تـدمير الكينونـة الذاتيـة للفـرد والمجتمـع والـوطن، إذ تنتقل الشخصية من انفصام إلى انفصام ذاتياً ووطنياً وقومياً و... في الوقت الذي تنتقل المفاخر الوهمية إلى ركام من القرارات المذلة التي أرادت للشعب العربي أن يعيش على هامش الحياة، وهو يلعق مرارة اليأس والقلق والإحباط والخوف والهزيمة. فسياسة الاستسلام التي تُسوقها الدوائر الغربية باسم ثقافة السلام وفق الخطاب الأمريكي الصهيوني؛ إنما تنتهي إلى تجزئة مفهوم الوحدة الوطنية، ليصبح الوطن دولاً متعددة، بعد أن غدت القومية حلماً بعيداً أي لم يعد هناك حاجة إلى الدولة الوطنية الجامعة لأعراق عدة، ومذاهب دينية شتى. فالواقع الراهن ـ كما يرى هذا الخطاب ـ يفرض إقامة دويلات مذهبية أو عرقية تحت أي مسمًّى كان. فإذا كانت الدولة القطرية عقبة كأداء لتحقيق الدولة القومية، فإن كل ما قيل هو الخطر الذي هَدَّد تحقيق الدولة الوطنية والقومية باعتبارها مستندة إلى مفهوم العروبة ولهذا تبقى ثقافة المقاومة ضرورة وعي ووجود للحفاظ على الذات والوطن والأمة، وضمان للحرية الفردية والجماعية، وأصل للسيادة والاستقلال.

وأياً ما تكن قيمة ثقافة المقاومة المسلحة فهي لا تكتمل بغير المقاومة السلمية، ولكل منهما آثاره الإيجابية البعيدة، وفق ما أكدت الأحداث التاريخية والمعاصرة. وتبقى المقاومة وحيدة الاتجاه إن لم تغرس القيم النبيلة في نفوس الناشئة بمختلف الوسائل... فالتربية الوطنية المقاومة أساس بناء الأوطان الحرة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المصادر والمراجع

1 ـ الآثار الكاملة لغسان كنفاني ـ مركز الدراسات ـ 1968م ـ ط8.

2- الأبعاد الفكرية والعلمية /التقنية للصراع العربي/ الصهيوني ـ د. خلف محمد الجراد ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق 2000م.

3 ـ أبعاد القضية الفلسطينية من المناورات الدولية إلى انتفاضة الأقصى – عبد الله خلف – دار الوطن للطباعة – الكويت – ط1 – 2001م.

4- أثر الانتفاضة في الهوية الجماعية في الضفة الغربية وقطاع غزة – محمود معياري – مجلة الدراسات الفلسطينية – بيروت – ربيع / 2004.

5 ـ الاحتلال الإسرائيلي وشرعية المقاومة والعمليات الاستشهادية ـ د. غازي حسين ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ 2007م.

6 ـ الأحزاب الإسرائيلية، مصالح وعقائد ـ أحمد خدام السروجي ـ دمشق ـ ط1 ـ 2007م.

7 ـ الأدب الصهيوني وتضليل الرأي العام ـ فؤاد سليم أبو زريق ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ 2000م.

8 ـ أزمة فلسطين بين الحقائق والتزوير – مروان الماضي – الأهالي للطباعة والنشر – دمشق – ط1 – 2001م.

9 ـ الاستراتيجيات العسكرية للحروب العربية الإسرائيلية ـ د. هيثم الكيلاني ـ مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت ـ ط6 ـ 1991م.

10 ـ الاستشراق (المعرفة ـ السلطة ـ الإنشاء) ـ إدوارد سعيد ـ ترجمة كمال أبو ديب ـ مؤسسة الأبحاث العربية ـ بيروت ـ 1991م.

11- الاستيطان الصهيوني (محاضرات في الاستيطان الصهيوني) – د.طلال ناجي – مؤسسة الرؤى للطباعة والنشر – بيروت – ط1- 2004م.

12 ـ الاستيطان اليهودي في فلسطين من الاستعمار إلى الإمبريالية ـ د. غازي حسين ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ 2003م.

13- أسطورة هرمجدون والصهيونية المسيحية – عرض وتوثيق هشام آل قطيط – دار النمير للطباعة و النشر – دمشق – ط1- 2004م.

14 ـ الإسلام بين المفاهيم والمصطلحات ـ وزارة الأوقاف ـ سورية ـ ط1 ـ 2014م.

15 ـ الأصمعيات ـ للأصمعي ـ تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون ـ دار المعارف بمصر ـ القاهرة ـ ط4 ـ 1976م.

16 ـ أضواء على الفكر الصهيوني، سميح القاسم، دار القدس، بيروت، 1978م.
17 ـ أضواء على انتفاضة الأقصى والمقاومة اللبنانية ـ قصي عدنان عباسي ـ بيروت ـ 2004م.
18 ـ الاعتبار، أسامة بن منقذ، أخرجه فيليب حتّي، جامعة برنستون، 1930
وقد رجعنا إلى طبعتين للكتاب وهما:
أ ـ مراجعة الدكتور حسن الزين ـ دار الفكر الحديث ـ بيروت ـ 1988م.
ب ـ تعليق الدكتور عبد الكريم الأشتر ـ المكتب الإسلامي ـ دمشق ـ 2003م ـ ط 2.
19 ـ الأعلام ـ خير الدين الزركلي ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ لبنان ـ ط7 ـ 1986م.
20 ـ الأعمال الشعرية ـ سليمان العيس ..
21 ـ الأعمال الشعرية الكاملة ـ نزار قباني ـ منشورات نزار قباني ـ بيروت ..
22 ـ الأعمال الكاملة ـ غسان كنفاني ـ الدراسات ـ 1968م.
23 ـ الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د/ت.
24- الاغتيالات الإسرائيلية – والتصفيات السياسية – عماد لبد – مجلة رؤية – السنة الأولى – العدد 12- أيلول /2001م.
25- الاغتيال الانتقائي الإسرائيلي – آمال الخزامى – مجلة رؤية – السنة الثالثة – العدد 28- آذار مارس 2004م.
26 ـ امبراطورية كل الأرض، أو خفايا (النظام العالمي الجديد) ـ ف. ي كرلوف ـ ترجمة م. منتخب يونس ـ منشورات دار علاء الدين ـ دمشق ـ ط1 ـ 2007م.
27 ـ أمريكا العقلية المسلحة ـ عبد الله محمد الناصر ـ رياض الريس للكتب والنشر ـ بيروت ـ 2007م.
28- انتفاضة الأقصى – دروس وعبر – علاء الدين معصوم حسن – مجلة الأسبوع الأدبي - اتحاد الكتاب العرب – دمشق – العدد 890- 2004/1/10م.
29- الانتفاضتان الفلسطينيتان – أوجه الشبه والاختلاف – د. أسعد عبد الرحمن – جريدة الاتحاد – أبوظبي – الإمارات – تاريخ 2004/3/19م.
30- انتفاضة الحجارة – عبد الجبار عدوان – جريدة الشرق الأوسط – 1990/12/30م.
31 ـ الانتفاضة في أدب الوطن المحتل ـ محمد توفيق الصواف ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ 1997م.
32 ـ انكسارات الواقع وتداعيات الحاضر ـ أحمد الحسين ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ 2005م.
33 ـ الإيديولوجية الصهيونية، د. عبد الوهاب المسيري، سلسلة عالم المعرفة، المجلس

الوطني للثقافة، الكويت، 1983م.
34 ـ بذور الفتنة الطائفية في لبنان ـ النظام السياسي اللبناني ـ د. محمد سعيد عكام، دار البراق ـ بيروت ـ ط1 ـ 2006م.
35 ـ تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم، محمد عزة دروزة، المكتبة العصرية، بيروت، ط 3، 1970م.
36 ـ تأملات في مستقبل التعليم العالي ـ محمد نوفل ـ مركز ابن خلدون للدراسات الإنمائية ـ القاهرة ـ 1992م.
37 ـ تجليات النكبة والمقاومة في الفكر والأدب العربي المعاصر ـ د. حسين جمعة ـ دار رسلان ـ دمشق ـ 2013م.
38- التطور الاجتماعي والاقتصادي في فلسطين العربية – محمد يونس الحسيني- القدس - 1946م.
39 ـ الثقافة القومية وتداعيات العولمة – ماجد السامرائي – مجلة الفكر السياسي – السنة السابعة – العدد 20- اتحاد الكتاب العرب – دمشق – خريف 2004م.
40 ـ ثقافة المقاومة ـ مجموعة باحثين ـ كلية الآداب والفنون ـ تحرير ومراجعة د. صالح أبو إصبع وزميله ـ جامعة فيلادفيا ـ عمان ـ الأردن ـ 2006م.
41 ـ الجامع الصغير من حديث البشير النذير، للسيوطي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار خدمات القرآن، القاهرة، د/ت.
42 ـ جدلية الإرهاب وحق الشعوب في المقاومة – نواف الزرو – مجلة رؤية السنة الثانية – العدد 16/شباط 2002م.
43- جذور القضية الفلسطينية – إميل توما – دار الجيل – بيروت.
44 ـ جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت، دار الحداثة، بيروت، ط 1، 1985م.
45- الجهاد الاحصائي الفلسطيني(Gov. PsWWW.pnic .).
46- جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن – أبو بصير صالح مسعود – دار الفتح للنشر – بيروت – ط3 – 1970م.
47 ـ الجيل الثالث ـ نهج المقاومة ـ محي الدين الموسى ـ كيوان للطباعة والنشر ـ دمشق ـ 2006م.
48- حائط البراق بين الملكية الإسلامية والانتحال اليهودي – مجلة المتحف العربي – الكويت – عدد 3.
49 ـ حراس الكلمة والموقف ـ د. حسين جمعة ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ 2011م.
50 ـ حضارة العرب ـ غوستاف لوبون ـ ترجمة عادل زعيتر ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ـ ط2 ـ 2000م.

51 ـ حق العودة بين القرار 194 ووثيقة جنيف – د. علي عقلة عرسان – انظر رقم (28) مما تقدم.
52 ـ الحقوق والحريات العامة ـ وزارة الثقافة السورية ـ دمشق ـ 2005م.
53 ـ الحيوان في الشعر الجاهلي، تأليف: د. حسين جمعة، دار دانية، دمشق، ط 1، 1989م.
54- دوائر الخراب : الاستشراق والعنصرية الصهيونية – سمير صالح – دار النمير – دمشق – 2002م.
55 ـ الديمقراطية والإسلام ـ سليم قندلفت ـ أرواد للطباعة والنشر ـ طرطوس ـ سورية ـ 1996م.
56 ـ ديوان الأعشى الكبير، تحقيق د. محمد أحمد قاسم، المكتب الإسلامي، دمشق/ بيروت، 1994م.
57 ـ ديوان البحتري، شرح د. محمد التونجي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 2، 1999م.
58 ـ ديوان دريد بن الصمة، تحقيق عمر عبد الرسول، دار المعارف، القاهرة، 1985م.
59 ـ ديوان الزركلي ـ خير الدين الزركلي ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ط1 ـ 1980م.
60 ـ ديوان الشنفرى، تحقيق د. إميل يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 1، 1991م.
61 ـ ديوان طفيل الغنوي، تحقيق محمد عبد القادر أحمد، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1968م.
62 ـ ديوان أبي الطيب المتنبي، شرح أبي البقاء العكبري، صححه مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة، بيروت، د/ت؟
63 ـ ديوان عمرو بن كلثوم، تحقيق د. علي أبو زيد، دار سعد الدين، دمشق، ط1، 1991م.
64 ـ ديوان محمود درويش ـ (الأعمال الشعرية الكاملة) ـ دار الحرية للطباعة والنشر ـ بغداد ـ ط2 ـ 2000م.
65 ـ ديوان الهذليين، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1965م.
66 ـ الرثاء في الجاهلية والإسلام، د. حسين جمعة، دار معد، دمشق/ط1، 1991م.
67 ـ رجال من فلسطين المحتلة – عجاج نويهض – بيروت - 1968م.
68 ـ رمزية القدس الروحية (قداسة المكان) ـ شمس الدين الكيلاني ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ 2005م.
69 ـ الروضتين في أخبار الدولتين، لأبي شامة شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل

المقدسي، دار الجيل، بيروت، 1974م.
70 ـ سورية (الاستهداف والمؤامرة) ـ د. حسين جمعة ـ دار الشرق للطباعة ـ دمشق ـ ط2 ـ 2013م.
71 ـ سوسيولوجيا الاتصال الجماهيري ـ جوديت لازار ـ ترجمة د. هيثم سطايحي ود. علي وطفة ـ دار الينابيع ـ دمشق ـ 1994م.
72 ـ السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق صححه مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي، دار إحياء التراث، بيروت، د/ت.
73- سيف الانتفاضة ورقبة الاقتصاد الإسرائيلي – د. علي أسعد عبد الرحمن – جريدة الاتحاد – أبو ظبي – الإمارات – 2004/8/25م.
74 ـ شرح أشعار الهذليين، تحقيق عبد الستار فراج،راجعه محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، 1965م.
75 ـ شرح ديوان أبي تمام، تقديم راجي الأسمر، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1998م.
76 ـ الشرق أوسطية من المصطلح إلى المشروع السياسي ـ د. مجيدة بدور ـ مجلة المعلم العربي ـ دمشق ـ وزارة التربية ـ العدد (1 +2) السنة (58) عام 2005م.
77 ـ شعر زهير بن أبي سلمى ـ للأعلم الشنتمري، تحقيق د. فخر الدين قباوة، دار الآفاق الجديدة ـ بيروت، ط 3، 1980م.
78 ـ شعر ابن القيسراني، تحقيق د. عادل جابر، الوكالة العربية للتوزيع، الزرقاء، الأردن، 1991م.
79 ـ الشعر ونهضة الشعور ـ إعداد الدكتور محمد علي آذرشب ـ مؤسسة الهدى للنشر ـ بيروت ـ 2004م.
80 ـ صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د/ت.
81 ـ صدام الحضارات ـ صموئيل هنتنغتون ـ ترجمة طلعت الاشيب ـ بيروت ط2 ـ 1999م.
82 ـ صفحات من الجهاد والكفاح المغربي ضد الاستعمار ـ الدكتور محمد علي داهش ـ دار الشؤون الثقافية العامة ـ بغداد ـ ط1 ـ 2002م.
83 ـ الصهيونية غير اليهودية – ريجينا الشريف – ترجمة أحمد عبد الله عبد العزيز – سلسلة عالم المعرفة – الكويت رقم 96- 1985م.
84 - الصهيونية والعنف – عبد الوهاب المسيري- دار الشروق – بيروت – ط1- 2001م.
85 - صورة إحصائية عن الأوضاع الفلسطينية في الوطن والشتات – أحمد يونس – مجلة الأرض للدراسات الفلسطينية – دمشق – عدد 2001/11م.

86 ـ صورة العربي في الأدب العبري ـ إيهود بن عيزر ـ ترجمة د. أحمد حماد ـ دار الحمراء للطباعة ـ بيروت ـ ط 1. 2001م.
87 ــ صورة العربي في كتاب (رحلة من باريس إلى القدس، لشاتوبريان) وكتاب (مراسلات) لفلوبير؛ فصل: رحلة إلى الشرق) د. أميرة مصطفى عيسى، بحث مقدم لندوة (الأدب وحوار الحضارات) قسم اللغة العربية بجامعة دمشق، 12 ـ 14، تشرين الأول/2002م.
88 ـ صورة المسلم في قصص الأطفال الأسبانية (حكايات أسبانيا) للكاتبة: (أ. خيمينييث لاندي) أنموذجاً، إعداد: د. يونس شنوان، بحث مقدم للندوة المشار إليها في المصدر السابق.
89 ـ ظاهرة الأدب الصهيوني ـ محمد توفيق الصواف ـ سلسلة كتاب الجيب الشهري ـ رقم 9 ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ 2007م.
90 ـ ظاهرة الإسلاموفوبيا ـ قراءة تحليلية ـ خالد سليمان ـ مجلة ثقافتنا ـ طهران ـ مجلد 3 ـ عدد 12 ـ خريف 2006م.
91 ـ العرب وتحديات الشرق الأوسط الكبير ـ توفيق المديني ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ 2010م.
92 ـ العرب وعصر المعلومات ـ د. نبيل علي ـ سلسلة عالم المعرفة ـ العدد 84 ـ المجلس الوطني للثقافة ـ الكويت ـ 1994م.
93 ـ العنصرية والإبادة الجماعية في الفكر والممارسة الصهيونية ـ د. غازي حسين ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ 2002م.
94ـ عيون الروضتين في أخبار الدولتين: النورية والصلاحية، لأبي شامة المقدسي، تحقيق أحمد البيسومي، وزارة الثقافة، دمشق، 1991م.
95 ـ الفتح القسي في الفتح القدسي، للعماد الأصفهاني، تحقيق محمود محمد صبح، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، د/ت.
96 ـ فتوح الشام للواقدي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، القاهرة، ط 4، 1966م.
97 - الفلسطينيون بين الهوية القومية والهوية الدينية – موسى البديري – مجلة الدراسات الفلسطينية – العدد 21- شتاء /1995م.
98 ـ في أصول الشريعة ـ لأبي اسحق الشاطي ـ تحقيق محمد عبد القادر الفاضلي ـ المكتبة العربية ـ صيدا ـ لبنان ـ 2004م.
99 ـ قاموس مصطلحات الأنثولوجيا والفلوكلور ـ إيكة هولتكرانس ـ ترجمة محمد الجوهري و د. حسن الشامي ـ دار المعارف ـ مصر ـ ط.2

100- القانون الدولي المتعلق بسير العمليات الفدائية – (مجموعة اتفاقيات لاهاي وبعض المعاهدات الأخرى)- صادر عن لجنة الصليب الأحمر الدولية – جنيف - 1996م.
101ـ القبيلة الثالثة عشر ويهود العالم ـ ترجمة أحمد نجيب هاشم ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ـ 1991م.
102 ـ القرارات الصهيونية بحق القدس – أحمد الأشبري – دار الحق – بيروت – 2002م.
103ـ قصيدة الرثاء، جذور وأطوار، د. حسين جمعة، دار النمير، دمشق، ط 1، 1998م.
104 ـ قضايا في الفكر السياسي والقومي ـ د. حسين جمعة ـ دار الشرق للطباعة ـ دمشق ـ 2009م.
105ـ كتاب الردة للواقدي، تحقيق د. يحيى الجبوري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990م.
106ـ كتاب العولمة بين الاختبار والاختيار ـ مركز الدراسات الاستراتيجية ـ دمشق ـ 2005م.
107 ـ الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس في العالم العربي، 1980م.
108- لسان العرب – ابن منظور – دار صادر – بيروت – 1955 – 1956م.
109- المثقف العربي وآفاق الواقع – د. حسين جمعة – انظر قم (13) مما تقدم.
110 ـ المجتمع المدني؛ مفهوماً وإشكالية ـ محمد جمال باروت ـ دار الصداقة ـ حلب ـ 1995م.
111- مجلة فلسطين المسلمة – محمد جمال القدسي – أيلول – 2004م.
112 ـ مجلة الكفاح العربي، بيروت، عدد 815.
113 ـ مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، جمعها محمد حميد الله، دار النفائس، بيروت، ط 1، 1987م.
114- محاضرات في الصهيونية – د. طلال ناجي.
115 ـ المرأة الصليبية، دراسة في تاريخ المجتمع الفرنجي في بلاد الشام، طه، الطراونة، مؤتة للبحوث والدراسات، جامعة مؤتة، الأردن، مج 8، عدد 1، 1993م.
116 ـ المرأة والطفل الفلسطيني في الذكرى الرابعة للانتفاضة – نبيل السهلي – صحيفة اللواء اللبنانية – 2004/9/30م.
117 ـ مشاريع الاستيطان اليهودي منذ قيام الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى – د. أمين عبد الله محمود – سلسلة عالم المعرفة – الكويت – رقم 74- 1984م.
118 ـ المشروع الصهيوني والسلام الإسرائيلي – حقائق ووثائق – عدنان مصطفى بيلونة – بيرود للطباعة – دمشق – 2000م.

119 ـ مشروع القومية العربية إلى أين ـ د. حسين جمعة ـ دار الفرقد ـ دمشق ـ 2006م.
120 ـ معالم المشاركة الاجتماعية لانتفاضة الأقصى – غازي خلف – مجلة الوحدة الإسلامية – السنة الثالثة – العدد 29- نيسان /ابريل 2004م.
121 ـ المعجم الأدبي ـ جبور عبد النور ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ط2 ـ 1984م.
122 ـ معجم البلدان، لياقوت الحموي، دار صادر، بيروت.
123 ـ المعمرون والوصايا، لأبي حاتم السجستاني، تحقق عبد المنعم عامر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، د/ت.
124 ـ المفضليات، للمفضل الضبي، تحقيق أحمد محمد شاكر، وعبد السلام هارون، دار المعارف بمصر، القاهرة، ط 5، 1976م.
125 ـ المقاومة الشعبية في الشرق ـ مجموعة باحثين ـ دار المعارف بمصر ـ سلسلة رقم 30 من (اخترنا لك).
126 ـ مكان تحت الشمس ـ فتن يامو ـ ترجمة محمد عودة الدويري ـ مراجعة كلثوم السعدي ـ دار الجليل ـ عمان ـ 1995م.
127 ـ ملامح في الأدب المقاوم (فلسطين أنموذجاً) ـ د. حسين جمعة ـ طبعة جديدة ـ دمشق ـ 2013م.
128 ـ الموجز في تاريخ فلسطين منذ فجر التاريخ حتى عام 1949- د. الياس شوفاني – مؤسسة الدراسات الفلسطينية – بيروت – 1996م.
129 ـ الموسوعة الفلسطينية – اصدار هيئة الموسوعة الفلسطينية – في أربعة مجلدات – دمشق ط1- 1984م.
130 ـ موقع مركز الإعلام الفلسطيني بعد أوسلو : دراسة تحليلية نقدية – مؤسسة الدراسات الفلسطينية – بيروت.
131 ـ النظام السياسي الفلسطيني بعد أوسلو : دراسة تحليلية نقدية – مؤسسة الدراسات الفلسطينية – بيروت.
132 ـ النموذج الانتفاضي والأزمة الصهيونية – عبد الوهاب المسيري – جريدة الاتحاد – أبو ظبي – الإمارات – 1997/4/11م.
133 ـ نهاية التاريخ والإنسان الأخير ـ فرنسيس فوكوياما ـ مركز الإنماء العربي ـ بيروت 1993م.
134- الواقع السكاني والاقتصادي في الضفة والقطاع – نبيل محمود السهلي – مجلة فلسطين المسلمة – العدد العاشر – تشرين الأول / اكتوبر – 2002م.
135- وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية (1918- 1939) أوراق أكرم زعيتر – مؤسسة الدراسات الفلسطينية – بيروت – 1979م.

136- اليهود : عقائد وتاريخ إجرامي – نافذ كاسر سويد – مؤسسة سندباد – دمشق – ط1- 2003م.

دوريات أخرى:

1- جريدة الأسبوع الأدبي – اتحاد الكتاب العرب – دمشق – عدد 932- 2004/11/13م.
2- صحيفة تشرين – دمشق – سورية – 2004/9/17م.
3- صحيفة المستقبل – بيروت – لبنان – 2004./9/30
4 جريدة الوحدوي ـ دمشق ـ العدد 249 ـ 2007/4/15م.
5 ـ مجلة جيش الشعب ـ دمشق ـ العدد (1965م) ـ 2007م.
6 ـ مجلة الأرض ـ دمشق ـ العدد (3) آذار ـ 2007م.

الفهرس

المؤلف في سطور

أ. د حسين علي جمعة

ـ دكتوراه في الآداب ـ جامعة دمشق

1 ـ أستاذ الأدب القديم ـ قسم اللغة العربية ـ جامعة دمشق ـ منذ عام 1983 وما يزال.

2 ـ أستاذ معار إلى جامعة قطر ـ قسم اللغة العربية ـ كلية الإنسانيات 1992 ـ 1997 ـ قام بتدريس الأدب القديم والنقد العربي القديم ـ وكتب التراث.

3 ـ أستاذ الدراسات العليا ـ الدبلوم الأدبي واللغوي ـ جامعة دمشق منذ 1997 ـ ومايزال.

4 ـ الإشراف على رسائل الماجستير والدكتوراه، والمشاركة في مناقشتها في جامعة دمشق والقطر...

المهمات الإدارية والعلمية والثقافية

1 ـ مدير ثانوية ـ : ثانوية خير الدين الزركلي ـ مديرية التربية في دمشق ـ وزارة التربية ـ (1/ 1/ 1977 ـ 8/ 10/ 1984م).

2 ـ مقرر جمعية البحوث والدراسات ـ اتحاد الكتاب العرب ـ منذ عام 2001 حتى غاية 2004م.

3 ـ نائب رئيس تحرير مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية ـ (20/ 3/ 2003 ـ 3/ 11/ 2003م) ـ بالمذكرة الإدارية للسيد رئيس الجامعة رقم (204/ و) تاريخ (19/ 3/ 2003م) والمبلغة إلى كلية الآداب برقم (1133/و) ـ في (20/ 3/ 2003م).

4 ـ رئيس تحرير مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية ـ منذ (4/ 11/ 2003م) بالمذكرة الإدارية للسيد رئيس الجامعة رقم (965/م) تاريخ (3/ 11/ 2003م) والمبلغة لكلية الآداب برقم (5062/و) تاريخ (4/ 11/ 2003م) حتى (2009/12/28م).

5 ـ رئيس فرع دمشق لاتحاد الكتاب العرب ـ بالقرار رقم (994) تاريخ (23/ 8/ 2003م) ـ الصادر عن السيد الدكتور رئيس اتحاد الكتاب العرب حتى تسلمه

مهام رئاسة الاتحاد في 4/ 9/ 2005م.

6 ـ رئيس اتحاد الكتاب العرب في سورية ـ ابتداء من 4/ 9/ 2005م إثر انتخابات الدورة السابعة للمؤتمر العام السابع لاتحاد الكتاب العرب المنعقد في دمشق (1/ 9/ 2005م).

7 ـ عضو اللجنة الشعبية العربية السورية لدعم الشعب الفلسطيني ومقاومة المشروع الصهيوني.

8 ـ عضو مجلس إدارة الهيئة العامة السورية للكتاب ـ بالمرسوم التشريعي رقم (8) لعام 2006م.

9 ـ عضو مجلس الأمناء لمؤسسة القدس الدولية في سورية.

10 ـ عضو لجنة تحكيم جائزة الدولة التقديرية في وزارة الثقافة.

مؤلفاته المنشورة:

الكتب

1 ـ الحيوان في الشعر الجاهلي (دار رسلان ـ دمشق ـ 2010م). ط.2

2 ـ مشهد الحيوان في القصيدة الجاهلية (دار رسلان ـ دمشق ـ 2010م). ط2

3 ـ الملل والنحل للشهرستاني: عرض وتعريف (دار دانية دمشق ـ 1990م).

4 ـ الرثاء في الجاهلية والإسلام (دار معد ـ دمشق ـ 1991م).

5 ـ مختارات من الأدب في صدر الإسلام (جامعة دمشق ـ 1992م).

6 ـ قراءات في أدب العصر الأموي (جامعة دمشق ـ 1992 ـ 1993م).

7 ـ قصيدة الرثاء ـ جذور وأطوار ـ دار النمير ومعد ـ دمشق ـ 1998م).

8 ـ في جمالية الكلمة ـ (اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ 2002م) ـ ط2 ـ دار رسلان ـ دمشق ـ 2011م..

9 ـ ابن المقفع بين حضارتين ـ طباعة المستشارية الإيرانية بدمشق ـ 2003م).

10 ـ إبداع ونقد ـ قراءة جديدة للإبداع في العصر العباسي ـ دار النمير ـ دمشق ـ 2003م).

11 ـ المسبار في النقد الأدبي ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ 2003م ـ ط2 ـ دار رسلان ـ دمشق ـ 2011م..

12 ـ نصوص من الأدب العربي المعاصر ـ بالاشتراك ـ (جامعة دمشق ـ 2005م).

13 ـ جمالية الخبر والإنشاء ـ دراسة جمالية أسلوبية ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق

ـ 2005م ـ ط2 ـ دار رسلان ـ دمشق ـ 2012م.

14 ـ التقابل الجمالي في النص القرآني ـ دار النمير ـ دمشق ـ ط1 ـ 2005م.

15 مرايا للالتقاء والارتقاء ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق 2005م.

16 ـ مشروع القومية العربية إلى أين؟ ـ دار الفرقد ـ دمشق 2006م.

17 ـ المقاومة قراءة في التاريخ والواقع والآفاق – اتحاد الكتاب العرب – دمشق – 2007م.

18 ـ اللغة العربية إرث وارتقاء حياة – اتحاد الكتاب العرب – دمشق – 2008م.

19 ـ قضايا في الفكر السياسي والقومي ـ دراسة ـ مؤسسة الشرق ـ دمشق ـ 2009م.

20ـ ملامح في الأدب المقاوم/ فلسطين أنموذجاً ـ الهيئة العامة السورية للكتاب ـ وزارة الثقافة ـ دمشق ـ 2009م.

21 ـ من القدس إلى غزة ـ دراسة ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ 2010م وطبعة ثانية معدلة ومزيدة ـ بعنوان (التهويد من القدس... إلى غزة... إلى) دار رسلان ـ دمشق ـ 2014م.

22 ـ حراس الكلمة والموقف ـ دراسة في الشخصيات ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ 2011م ودار رسلان ـ دمشق ـ 2014م..

23 ـ قضايا ومبدعون (دراسة في الشخصيات) ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ 2012م.

24 ـ تجليات النكبة والمقاومة في الفكر والأدب العربي المعاصر ـ دار رسلان ـ دمشق ـ 2013م، وهو طبعة معدلة ومزيدة عن كتاب سابق بعنوان (من النكبة إلى المقاومة والتجدد).

25 ـ سورية (الاستهداف والمؤامرة) دار مؤسسة الشرق ـ دمشق ـ 2013م.

26 ـ تجليات التصوف وجماليته في الأدبين العربي والفارسي ـ دراسة ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ 2013م.

27 ـ أسماء في الذاكرة ـ دراسة في الشخصيات ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ 2014.